قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب

تاريخ الفلسفة

تأليف

محمد علي مصطفى
الأستاذ بدار العلوم

و

أحمد عبده خير الدين
الأستاذ بكلية الحقوق

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر
بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب

احمد عنبر
دار العلوم العليا
١٩٢٥-١٩٢٦

تاريخ الفلسفة

تأليف

محمد علي مصطفى
الأستاذ بدار العلوم

و

أحمد عبده خير الدين
الأستاذ بكلية الحقوق

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا
كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد من ملأت قلبه بنور اليقين، فشاهد فى كل شىء آثار قدرتك، ونصلى ونسلم على رسلك أعلام الهدى، الذين رأوا فى كل ذرة من هذا الوجود لمحة منك، وسنا من نورك.

وبعد فهذا كتاب فى تاريخ الفلسفة، التزمنا فى تأليفه طريق الإجمال، وتوخينا سهولة الأسلوب، وآثرنا بالاختيار طائفة من النظريات التى لا يشق فهمها، ورجعنا فى تحقيق مسائله إلى كثير من الكتب العربية والانجليزية.

وقد عالجنا من قبل تدريس ما اشتمل عليه الكتاب فى دار العلوم، ومدرسة المعلمين العليا الأدبية، وقسم التخصص بالمعاهد الدينية — وهانحن أولاء نقدمه إلى القارئ وليس لنا من أمنية سوى أن يثير تفكيره، ويبعث شوقه، ويفتح أمامه بابا جديدا من أبواب المعرفة، فيجد فى طلبها، ويمعن فى البحث عنها، ويأخذ بالحق متى بان له وجهه.

وقد ترددنا فى نشر هذا الكتاب علما بما فيه من وجوه النقص، ولكن الكمال لله وحده، والأفكار إذا بقيت سجينة فى العقول لم يعرف زيفها من جيدها.

وإنا لنرجو أن يكون النفع به عميما حتى نؤدى بعض ما يفرضه علينا الإخلاص لبلادنا، والولاء لمليكنا، سليل اسماعيل، ومعقد رجاء النيل، مولانا المعظم، صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، حفظه الله، وبارك له فى صاحب السمو الملكى، ولى العهد، الأمير فاروق، وجعل له وللأمة المصرية منه قرة عين آمين؟

محمد على مصطفى　　　احمد عبده خير الدين

٢٦ مارس سنة ١٩٣٣

مقدمة

مضى على مناهج الدراسة العالية فى مصر زمن ، كانت فيه ناقصة ، لخلوها من الفلسفة ، ويخيل الى ، أن هذا النقص يرجع الى عدة أسباب : —

منها أن التعليم كان فى يد نفر من رجال الدين ، الذين يمقتون الفلسفة ، ويحرمون على الناس دراستها ، لما بينها وبين العقائد الدينية من ظاهر الخلاف ، ذلك لأن الفلسفة وليدة المجهود الفكرى ، يبذله العقل الطليق من كل قيد ، سوى قيود المنطق ؛ أما الدين فطائفة من العقائد ، تنتظم فريقاً من بنى الإنسان ، وترجع إلى عادات اجتماعية ، تمسك الناس بها زمناً ، وإلى شعائر متوارثة ، انتقلت من السلف إلى الخلف ، وإلى كتاب سماوى ، يناجى القلوب ، ويثير الشعور ، ويصل إلى قرارة النفس من نافذة الوجدان ، فتطمئن إلى أوامره ، وتخشع لسماعه ، وتهتدى بهديه ، وليس غريباً أن يكون ذلك شأن الدين ، الذى يراد منه

إرشاد الناس جميعاً ، إذ من البين « أن الجمهور الأعظم من الناس — بل الكل إلا قليلا — لا يفهمون فلسفة أفلاطون ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى النفوس عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر ، لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى إصلاح العمل » لذلك لجأ الدين الى المشاعر ، فكان سلطانه على النوع الإنسانى أعلى من سلطان العقل ، الذى يتميز به عن سائر الكائنات .

على أن الدين الإسلامى لا يعادى الفلسفة فى شئ فقد خاطب العقل وحض على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وانتهج القرآن منهجاً لم تألفه الكتب قبله ولا بعده ، فاستنهض الأفكار ، وطالب أولى البصر من بنى الإنسان بالإمعان فى البحث والجرى وراء الحقيقة حتى ينكشف لهم بعض الأسرار التى أودعها الخالق فى خلقه « وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم

بوجود الله ، كما أجمعوا على أن الدين إذا جاء بشئ قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل فى نظر العقل ... وبذلك رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً منهم بحق الفهم لأنفسهم وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم »

نعم اعتمد الإسلام على العقل ورفع بذلك من شأن الإنسان وعلمه أن يهتدى بنور العلم ويسترشد بدلائل الكون ويعتبر بما فيه من أحداث وطالب الناس بأن يتدبروا فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون

ومنها أن العقول كانت لم تصل إلى مستوى تشعر فيه بضرورة الفلسفة ، وبأنها من وسائل الثقافة العامة ، ورقى المدارك وشحذ المواهب ، وتوسيع الأفق العقلى ، وأساس النهوض والتقدم .

يضاف إلى هذا ، أن كلمة الفلسفة من الكلمات التى أسىء استعمالها فى الوقت الحاضر ، فان نفراً من الناس لايستعملها إلا فى المناقشات الخالية ، التى لاتجدى نفعاً ، ويزعمون أن الفيلسوف هو الرجل المغرم بضروب من الخيال ، الذى أعمته الأوهام والأحلام عن إدراك الحقائق ، ألست تسمعهم يقولون : إذا أخطأ الإنسان طريق الصواب « أنه فيلسوف ؛ أو هذه فلسفة ، أو هو متفلسف » لايقصدون من ذلك إلا أن كلامه ضلال وباطل .

ويرى قوم آخرون أن الفلسفة ليست فى متناول عقول العامة ، وأن مباحثها نظرية ، لاتصل بصاحبها إلى غاية معينة ، وأن مسائلها منقطعة الصلة بالحياة ؛ وكل هذا وهم باطل أدى إليه قصر النظر وضيق الأفق العقلى .

والحق أن الفلسفة والحياة أمران متلازمان ، فإن الإنسان منذ وجد على ظهر الأرض ، تنبهت فيه الحواس فرأى بعينه النجوم المتألقة ، والقمر المضىء والشمس المشرقة تسبح فى تلك القبة السماوية التى لاحد لها ، ووصل إلى سمعه دوي الرعد ، وزئير

الأسد ، وخرير الماء ، وتغريد الأطيار ، وأدرك طعوم الأشياء ، حلوها ومرها ، وتعرف نافعها وضارها ، وهبت عليه آونة ريح صرصر عاتية ، أهلكت حرثه ونسله ، وتلبدت السحب فى السماء ، ثم انجابت عنها وأومض البرق ، وهطل المطر ، وفاضت الأنهار واخضر النبات ، فرعت الماشية ، ونعم الأهل والولد .

أثارت فيه هذه المشاهد وغيرها نوعا من الدهشة والاستغراب ، فأنعم النظر فيها ، وأراد أن يتعرف أسبابها ، وقاسها على نفسه ، فأثبت لها نوعا من الحياة ، وصور له الوهم ، أن لكل كائن فى عالم الحس ، نظيراً فى عالم الروح ، هو الذى يسخره كيف يشاء ، فتوجه بالعبادة إلى هذه الأرواح ، وقدم لها القرابين ، استرضاء لها ، واتقاء لشرها .

تطورت هذه العقيدة على ممر الزمن ، ونظر الإنسان من جديد ، وتغلغل فى أحداث الطبيعة ، وأدرك ما بينها من شبه ، وضم بعضها إلى بعض ، ورجع كل نوع منها إلى قوة معينة ، فكان للأرض إله ، وللسماء إله ، وللزرع إله ، وللبحر إله ، وهكذا ثم ظهر له اتصال العناصر الطبيعية تدريجا ، وأدرك أن هذا

التعدد فى الآلهة لاتدعو إليه ضرورة ، مادام العالم واحداً ، وما زال ينتقل من طور إلى طور أرقى منه ، حتى وصل إلى الإيمان بأن الله واحد ، عظيم السلطان ، عالم القدرة ، لايخرج عن ملكه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

على هذا النحو نضج العقل البشرى ، الذى شرف الله به الإنسان ، « وألحقه بسببه بعالم الملائكة ، لما فيه من التدبير ، وفنون العلم ، ومستقر المعرفة ، وبصائر الحكمة فهو الذى يدرك الحقائق ، ويتسع له ماضاق عن البصر ، فيؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه ، حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين ، فهو موضع الحكمة ، ومعدن العلم كلما ازداد علماً ازداد سعة وقوة ، وهو مع جهله بنفسه ، عالم حكيم ، يميز بين لطائف التدبير ، ويفرق بين دقائق الصنع » .

حقاً أن الحيوان يرى ويسمع ، وتتوارد عليه بعض الصور ولكنه لايستطيع أن يتدبرها ، ولا أن يتصرف فيها بحل أو تركيب ، وإنما هو ضيق الدائرة ، خاضع لحاجته المادية ، أسير اللحظة التى هو فيها ، أما الإنسان فإن نشاطه الفكرى حر طليق

لا يقيده زمان ولا مكان ؛ فهو يتناول بفكره الماضي والحاضر والمستقبل ، والبعيد والقريب من الأشياء على السواء ، ويرى مظاهر الكون المختلفة ، فيتعرفها مظهراً مظهراً ، ويلتمس أسبابها وعللها ويفرض الفروض ، ويقيم عليها الأدلة ، ويحاول إدراك علاقتها وربط بعضها ببعض ، والتأليف بينها ، وردّها الى أصل واحد ، ينتظم العالم بأسره ؛ وهذه الجهود الفكرية ، التي يوجهها الإنسان إلى إدراك أسرار الكون ، وحل رموزه ، هي الفلسفة ، يقول الأستاذ كننجهام في كتابه (مسائل الفلسفة) ما معناه « لكل انسان — ولو لم يكن له نصيب وافر من التعليم — نوع من الفلسفة ، فله رأيه في الحياة وطبيعتها وغايتها وفي الوجود ومآله ، وفي العقل والجسم ، وعلاقة كل واحد منهما بالآخر ، وفيما قد يصيب الإنسان في هـذا العالم ، من سعادة أو شقاء ، وفقر أو غنى ، وصحة أو ضعف ، وفي الحياة بعد الموت ، وفي الخير والشر ، والطيب والخبيث من الأفعال ، وفي الإله وصفاته ، وعلاقته بالطبيعة عامة ؛ من جماد ونبات وحيوان . ولا شك أن هـذه فلسفة غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتمحيص ، ولم يقم الدليل على صحتها » .

بقى علينا أن ننظر نظرة تاريخية فى استعمال كلمة « فلسفة » لعلنا نعرف ما قصد بها فى العصور الغابرة ، وما يراد منها فى الوقت الحاضر.

لم تكن كلمة « الفلسفة » من الكلمات الاصطلاحية المحدودة المعنى فى بدء الأمر ، ويقال أن « فيثاغورس » أول من استعمل هذه الكلمة فى حديثه ، وسواء أكان هذا القول صحيحاً أم باطلا فانّ مما لا شك فيه أنها كلمة يونانية وأنها مركبة من كلمتين « فيلو » « Phileu » ومعناها محبة . و « سوفيا » « Sophia » ومعناها الحكمة ويكون معنى فلسفة على هذا « محبة الحكمة » وهى إدراك الأشياء على ماهى عليه إدراكا يقينياً ، أو العلم الذى يراد منه الوصول إلى أكمل حياة ممكنة ، وإلى تحمل الشدائد التى تعترى الانسان فيها مع الصبر الجميل ، والحياة الفلسفية هى حياة العمل الذى رائده الفكر الصحيح ، لا حياة التقليد ، واتباع القديم ، وإيثار الهوى . وقد عرف « كانت » الحكمة فقال : « هى معرفة الخير الأسمى وموافقة الارادة له » ، وقديماً عرف افلاطون الفيلسوف ، وبين أوصافه ، وعقد موازنة بينه وبين السفسطائى

فقال ملمغناه : « أن السفسطائى رجل يسير فى المدائن ، يلقن الناشئين أصول العلوم والفنون ، وبخاصة فنون البلاغة ، نظير أجر يتقاضاه ، فغرضه مادى ، لأنه ينتقل من مكان إلى مكان ، لا رغبة فى التدبر فيما خلق الله ؛ ولا فى كسب العلم ، بل فى الثراء والاستكثار من ألوان الترف ، والحصول على الجاه والمنزلة بين الناس ؛ أما الفيلسوف فإنه يطلب العلم ، وينشد الحكمة أنى وجدها ، ويفكر فى ملكوت السموات والأرض ، ويعلم الناس غير مأجور منهم على عمله ، وقصده الذى لا يحيد عنه شغف بالعلم لذاته ، وبحث فى حقائق الأشياء ومعرفة أحوال الكون ، وادراك عللها وأسبابها بالفكر المحض » .

ويقول العلامة ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) فى مقدمته : « إن قوماً من عقلاء النوع الإنسانى ، زعموا أن الوجود كله ، الحسى منه وما وراء الحسى ، تدرك ذواته وأحواله ، بأسبابها وعللها ، بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية ، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر ، لا من جهة السمع ، فانها بعض من مدارك العقل ، وهؤلاء يسمون فلاسفة ، جمع فيلسوف وهو باللسان اليونانى محب الحكمة ، فبحثوا عن ذلك وشمروا ، وحوموا على إصابة الغرض منه »

مما تقدم يعلم أن كلمة الفلسفة كان يقصد منها عند اليونانيين، الرغبة الصادقة فى العلم ، والبحث وراء الحقائق ، ونفاذ البصيرة فى غياهب هذا العالم ، حتى ترى سر الأسرار ، وروح الوجود ، وعلى ذلك شملت الفلسفة جميع المبادىء العلمية وكافة الفنون التى كانت معروفة لديهم ، وبقيت الفلسفة على هذا المعنى فى أوربا فى العصور الوسطى ، فلم يقصد منها سوى المعلومات العامة والوقوف على حقائق الأشياء المختلفة ، ولكنها اصطبغت بالصبغة الدينية؛ ومالت نوعا إلى البحث فى حياة الإنسان فى هذا العالم ، وما يؤول إليه أمر هذا الحياة ، وجعلت خادماً للعقائد الدينية .

وقد حذا فلاسفة الإسلام حذو فلاسفة اليونان وأطلقوا كلمة الفلسفة على ما يشمل المعارف الإنسانية جميعاً ومن هؤلاء الفارابى وابن سينا

فأما الفارابى (٢٥٩—٣٣٩ هـ) فانه بعد أن تكلم على علوم اللسان والمنطق . وعده رئيس العلوم لأن قوانينه لا بد أن تراعى فيها كلها على السواء ، حتى تكون قواعدها صحيحة ، قسم الفلسفة قسمين : نظرية وعملية ، وتشمل الفلسفة النظرية فى رأيه الحساب والهندسة والموسيقى والفلك والعلوم الطبيعية وعلم ما وراء الطبيعة ، أما

العملية فتتناول الأخلاق والسياسة.

وذكر ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) فى رسالته فى أقسام العلوم الحكمية أن للحكمة قسمين قسماً نظرياً مجرداً وغايته الوصول إلى الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان فغاية هذا القسم الحق، وقسماً عملياً يقصد منه إدراك وجوه الخير ليتصرف الإنسان على مقتضاها، وأدخل فى القسم الأول: العلم الطبيعى، والعلم الرياضى، والعلم الالهى، وفى القسم الثانى: علم الأخلاق، وعلم تدبير المنزل، وعلم السياسة، وقال فى مقدمة كتاب النجاة:

« سألنى طائفة من الإخوان أن أجمع لهم كتاباً يشتمل على ما لابد من معرفته لمن يريد الإحاطة بالأصول الحكمية، وأن أبدأ فيه بالأصول من علم المنطق، ثم أتلوها بمثلها من علم الطبيعيات، ثم أورد الضرورى من علم الهندسة والحساب، وأن أختم الرياضيات بعلم الموسيقى، ثم أورد العلم الإلهى وأذكر فيه حال المعاد، وحال الأخلاق، والأفعال النافعة لدرك النجاة من الغرق فى بحر الضلالات، فصنفت الكتاب على نحو ملتمسهم مستعينا بالله ».

وقريب من هذا ما ذهب إليه ابن خلدون فى مقدمته، فانه

عقد فصلا فى العلوم العقلية وأصنافها ومنزلتها من الإنسان فقال:

« وأما العلوم العقلية التى هى طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر، فهى غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون فى مداركها ومباحثها، وهى موجودة فى النوع الإنسانى منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة، وهى مشتملة على أربعة علوم » فالأول من هذه العلوم الأربعة هو المنطق، والثانى علم الطبيعة، ويبحث فى المحسوسات من الأجسام العنصرية، والثالث العلم الالهى ومباحثه الأمور الروحية، والرابع العلم الرياضى، ويدخل فيه الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى.

ولا ريب فى أن علماء الفرنجة قد انتفعوا بما بذله فلاسفة الاسلام من تفكير فى تحديد موضوعات العلوم، فإن فرانسيس باكون (١٥٦١—١٦٢٦ م) الذى يعد زعيم الفلسفة الحديثة قسم الحقائق قسمين: أحدهما الحقائق التاريخية وموضوعها المسائل الجزئية التى تدرك بالحواس وعمادها الذاكرة، وثانيهما الحقائق العلمية وتبحث فى المعانى الذهنية والمدركات الكلية. وهذا القسم الثانى

يشمل فروعا ثلاثة باعتبار ما يبحث فيه من الطبيعية ، أو الإنسان أو الإله ، فما يتعلق بالطبيعة يسمى الفلسفة الطبيعية ، وما يتعلق بالإنسان ، يسمى العلوم الإنسانية ، ويدخل فيها علم النفس والمنطق والطب ، ومايبحث فى الروحانيات يسمى علم الإلهيات غير أن الإلهيات قسمان : قسم نعرفه بالوحى والكتب الدينية وهو السمعيات ، وقسم نصل إليه بالعقل المطلق وهو ما يسمى بالعقليات .

وجرى على نحو هـذا التقسيم من بعده كرستيان وُلف (١٦٩٧ — ١٧٥٤ م) فإنه رأى أن العلم ثلاثة أقسام: العلم التاريخى ، ويقص علينا ما قد كان من غير تعرض لسببه وعلته ، والعلم الرياضى ، ويبحث فى تقدير الأشياء تقديراً كمياً ويربط بعضها ببعض بالإضافة إلى وحدة معينة اصطلح الناس عليها ، والعلم الفلسفى ، وموضوعه البحث فى علل المظاهر المختلفة وأسباب الأحداث المتنوعة وإدراك مابينها من ارتباط.

وذهب العلامة رابو بورت فى كتابه مبادئ الفلسفة الذى نقله إلى العربية الأستاذ احمد أمين إلى أن الفلسفة تبحث عن كل مسئلة يمكن البحث فيها وإن شئت فقل عن العالم بأسره ، ثم قسم

مسائلها ثلاثة أقسام تبعا لموضوع البحث، لأنها إما أن تبحث عن الموجود الأول الذى تفرد بالوحدانية وخلق كل شئ وأفاض الحياة والنور على كل شيء وهذا القسم يسمى علم ما وراء المادة، واما أن تبحث فى المظاهر الكثيرة والأحداث المختلفة التي تتجلى فى عالم الطبيعة وهو ما يسمى بالفلسفة الطبيعية، واما أن تبحث فى الإنسان وتسمى الفلسفة الإنسانية وتشمل المنطق وغايته إدراك الحق وتقديره، وعلم الجمال، وعلم الأخلاق، وفلسفة القانون، وعلم الاجتماع.

ومن هنا يتبين أن الفلسفة تتناول البحث فى ثلاثة موضوعات واسعة هى: ما بعد الطبيعة والعالم الطبيعى والإنسان. ويعنى العلماء عناية شديدة بالمباحث الثلاثة الآتية:

المبحث الخاص بخالق الكون — نظرية العالم الدينية،

المبحث الخاص بكنه العالم وتكوينه والقوانين التى يسير عليها — نظرية التكوين،

المبحث الخاص بإمكان المعرفة وحقيقة المدرك ومعنى الإدراك — نظرية المعرفة. ومن هذه المباحث الثلاثة تنشأ جميع المذاهب الفلسفية

مما تقدم نعلم أن الفلسفة قد تميزت نوعا عن غيرها ، وليس معنى ذلك أنها انفصلت عن بقية العلوم ، وانعدمت صلتها بها ، فإن موضوع العلوم الطبيعية عالم الحس والمادة ، والغرض منها وصف الأشياء التي تدرك بالحواس وصفا مبنيا على الملاحظة والتجربة ولا بد لفهم الظواهر المختلفة التي تقع تحت الحس والتجربة من فرض النظريات ، وتكوين الدعاوى العامة ؛ رغبة في الاهتداء إلى حقيقة هذا العالم .

وإلا فما الذي يجعل لعلم الحياة ، مثلا ، منزلته بين العلوم الطبيعية في الوقت الحاضر ؟ وما الذي يبعث في العلماء تلك الرغبة الأكيدة في بحث صنوف الأحياء الدنيا ، كالجراثيم ونحوها ، بطرق مختلفة وآلات متنوعة ؟ أن الباعث في المباحث العلمية ، مهما كانت دائرتها ، مصدره الأمل في معرفة بعض أسرار هذا الكون ؛ فالفلسفة هي الشمس تنبعث منها الحرارة والنور والحياة إلى سائر العلوم .

وجملة القول أن العلماء اذ انتقلوا من البحث في المسائل الجزئية إلى النظر في الفروض العامة ، التي وصلوا اليها مستقلين ، وفي

إدراك عللها ، وعلاقة بعضها ببعض ، كانوا فلاسفة ، وأن الفلسفة علم وظيفته البحث فى النتائج الكلية ، التى وصل اليها النظر فى العلوم المختلفة ثم تمحيصها ونقدها وتصفيتها من شوائب الخطأ ، والتوفيق بينها ومحاولة الوصول الى قانون عام ينتظم هذا العالم ، ويفسر جميع مظاهره ، وتصدر عنه أحداثه .

وتاريخ الفلسفة يتتبع النظريات العامة ، التى اهتدى إليها الفلاسفة فى العصور الغابرة ، ورأوا أنها تساعد على فهم حقيقة الكون وحل رموزه ومعرفة أسراره ، ويقص علينا نشأتها ومبلغ شيوعها وأخذ الناس بها ، ثم عدولهم عنها وتمسكهم بغيرها ، ويرينا كيف يرتبط اللاحق من هذه النظريات بالسابق .

وتاريخ الفلسفة جدير بالدراسة إذ يرينا صورة واضحة من نشوء العقل ، ونضوج الفكر ، ويعرض علينا النظريات المختلفة التى أجهد الفلاسفة عقولهم فى الوصول إليها ، ويبين مبلغ تأثير هذه النظريات فى حياة الأفراد والجماعات ، ويكشف لنا الحجب عن كثير من أسرار الكون ومافيه من إبداع فى الصنعة ، وانسجام فى التأليف ، ويرشدنا إلى طريق السعادة ، ويشعرنا بالعجز

والخضوع ، ويبعث فى نفوسنا رغبة صادقة فى اتباع سنن أولئك العلماء ، الذين وقفوا حياتهم للعلم ، ونصبوا أنفسهم لنشر المبادئ وتعليم الناس ، مهما لقوا فى ذلك من محنة وأذى ، وهو الذى يهذب من نفوسنا ، ويوسع نطاق عقولنا ، وينمى فينا كثيراً من العواطف الطيبة ، ومنها محبة الخير للناس عامة ، ويقدرنا على إدراك الخدمات الجليلة ، التى يؤديها إلينا العلماء فى البلاد المختلفة ، وإن تباينت مذاهبهم وتعددت نحلهم .

ويحسن قبل الشروع فى الموضوع أن نلفت نظر القراء إلى أن تاريخ الفلسفة يحتوى على كثير من الآراء ، التى لا تتفق مع مستوى الحياة الفكرية فى الوقت الحاضر ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الآراء وإن كانت باطلة ، ترينا مراحل نمو العقل ، وأنها كانت شديدة الأثر فى حياة الأمم والشعوب ، وأنها الأساس الذى تقوم عليه النظريات فى العصور الحديثة ، يقول الدكتور على العنانى « ربما ساورنا شىء من القلق والاشمئزاز من الحقيقة التاريخية ، إذا رأينا فيها عدم الصحة من جهة كنهها ، كما سنراه فى

فى الوثنيات والأساطير ، والمذاهب الفلسفية المتقوضة ، وفى بعض الآراء التى كانت سببا فى النزاع الشديد والحروب القائمة بين العقيدة والنظر ، . . . ولكننا إذا رعينا جانب ما لهذه الأفكار والآراء من الأثر فى تاريخ التفكير الإنسانى ، وتكوين المذاهب والمعتقدات فسرعان ما يذهب عنا هذا القلق ، وسرعان ما تخلد نفوسنا إلى معرفة الحقائق التاريخية وإدراك ما لها من مكانه ، وما فيها من سر ، جعل لها الأثر الظاهر فى تكوين الحياة الإنسانية العامة ، وفى تطوراتها المتعددة ، وما يترتب على ذلك من أثر مدنى فى حياة الأمم والشعوب »

قال باكون « إن التاريخ للعلوم هو كالبصر للجسم يبصر به ما بين يديه وما مرّ به لكى يَعلم الجهة التى ينبغى له أن يقصدها »

أقسام الفلسفة

تنقسم الفلسفة من ناحية تاريخية قسمين عظيمين : أولهما الفلسفة القديمة ، وثانيهما الفلسفة الحديثة . فأما الفلسفة القديمة ، فتشمل البحث فى مظاهر الحياة الفكرية عند الأمم الشرقية

القديمة، كالمصريين والفرس والهنود واليهود وسواهم، وتتميز الفلسفة عند هذه الأمم باختلاطها بالعقائد الدينية، وغلبة التقليد عليها، وأخذ الخلف فيها بآراء السالفين، من غير تمييز بين الصحيح منها والفاسد، وتشمل كذلك الفلسفة اليونانية لا فرق فى ذلك بين المذاهب التى نشأت فى المستعمرات الأسيوية، والمذاهب التى نشأت فى شبه جزيرة اليونان وإيطاليا، وتتميز هذه المرحلة من مراحل التفكير بشىء من حرية الفكر واطراح القديم والتخلص من سلطان الدين، وتمتد الفلسفة اليونانية حتى تشمل التفكير الرومانى ومذاهبه التى تفرعت فى الحقيقة عن الفلسفة اليونانية.

أما الفلسفة الحديثة فإنها تبدأ مع النهضة الأوربية وتسير فى بحوثها المتشعبة وتتآخى مع العلوم الرياضية والطبيعية وتتخلص من كل القيود وتنشد الحق أنى وجدته وها نحن أولاء نجمل لك تاريخ كل قسم.

الفلسفة الشرقية

عرفت أفريقية وآسيا الفلسفة قبل أن تعرفها بلاد اليونان وكان لكثير من الشعوب الشرقية حياة فكرية ذات خصائص

معينة ، وأظهر ما تتجلى فيه الحياة الفكرية الناحية الدينية. ولا يتسع وقتنا لدراسة الفلسفة عند هذه الأمم بشيء من التفصيل، وسنكتفى بذكر ملخص عن الحياة العقلية كما تتجلى فى علومهم وفنونهم وديانتهم .

قدماء المصريين

ولدت الحضارة فى مصر، ونشأت المدنية فى وادى النيل ، ثم انتشر نورها فى كل مكان، ومنه اقتبس العالم أجمع . والآثار التى لا تزال ماثلة على ضفاف ذلك النهر المبارك ، دليل شاهد على ما كان لآبائنا من سمو فى المدارك ، ورقى فى الفكر ، ووفرة فى العلم ، ونبوغ فى الصناعة والفن ،

صنعة تدهش العقول ، وفن كان إتقانه على الناس فرضا

لهذا حق لكهنة المصريين ، أن يقولوا لفلاسفة اليونان « إنكم أيها اليونانيون أطفال ، تهرفون بما لا تعرفون ، ولا تعلمون من أمر الماضى شيئا » ومن أولى بهذا الفخر ، من قوم استمد منهم اليونان ، كثيراً من علومهم وآدابهم وفلسفتهم !

حياتهم الفكرية

تتجلى العقلية المصرية القديمة فى العقائد الدينية ، ولست أريد أن أتعرض لتعداد آلهة الأقدمين ، وبيان صفاتهم ، ولا لوصف الشعائر الدينية ، التى كانت تقام فى معابدهم ، ولا لتلك الهياكل المقدسة ، التى شيدت فى بلادهم ، وإنما أريد أن أتكلم فى الأصول الفلسفية التى قامت عليها الديانة المصرية.

ان الدين قد تغلغل فى قلوب المصريين ، وظهرت آثاره للعيان فى كل شئون الحياة ، وكان لرجاله من السيطرة ، والمنزلة الفكرية والسياسة مالم يحلم به أمثالهم فى بلاد العالم.

ولا غرو فقد كانت القوة السياسية فى أيديهم ، وإليهم يرجع الفضل فى تقدم الفنون والعلوم ، كالطب والكيمياء وعلم الفلك والهندسة وغيرها.

وإذا فكرنا فى عقائدهم الدينية ظهر لنا أن الديانة المصرية القديمة تقوم على ثلاثة أصول : —

أولها — اعتقاد أن هذا العالم المادى المتعدد المظاهر لم يوجد بنفسه ، وإنما أوجدته قدرة خفية ، لاتدرك بالعين ولكن ترى آثارها بادية فى كل شىء.

ثانيها — أن فى كل كائن روحاً ، سرى من هذا الروح العام ، المحجوب عن الأبصار ، فأمد جميع الكائنات بالحياة ، ومن هنا نشأت فكرة الحلول وتتلخص فى أن الاله خلق جميع الأشياء ، وأوجدها من العدم فوجودها منه ، وراجع اليه فهو فى كل شىء .

ثالثها — اعتقاد رجال الدين أن الفناء مستحيل على جميع الأشياء ، لا فرق فى ذلك بين الأجسام والأرواح ، فالأجسام على هذا باقية ، ولكنها تستحيل وتنتقل من صورة إلى صورة ، وكذلك الأرواح ، لا يلحقها عدم ، وانما الموت هو ضرب من البطون والخفاء ، واذا كانت النفس باقية فما عسى أن يكون ذلك البقاء الذى أعدلها ، وما هو النعيم الذى تنعم به إن كانت من أهل السعادة ؟

هذا سؤال نرجىء الإجابة عليه قليلا .

معبوداتهم

وقد روى التاريخ أن قدماء المصريين كانوا يعبدون آلهة متعددة ، ومن بينها أنواع من الحيوان ، كالبقرة والعجل والقرد

والقط والتمساح ، وصنوف من الكواكب كالشعرى اليمانية والشمس والجوزاء وغيرها . والمؤرخون على خلاف فى تفسير هذا التناقض الظاهر الذى ورد ذكره فى الكتب الدينية .

فمنهم من يرى أنهم لم يعبدوا هذه الأشياء لذاتها ، وانما جعلوها رمزاً لذلك الاله القادر ، لما حلت روحه وظهرت آثاره فيها ، يدلك على ذلك ما ورد فى الأناشيد والأدعية الدينية من نحو قولهم (هو الله الواحد الأحد الذى لا شريك له خلق جميع الكائنات ولم يخلق) (هو الله العظيم مالك السموات والأرض وخالق جميع الكائنات) وهل يعقل أن يكون للوثنيين مثل الدعاء الآتى « يامولاى وسيدى ! إنك خلقتنى وصورتنى ، وجعلت لى عيناً أبصر بها آثار قدرتك ، وأذناً أسمع بها تقديسك » وقد ورد فى ورق البردى ، المحفوظ فى تورينو ، على لسان الاله (لقد خلقت السموات والأرض وما بينهما) إلى غير ذلك مما ورد فى أدعيتهم وأناشيدهم وصلواتهم دالا على الوحدانية .

ويرى فريق آخر أن المصريين عبدوا إلهاً واحداً ، وانما اختلفت الأسماء تبعاً للصفات فهو « آمون » إذا لوحظ أنه القوة

الخفية ، التي ترسل سناها على الأكوان ، و « أميت » اذا نظر إلى علمه وأنه محيط بكل شيء ، و « أوزريس » اذا أردنا الرحمة العامة ، والخير الشامل ، ومن هنا يتضح أن معبود الجميع في الحقيقة واحد ، كثير الأسماء ، فكنت ترى أهل طيبة يعتبرون آمون الههم ، وهو نفسه أتوم معبود مدينة عين شمس . ، وفتاح معبود مدينة منفيس ، وتحوت معبود مدينة الأشمونين ، وهكذا وجميعها رموز ومظاهر للاله الحقيقي الواحد الجامع في ذاته كل الصفات الالهية ، ويرى غير هؤلاء من المؤرخين أنه كان بمصر دين للعامة ودين للخاصة ، لأن العامة كانوا يعبدون الحيوان ويقدسونه ، أما الخاصة من المتعلمين ورجال الدين فلم يدينوا إلا لاله واحد ، وما اتخذوا بقية الآلهة إلا لأنها تمثل بعض صفات ذلك الاله العظيم ، أو لأنها أجزاء من ذلك العالم الطبيعي الذي خلقه الله من العدم تجلى فيها روحه .

ويغلب على الظن أن المصريين أول أمرهم كانوا يعبدون الأوثان (وذلك أنه قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة كان لكل قبيلة إله ومعبد وكهنة ، إلى أن جاء عصر الملك مينا فوضع وحدة مصر

السياسية ، وأدخل تحت سلطته جميع القبائل المقيمة فى أقاليم مصر وجعلها متحدة فى السياسة والمصالح القومية ، وكانت نتيجة ذلك أن اتحدوا فى المذهب والعقيدة ، وتأسست ديانة واحدة لجميع القبائل والأقاليم ، إلا أنهم اختلفوا فى وضع الرموز الدالة على ذاته العلية ، وصفاته الأزلية ، كما تعددت أسماؤه بتعدد الأقاليم) ويستكثر العلامة « جوستاف لوبون » على الدهماء الوصول إلى الايمان الحقيقى بإله واحد ، ويقول ما ملخصه ، أن مصر القديمة لم تكن لتعرف وحدانية الإله فى عصر من عصورها ، وليس أدل على ذلك من الصور والنقوش ، التى تراها على المعابد والآثار وعلى هذا فمصر التى عرفت الوحدة السياسية لم تعرف بتاتاً إلهاً واحداً عاما ، تدين له ، وإذا افترضنا أن بعض عقول عالية انتهت فى عهد الأسرات الأخيرة إلى الإعتقاد بأن الآلهة الحافلة بها المعابد ، لم تكن سوى مظاهر لإله واحد ، فان هذا لا يؤثر فى المعتقدات العامة

كتاب الموتى

يطلق هذا الاسم على مجموعة من الفصول ، تختلف طولا وقصراً ، خطها قدماء المصريين فى العصور المختلفة ، على الحيطان والمقابر والتوابيت ، أو كتبوها فى ورق البردى ، ودفنوها مع الموتى فى رموسهم ،أما التسمية فستمدة من أن هـذه الفصول إنما كتبت للأموات لا للأحياء ، وقد جرى العمل بهذا الكتاب حتى جاءت المسيحية ، وانتشرت فى البلاد المصرية

كان المصريون يعتقدون فى الحياة بعد الموت ، ويؤمنون بأن أرواح الموتى لن تصل إلى ما أعد لها من النعيم ، إلا بعد أن تجتاز مكاناً واسعاً ، يسمى (توط) معموراً بالآلهة والشياطين والمردة والأرواح الخبيثة وأرواح الشريرين والحيات والثعابين والحيوانات الضارية وغيرهامن الأشياء المخوفة وكان من المعتقدات الشائعة بينهم أن الأرواح لن تستطيع اجتياز هذا البرزخ والوقوف بين يدى أحكم الحاكمين « أزوريس » إلا إذا كانت محصنة بالرقى والتمائم وأنواع التعاويذ ، وضروب السحر ، وأصناف الدعاء ،

ولذلك كان الغرض من كتاب الموتى أعداد الميت بكل ما يحتاج إليه لقطع هذه المرحلة الصعبة المخوفة ، حتى ينتهي به السير إلى أرض هذه الحياة الابدية مع رعايا أزوريس

وقد تغيرت عقائد المصريين ، فى بعض أمور الدين ولكن بقى كتاب الموتى على ما كان عليه قديما فلم يحاول أحد أن يتصرف فيه بزيادة أو نقص ، ومحو واثبات، وتمسكوا بنفس الشعائر والتقاليد الدينية ، التى كانت لآبائهم من قبلهم، وعلى هذا فكتاب الموتى يمثل معتقدات المصريين من أقدم عصورهم إلى زوال شوكتهم.

وقد كانوا يعتقدون أن هذا الكتاب إذا وضع مع الميت أو كتب على كفنه يعلى شأنه ويجعله عظيما مرهوب الجانب لدى الآلهة آمنا فى قبره تحيي به روحه وتصعد إلى عالم الآلهة وتعيش بينها وتفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، واليك ما جاء فيه ، مما تقوله الروح إذا وقفت بين يدى أزوريس والقضاة العادلين فى يوم الحساب ، يوم ينصب الميزان ، وتوزن أعمال الميت خيرها وشرها .

« أيها الاله العظيم ، تحية لك لقد حضرت إليك ، وتوجهت نفسى لمشاهدة جلالك ، ورؤية عظمتك ، أننى أعرفك ، وأعرف اسمك ، وأسماء القضاة الذين يقيمون معك فى ساحة الحق ، يرقبون العصاة ، ويشربون من دمائهم فى هذا اليوم العصيب ، ويحاسبونهم على ماقدمت أيديهم ، لقد أتيت اليك شاهداً بالحق ، بريئاً من الخطايا ، فاسمع ياإلهى . إننى لم أسىء إلى الإنسان ، ولم أظلم أحداً من أهلى ، ولم أوثر الشر على الخير ، ولم أصاحب دنيا ، ولم أجعل لنفسى منزلة ليست لها . . . إننى ما غششت إنساناً ولا قتلت نفساً ، ولا حرضت أحداً على ارتكاب القتل ، ولا سرقت القرابين وطعام الآلهة ، ولا انتهكت حرمة المعابد ، ولا ارتكبت الفحشاء ، ولا طففت الكيل أو أخسرت الميزان ، ولا اغتصبت شبرا من أرض ، ولا سلبت الرضيع لبنه ، ولا ذدت الماشية عن المرعى ، ولا قنصت الطيور فى حمى الآلهة ، ولا منعت الماء عن أحد ، ولا قطعت قناة ، ولا أطفأت ناراً ينبغى أن توقد ، ولا خالفت الكتب المنزلة . . .

إنى طاهر مبرأ من الذنوب »

وبعد دفاع طويل توزن أعمال الميت فاذا تبين أنه من الصالحين خرج فائزاً من قاعة العدل وفتحت له أبواب الجنة واحتفل به الآلهة وقدم له الطعام والشراب والثياب وأقام مع أزوريس وبقية الآلهة فى نعيم مقيم.

وإذا ظهر أنه من المذنبين نطق أزوريس بالحكم قائلا:

« إذهب عنى أيها الشرير إلى الجحيم لتلاقى أشد العذاب وأمر النكال وأنتم أيها القضاة اقتلوه بسيوفكم وتغذوا الآن من لحمه واشربوا من دمه ، وأنتن أيتها الأرواح الشريرة أضربنه بالحديد ، وأحرقنه بالنار ، وأنت ياعمعم (الوحش المفترس) قطعه إرباً إرباً ، وتغذ من أحشائه ، فليفن جسدك أيها الخاطىء ولتعدم نفسك، وليشطب اسمك من سفر الحياة، قد جعلتك غنيمة للأفاعى، وفريسة للوحوش الضارية ، وأنتم يازبانية جهنم اسحبوه على وجهه إلى الجحيم ، واقطعوا رأسه ، ومزقوا جسمه كل ممزق »

الجنة والنار

لم يرد عن قدماء المصريين وصف للجحيم ومايلاقيه الأشرار فيها من عذاب ، وغاية ما أثر عنهم أن الخاطئ يضرب إذا دخلها

بمقامع من حديد ، ويكوى جسده بالنار ، ويفترسه عمعم (رئيس الزبانية) وبعض العصاة يحكم عليه بأن تحل روحه فى أجسام الخنازير، ثم ترجع إلى الدنيا لتذوق أنواع الذل والبؤس والهوان أما النفوس التى ارتكبت هفوات فانها تعذب وقتاً ما لتطهر ثم تجد طريقها إلى الجنة بعد .

وعندهم أن الحياة فى الجنة تشبه الحياة فى الدنيا ، ولكنها خالدة وخالية من كل تعب ونصب وفيها كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقد اختلفوا فى مكانها : فمنهم من ذهب إلى أنها تحت الأرض ، أو خلف الجبل الغربى حيث تغرب الشمس ، أو فى جزيرة البحر الأبيض المتوسط ، وهذا ما كان سائدا عند الدولتين القديمة والوسطى .

أما الدولة الحديثة فذهب بعض أهلها إلى أن الجنة فى سفينة الشمس ، وهى مشتركة بين الملوك وغيرهم من الدهماء ، وذهب آخرون إلى أن الجنة للملوك فى سفينة الشمس ، والجنة المعدة لعموم البشر فى الأرض .

الفلسفة الفارسية

عَبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة وخصوصاً ذلك المعبود العظيم الشمس الذى تجلى عليهم، حتى رأوه بأعينهم فى السماء وأثبتوا له كثيراً من أوصاف الألوهية فقالوا أنه عالم بكل شىء، وأنه خير محض وأنه أعظم الموجودات وأنه نورانى يشرق على العالم بنوره، وكان له كثير من الأعوان والشركاء، وأهم هذه «الصديق» أو ذلك الضوء اللامع، ينبعث إلينا من القبة الزرقاء وستة من الملائكة المقربين، الذين يحملون العرش وآلاف من الموجودات الروحية التى تتمثل فى مظاهر الطبيعة، إلى غير ذلك مما سنفصله بعد،

زرادشت

نبى الايرانيين ظهر فى عصر الملك كيروش قبل المسيح بنحو ٦٠٠ سنة، ويقال إن أباه كان من أذربيجان، وأمه من الرى، وفى الأدب الفارسى قصص كثيرة تدل على مبلغ ما كان لهذا النبى

من الإجلال والاحترام عند الفرس ؛ من ذلك مارواه صاحب الملل والنحل من أن الله عز وجل خلق فى الازل خلقاً روحانياً فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذته مشيئته فى صورة من نور متلألىء على تركيب صورة الإنسان وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين ، وهذه الصورة النورانية هى زرادشت ويقال انه لما ولد ضحك ضحكة عرفتها جميع الكائنات فضحكت لمولده ، وهرب من وجهه جند الشر لا يلوى على شىء ، ويقال إنه أسرى به يافعا ، حتى شاهد ربه وتلقى عنه الوحى وأصول الشريعة ، وأمر بالتبليغ فرجع لينشر دين ربه ، ولكن الناس اختلفوا فى أمره فنهم من صدق ومنهم من كذب .

وقد لقى فى سبيل نشر الدعوة آلاما كثيرة واشتد أذى أعدائه له ، وكان فى أشد محنه واثقاً بربه يطلب منه المعونة ويستهديه إذ يقول :

« يارب ضاقت الدنيا فى وجهى فإلى أين أذهب ؟ ولمن أضرع ؟ قد هجرنى الأهل والأتباع ، وعنى لى الجيران والظالمون السوء ، وكيف أنشر دينك ، وأنا الفقير العاجز ، الذى لاحول له ولا قوة ! إلهى أسألك المعونة فهيىء لى من أمرى رشدا »

تعاليمه

الإثنينية

في العالم حوادث كثيرة متنوعة فمنها الخير ومنها الشر وهذه الحوادث لاتوجد نفسها بل لابد لها من أصل تستند عليه ومن البديهي استحالة نسبة الخير والشر إلى أصل واحد ، ولهذا كان من الضروري – لتفسير ما يجري في العالم — الإيمان بوجود قوتين متضادتين ، مختلفتين جوهراً وفعلاً ، فواحدة طاهرة خيرة مقدسة ، تفيض عنها الحياة والعناصر الطيبة ، وكل مافي الوجود من نور ، والأخرى خبيثة دنسة ، تصدر عنها الآفات والأمراض ، والهلاك والتدمير ، وكل ما ينزل بإنسان من شر وبلاء ، فالأولى تسمى « مزدا » أو « أهورا مزدا » أو « هرمز » ومعناه إله الخير والحكمة ، العالم بكل شيء والثانية تسمى «أهريمان» ومعناه إله الشر أو الشيطان .

وقد ورد في الكتب المقدسة أن هرمز قال لأهريمان ما معناه ، (ليس علمنا ولا شرائعنا ولا مدركاتنا ولا كلماتنا

ولا أفعالنا ولا حياتنا ولا حقيقتنا متفقة فى شىء)

وبين هذين الإلٰهين — « هرمز وأهريمان » — عداء دائم وحرب مستمرة ، فهما يتنازعان الإنسان ، ويحاول كل واحد أن يكون له الغلب دون صاحبه ، ولكن فى النهاية يكون النصر لهرمز ، إله الخير والنور ، والقوة والحياة ويمحى جميع مافى العالم من شرور وفتن ، جاء فى كتاب الملل والنحل ما نصه « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ، ونعيم خالص ، فلما حدث أهريمان ، حدثت الشرور والآفات والفتن » .

وللفرق المختلفة آراء متباينة فى وجود أهريمان ، وسببه وأصله ، وقدمه وحدوثه . وكان الفرس يعتقدون أن لكل واحدة من هاتين القوتين جنوداً وأنصاراً ، يأتمرون بأمرها ، وينفذون إرادتها فى الوجود ، وإليك ما يقول العلامة ماسبيرو فى كتابه تاريخ المشرق « وكان هرمز قد خلق كل شىء بكلمته ، واتخذ لنفسه ستة أرواح أو آلهة من طبقات عليا ، يعينونه على حفظ نظام العالم ، وتدبير شئونه (وهم المعروفون باميشاسبنتاس) وهؤلاء

الآلهة اتخذوا لهم جنوداً من الأرواح يحكمون عليهم وهم منتشرون في الكون، للمحافظة على بقاء أعضائه، ودوران دولابه، فجعل أهريمان آلهة ظلمات وشرور، وعارض الآلهة الستة بستة أرواح شريرة تعادلها في القوة والشوكة، وهؤلاء جعلوا لهم أعواناً من الأبالسة، وهم لا ينفكون عن محاصرة الكون، ومنع انتظام حركاته، ولا يزال القتال مستمراً بين هذه الأرواح، المتكافئة في العزيمة والبطش إلى انقضاء الزمن ولا ينتهي كفاحها إلا بانقراض العالم، إذ يتم النصر لهرمز»

مما تقدم يتبين، أن العالم وجميع ما فيه، قد انقسم قسمين، أولهما جنود هرمز، ويشمل جميع المخلوقات والعناصر، والأرواح التي سخرها لخدمته، وثانيهما أعوان أهريمان؛ ويشمل جميع المخلوقات والآفات، والأمراض والأرواح الخبيثة، التي خلقها لتعبث بنظام العالم، والحرب قائمة بين الجيشين على قدم وساق، ولكن مم خلقت هذه الأشياء؟ هل خلقت من العدم؟ وكيف نشأت المادة؟ لانجد لهذه الأسئلة جوابا في كتب زندافستا.

خلق الإنسان وفيه الإرادة وحرية الاختيار، فقد يكون

من أعوان الخير ، وقد يكون من عوامل الشر ، ولهذا نجده بغية الإلهين ، وغنيمة الجيشين ، فهما يتنازعانه دائماً والواجب على كل إنسان أن يكون عونا للخير على الشر وأن ينضم إلى جيش النور ، وأن يعمل على نشر العدل وتوطيد دعائمه بين الناس ، وأن يأخذ نفسه بطهارة الظاهر والباطن ، وأساسها الفكر الصحيح ، والكلم الطيب ، والعمل الصالح ، أو بعبارة أخرى الاعتقاد والقول والعمل ، وهى موارد التكليف ، فإذا قصر الإنسان فيها ، خرج عن الدين والطاعة ، وكان من أعوان الشيطان ، وإذا جرى فيها على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر .

ولما كانت العناصر الثلاثة — الماء والتراب والنار — مقدسة عند الفرس ، كان من الواجب على كل شخص خير أن يساعد على طهارتها وأن يباعد بينها وبين الرجس لهذا كانت جثث الموتى لا تقبر فى باطن الأرض ، ولا تحرق بالنار ، ولا تلقى فى الأنهار ، بل كانت تترك على قمم الجبال تنقض عليها طيور السماء ، وتتخطفها مخالب السباع ، ويتصل باعتقادهم بقداسة الأرض الانتفاع بها وزرعها ، فقد كانت زراعتها من الواجبات التى تحتمها الشريعة

فقد ورد أن الذى يشق الأرض بحراثه ، ويضع فيها البذور ، ويتولاها بالسق وغيره ، خير ممن يقدم ألفاً من القرابين ، أو عشرة آلاف من الصلوات والأدعية .

أما جميع الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات فقد كان من بينها الطيب والخبيث ، ويعرف كل نوع بعمله وأثره فى حياة الانسان: فالخبيث ماخبثت أعماله ، والطيب ماحسنت أعماله.

وليست أجسام هذه المخلوقات جميعها إذا ماتت رجساً يجب اجتنابه ، لأن التى من خلق هرمز طاهرة مادامت حية ، فإذا فارقتها الحياة كانت رجساً ، تصان عنه العناصر . والتى من خلق أهريمان خبيثة فى حياتها ، فإذا ماتت طهرت ، وجاز اتصالها بالعناصر ، ولذلك أباحوا دفنها ، وقالوا إن قتلها عمل مقدس ، وفى محاربتها انتصار للخير ، وأمن للإنسان : وهذا النوع الأخير كالثعابين والعقارب ، وكل ضار مخوف .

وكان الفرس يدينون بالبعث والنشور ، ويؤمنون بالحياة الآخرة ويعتقدون أن روح الميت الصالح ، إذا فارقت الجسد ، استقبلها الدين فى صورة فتاة حسناء ، تحف بها الأزهار ، وتعبق

حولها الروائح الطيبة، تتقدم هذه الفتاة فتخبره من هى ، وما قدم من عمل صالح ، وتقول له « كنت محبوبة ، فزدت الناس محبة فىّ ، وكنت جميلة فزدتنى جمالا ، ورفعت من شأنى بفكرك الصالح ، وكلمك الطيب ، وعملك المبرور . »

وعندهم أن الصراط يمتد فوق جهنم ، فالرجل الصالح تصحبه أعماله حتى يعبر الصراط إلى الجنة ، فيستقبله ملك جالس على كرسى من ذهب عند باب الجنة فيفتح بابها ، ويقول له : « ادخل سالماً آمناً ، وتمتع بحياة هنية »

وأما الأشرار فيقعون فى نار جهنم ، ليذوقوا العذاب الأليم وعلى هذا يستمر الحال ، حتى تبدل الأرض غير الأرض ، ويفنى أهريمان وجنوده ، وجميع ما فى الوجود من الأحياء.

وقد قالوا أن كوكباً نارياً يصطدم مع الأرض ، فتميد بالناس وتخر الجبال هداً ، وتذوب العناصر ، وينصهر النحاس ويسيل إلى جهنم ، ويفنى أهريمان وأنصاره من الشياطين ، ويغتسل الناس ثلاثة أيام فى منصهر النحاس ، ويجده الصالحون برداً وسلاما ثم بعد ذلك يجمع هرمز الخلائق ويعدهم بحياة جديدة ويجازيهم بأعمالهم .

ظهر مما قدمناه أن هذا النوع من الفلسفة يجعل الحياة ميدان جد وعمل ويحتم على كل واحد، أن يقوم بنصيبه من أعبائها وأن يحارب أعوان الشر ويستنبت الأرض القاحلة، ويحمى مخلوقات هرمز، وشتان بين الفلسفة الفارسية وأختها الهندية فإن الثانية فلسفة سكون وعزلة وتأمل، فلسفة أحلام وأوهام، فلسفة فناء وزهد، وسنوضح ذلك بعد.

سادت الديانة الزرادشتيه فى بلاد فارس وما جاورها حتى انتصر الإسكندر المقدونى على الفرس سنة ٣٣١ ق. م. فانحط شأنها ثم نهضت فى عهد الأسرة الساسانية التى ابتدأ حكمها فى البلاد سنة ٢٢٦ م وبقيت دين الفرس حتى كان الفتح الاسلامى ففر بعض أتباعها إلى بلاد الهند ولا زال منهم طائفة فى بمباى تعرف بالفرسيين وتتمسك بهذا الدين إلى يومنا هذا وبقيت فئة فى فارس تقيم شعائر دينها، وتوقد النار فى المعابد فى كل ولاية فارسية تقريباً حتى بعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون من الهجرة.

مانى والمانوية

من أشهر المذاهب التى كثر أشياعها فى بلاد فارس المانوية نسبة إلى مانى مؤسس هذا المذهب وزعيمه وهو رجل فارسى وُلد سنة ٢١٥ م وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة الفارسية القديمة والمبادئ المسيحية حتى وصفها بعض المؤرخين بأنها زرادشتيه متنصرة ، وقد كان لهذا المذهب أتباع كثيرون فى آسيا وأوربا يمسكوا بمبادئه على الرغم مما لقوا فى سبيله من مذلة واضطهاد إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

وكان مانى يرى أن العالم نشأ عن أصلين : النور والظلمة ، فنشأ عن النور كل خير ، وعن الظلمة كل شر فى العالم ، وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما فهو فى هذا يشبه زرادشت ولكنه يخالفه فى أمر جوهرى ذلك أن زرادشت كثير الأمل فى المستقبل فهو يرتقب أن يتغلب الخير على الشر ، وإن طال الأمد ، أما مانى فيائس يرى أن هذا الامتزاج لامخلص منه إلا بالموت ؛ ومن هنا كان زردشت يدعو الناس جميعا إلى سبل الحياة الطيبة ويستحثهم على عمل الخير كالحرث والزرع وإصلاح الأرض وتربية الماشية

ويرغبهم فى الزواج والتناسل حتى تستمر الحياة ويدوم الكفاح وينتصر هرمز على أهرمان ؛ أما مانى فزاهد فى هذا الوجود يود الفرار منه ويتعجل الفناء لنفسه وللناس ؛ ولهذا رأى تحريم الزواج حتى ينقرض النوع ، وشرع الصيام سبعة أيام من كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من الإيلام .

وقد شاع مذهبه بين العرب ، واشتغل علماء علم الكلام بالرد على آرائه وبيان ما اشتملت عليه من زيغ وبخاصة فى موضوع المعاد وهل يكون بالأجسام أو بالأرواح .

مزدك والمزدكيه

ظهر فى القرن الخامس الميلادى رجل من أهل نيسابور يسمى مزدك دعا الناس إلى مذهب ثنائى جديد فكان يقول بالنور والظلمة ولكنه امتاز بدعوته إلى الاشتراكية ؛ لأنه رأى أن الناس وُلدوا سواء وأنه ليس هناك مبرر للتفرقة بين شخص وشخص وأولى ما تجب فيه المساواة المال والنساء ، وكان ينهى الناس عن البغض والحسد والقتال ؛ ولذلك أحل النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة شائعة بين الناس جميعا كما يشتركون فى الماء والنار والكلأ

والهواء، وقد اغتنم طغام الأحلام دعوة ذلك الرجل فاتبعوه وناصروه إرضاء لشهواتهم وقضاء لأوطارهم وكانوا على الناس بلاء شديداً يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على أمره وينتهكون حرماته ويغلبونه على ماله ولم يلبثوا إلا قليلا حتى صار الرجل منهم لا يعرف ولده ولا الولد أباه .

ويرى من هذا أن تعاليمه اشتراكية من أسبق الاشتراكيات فى العالم ولا يميزها من الاشتراكية الحديثة إلا مالها من صبغة دينية وقد أخذ بها آلاف من الناس وظل قوم يتبعونه إلى ما بعد الإسلام .

هذه مذاهب الفرس الدينية وهى تجلى لنا اتجاههم العقلى ومستواهم الفكري، وقد ماتت هذه المذاهب تدريجا ودخل كثير من الفرس فى الإسلام ولكنهم كانوا يحنون إلى عقائدهم الأولى حتى روى أهل الأدب أن عبد الله ابن المقفع مر ببيت نار للمجوس بعد إسلامه فأنشد

يا بيت عاتكة التى أتعزل حذر العدى وبك الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وأننى قسما إليك مع الصدود لأميل

وكان الفرس يعظمون ملوكهم ويقدسونهم ويزعمون أن الله اصطفاهم من بين عباده وخصهم بالسلطان وأيدهم بروح منه فهم ظل الله فى أرضه أقامهم أمناء على مصالح عباده وجعل لهم على الناس السمع والطاعة وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد أشده أيام الأسرة الساسانية وكان له أثر عظيم عند الشيعة فكان نظرهم إلى على وأبنائه نظر آبائهم الأولين إلى ملوكهم وأكاسرتهم»

الفلسفة الهندية

الهند بلاد عريقة فى القدم جمعت بين الجبال الشامخة والسهول الواسعة والأنهار العظيمة والأودية الخصيبة تهب عليها الأنواء وتثور الزوابع فى بعض فصول السنة وتهطل الأمطار وتتساقط من السماء كأفواه القرب تنمو فى ثراها أنواع من النبات ذات ألوان مختلفة وأشكال متعددة يشتبك بعضها فى بعض فتتكون غابات كثيفة هى عرين الأسود وموطن الحيوانات الضارية .

ولا شك أن بلاداً كهذه تترك فى نفس سكانها آثاراً لا يمحوها الزمن ولذلك تجد عند الهنود ميلا متأصلا إلى محبة الطبيعة وشغفاً

زائداً باستجلاء مظاهرها واحتراماً لأحداثها يملأ القلب ويشغل الجوانح حتى يصل إلى درجة العبادة

إن أول ما يثير الشعور الديني عند الإنسان نظره فى عالم الحس وإدراك عناصره ورؤية ما يعتورها من استحالة أو زوال فيتوجه فكره إلى معرفة السبب الأول الذى بيده تصريف هذه الأمور وتدبير الأحداث ويتلمسه فى كل شيء عظيم يبعث فى قلبه الرهبة والإحترام . فيرى الشمس إذا أشرقت وأرسلت ضوءها على الأكوان ويتأملها فاذا هى تسير فى قبة زرقاء لا يعوقها حادث ولا يقف فى طريقها مانع . ثم يهتدى إلى النجوم المتلألئة فى السماء تسبح إلى غاية لا يدرك طرفه مداها فيطمئن إليها ويعتقد أنها لا تزول ولا تستحيل وأنها تدبر كل ما يجرى فى عالمه .

ولا يزال الإنسان يتوجه بالعبادة إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة حتى يعلم فى النهاية أن هـذا كله ضلال ويهتدى إلى أن المعبود بحق روح عام لا يدرك بالحس ولا يحويه زمان ولا مكان وإلى أن عالم الحس بما اشتمل عليه آية قدرته ومظهر سلطانه . وعلى هذا النحو ينشأ الدين وتتكون الفلسفة .

ويجمل بنا قبل أن نتكلم فى الفلسفة الهندية أن نقسمها قسمين أولهما الفلسفة البرهمية وثانيهما الفلسفة البوذية .

الفلسفة البرهمية

قد ورد فى الفصول القديمة من كتاب الڤيدا ذكر لإله اسمه (بَرهَمنا سبَاتى) ومعنى هذه الكلمة رب الصلاة . وكانت وظيفته إنشاء الأغانى والدعوات عند تقديم القرابين . ثم بعد ذلك نقلت هذه الكلمة من معناها الأصلى واستعملت فى الصلوات التى هى الوظيفة ، والصلوات أدعية يراد منها استرضاء الآلهة وتحقيق رغبة الإنسان . ولما كان السحر من الأمور الفعالة التى توصل الشخص إلى مقصده وتحقيق رغبته نقلت الكلمة من الصلاة إلى السحر ثم إلى الرغبة ثم إلى من يحقق الرغبات ويستجيب الدعاء ويتصرف فى كل الشئون وذلك هو الإله وعلى هذا فبرهمنا سباتى أو برهما عند الهنود اسم للإله الموجود بذاته الذى يستمد منه كل شىء وجوده وهو الأصل الأزلى لكل كائن لا تدركه الحواس ويدركه العقل

الآن وقد بينا لك علة التسمية يجب علينا أن نتبين المبادىء التى اشتمل عليها هذا الصنف من الفلسفة معتمدين فى كل مانذكر على كتب الڤيدا قديمها وحديثها وهي الكتب المقدسة عند الهنود

كان الهنود قديما يعتقدون بأن هناك روحاً عاماً منبثاً فى جميع الكائنات وأن الموجودات كلها قد صدرت عنه وهو يحفظها بقدرته ويمسك السموات والأرض أن تزولا . ولولا القدرة الإلهية لذهبت هذه الموجودات ولم يبق منها أثر ؛ ومن هنا يعلم أن أساس الديانة عند البراهمة أن يكون الله واحداً لا شريك له . صدرت عنه جميع الأشياء وسرى منه روح فى الجماد والنبات والحيوان على السواء لا فرق بينها إلا فى الدرجة وقد ورد فى الڤيدا ما معناه « إننى أنا الله نور الشمس وضوء القمر وبريق اللهب ووميض البرق وصوت الرياح والعرف الطيب ينبعث فى الأرجاء والأصل الأزلى لجميع الكائنات وحياة كل موجود إننى صلاح الصالح أنا الأول والآخر أنا الحياة والموت لكل كائن » « فالله واحد لأنه الجميع » « وهو الله الذى لا إله غيره رب الأرباب مالك العالمين وخالق السموات والأرضين » « إن الله واحد

وما هى إلا أسماء يسميه بها الشعراء »

إن جميع الكائنات التى صدرت عن الموجود الأول مستحيلة متغيرة وحركة التغيير مستمرة دائمة . ولجميع الأشياء دورة محدودة إذا انتهت عند آخرها بدأت سيرها من جديد ، والإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض له ما يعرض لها وروحه قطرة من نور الله انفصلت عنه إلى أجل محدود ثم تعود إليه متى جاء الأجل كالقطرة من الماء تصعد من البحر وترتقى في السماء وتنتقل من جهة إلى جهة ثم تسقط على قمم الجبال وتجرى فى الأنهار ثم ترجع إلى أصلها الذى عنه نشأت ؛ فغاية كل إنسان فى الحياة الاتصال بالله والرجوع إليه ، والفناء فيه : والطريق إلى ذلك العبادة الدائمة واهمال مطالب الجسم والتكفير عما يقترف من الآثام بالندم والصوم والإعراض عن هذه الدنيا الفانية .

من هنا نعلم أن الهنود كانوا يدينون بتوحيد الله فى السنين الغابرة ولكن تغيرت هذه العقيدة على ممر الأيام وحل محلها عقيدة التثليث ؛ لأنهم زعموا أن برهما كان قبل الوجود فى فضاء لانهاية له فصاح بشوق ورغبة « لو كنت كثيرا » فبقوة إرادته

وشوقه خلق العالم وسمّى نفسه الخالق ، ثم وجد الإله المدمر الذى به تجف الأوراق وتحل الشيخوخة محل الشباب ، ولو ترك هذا الإله وشأنه لأتى على كل شىء ؛ ولهذا وجدت قوة أخرى حافظة لكيان هذا العالم فكان فى الوجود قوى ثلاثة ، قوة خلاقة ، وقوة مدمرة ، وقوة حافظة مجددة . قال الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف « حدثت فى الهنود عقيدة التثليث فتغلبت على توحيدهم السابق ورأيناهم يعبدون إلها واحدا ذا ثلاث أصول برهما وفيشنو وسيفا ، وقد خلف فيشنو أباه برهما فى نظر الهنود فصاروا لا يوجهون عبادتهم إلا اليه ؛ أما برهما فتركوه فى راحة زاعمين أنه أدى وظيفته — الخلق — وانتهى »

الفلسفة البوذية

من الضرورى أن نذكر لك نبذة عن مؤسس الفلسفة البوذية من قبل أن نعرض لعقائده ومبادئه .

ولد جوتاما مؤسس هذه الديانة فى منتصف القرن السادس قبل المسيح من بيت من بيوت الملك فى الهند ونشأ كما ينشأ أولاد الملوك ثم تزوج ورزق غلاماً .

ولما قطع تسعة وعشرين ربيعاً ترك أهله وتنسك ولزم العبادة وزهد فى حطام الدنيا وبقى على ذلك سبع سنين ، وبينما هو جالس ذات ليلة تحت شجرة من أشجار الغابة التى لجأ إليها ، فاض عليه العلم ، وانكشف له كثير من أسرار العالم ، ومن ذلك الوقت لقب بوذا يعنى العالم أو المستنير وقد يلقب سَكْيَامُونى ومعناها المتبتل من أسرة سَكْيَا .

وبعد أن وقف على سر الحياة ، ورأى أن كل ما فيها آيل للزوال ، أخذ يعلم الناس وينشر مبادئه فيهم واستمر على ذلك حتى اتبعه خلق كثير .

وقد بورك له فى عمره فلم يمت إلا بعد أن بلغ الثمانين . ويقال « أن جوتاما ولد فى ظل شجرة وتغلب على الشهوات الدنيوية والخوف من الموت تحت شجرة . وألقى موعظته الأولى تحت شجرة . ولقى منيته تحت شجرة » ولما مات أحرق جسمه بعد موته بثمانية أيام .

إن الفلسفة البوذية لا تعترف بوجود آله قادر قائم بنفسه

وإنما تقول بوجود قوة عظيمة ، ولا تنسب إليها خلق الكائنات، لأن المادة على هذا المذهب قديمة وفيها صفة طبيعية، وخاصة كامنة ، هي تنظيم نفسها بنفسها حتى لو دبّ إليها الفساد ، ولحقها الانحلال؛ فليس هناك من سبب خارج عن المادة ؛ لأن لها إدراكا وعقلا . فأصحاب هذا المذهب ملحدون ينكرون ذات الآله ولا ينسبون له شيئا من الكمال وهم يعتبرون بني الإنسان متساوين؛ ولذلك كان رجال هذا الدين من كل الطبقات . وقد كانوا يعيشون في الأديار ويلبسون صفر الثياب ، ويحلقون شعر رءوسهم وذقونهم، ويمشون عراة الأقدام ، وينشدون المدائح في معابدهم ، ويوقدن الشمع ، ويحرقون البخور ، ويقيمون النصب والهياكل للصالحين منهم إذا ماتوا؛ يأكلون معاو يقبلون الصدقات ويكرهون الزواج ولا يميلون إلى شيء من ملاذ الدنيا الفانية . وقد ورد في كتبهم ما معناه .

« أيها الناس مم تضحكون ؟ وعلام تسرون ؟ إن الدنيا نار ملتهبة لماذا لا تخرجون من الظلمات إلى النور ؟ إن جسومكم ضعاف مراض يلحقها الفساد ويدركها العدم والفناء . أليست نهاية الحياة الموت ؟ لا تحبوا شيأ في هذا العالم ؛ فان فقد الحبيب شر . إن

الذين لا يحبون ولا يكرهون قد خلصت نفوسهم من عالم الحس وعاقبة المحبة الحزن أو الخوف »

بان مما تقدم أن الفلسفة البوذية ترى أن عالم الحس ضلال وباطل ، وأحلام وأوهام تصورها لنا الحواس فلا يصح أن نغتر به ونخدع بتلك الخيالات الزائلة . والسعادة فى أن تخلص النفس من شرور هذا العالم وتفنى فى التأملات والعبادة وعندهم أن روح الإنسان تنتقل منه إلى كائن آخر سواء أكان إنسانا أم حيوانا تبعا لما قدمت من خير وشر ولا تزال على هذا الحال متنقلة من جيل إلى جيل حتى تؤدى ما عليها ، وتصل إلى الانعدام الحسى أو مايسمونه نرفانا ومعناها الفناء المطلق فى القوة الروحية العظيمة . ومن هنا كانوا يعاملون كل كائن حي بالشفقة والرحمة نظراً لعقيدتهم فى تناسخ الأرواح فلا يقتلون حيوانا ولا يذبحون طيراً!

ومن تعاليمهم أنهم كانوا ينهون عن الزنا وأكل أموال الناس بالباطل والكذب وشرب المسكرات . ومما روى عنهم « لا تغلظ لأحد فى القول فقد يقابل الإساءة بمثلها » ، « إن الكراهة لا تمحوها الكراهة ، وإنما يذهبها البشاشة والمحبة

فقابلوا الكراهة بالمحبة، والشر بالخير، والشح بالكرم ، والكذب بالصدق »

الكتب الهندية المقدسة

من أشهر هذه الكتب كتاب الڤيدا وكتاب النظم الفلسفية وقوانين مانى وغيرها : أما الڤيدا فيشتمل على الصلاة والأدعية وأصول العبادات وهو خاص بالديانة البرهمية ويقول بعض المؤرخين أن هذا الكتاب وما اشتمل عليه يرجع إلى ما قبل الميلاد بنحو ١٢٠٠ سنة .

أما النظم الفلسفية ففيها ذكر لكثير من العقائد الدينية . وأما قوانين مانى فبعد الڤيدا بنحو سبعة قرون وهى مجموعة من عادات منزلية وتقاليد اجتماعية ونظم حكومية ومرافعات قانونية وفصول فى العقوبات وهى من الكتب العظيمة عند الهنود وتعترف بألوهية برهما وحده .

هذا والديانة البرهمية أقدم بكثير من البوذية التى جاءت لاصلاحها ، وقد انتعشت البوذية فى منتصف القرن الثالث قبل

الميلاد ثم تغلبت عليها البرهمية بعد ذلك وطردتها فى نحو القرن الخامس إلى سرنديب وبعض جهات الهند الشرقية وبرما والتبت والصين واليابان .

الصينيون وفلسفتهم

تدل الآثار القديمة على أن الصينيين كانوا قديما يعتقدون بوجود إله واحد لاتدركه الأبصار عرشه السماء ومقاليد الأرض بيده ، ولم ينسبوا لهذا الإله خلق النوع البشرى ، وقالوا إنه كائن عظيم يحب الخير ويكره الشر ويجازى الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرا فشر لا يكلفهم عبادته بل يكتفى منهم بأن يقوم الرجل بواجبه نحو جاره اللهم إذا أراد أن يحصل لنفسه خيراً فيتوسل إليه حينئذ بالعبادة وأنواع القرابين .

ولسنا نجد فيما خلف الصينيون مايدل على اعتقادهم بوجود قوة خبيثة فى هذا العالم تعيث فى الأرض فساداً ، وتغرى الناس بالخطايا والذنوب ، ولا مايدل على إيمانهم بأن العمل الصالح يسلك بصاحبه سبيل الأبرار ويوصله إلى الاتحاد مع الله .

مرت الأيام وكرت السنين وتغيرت الأفكار ، وأضافوا إلى هذا الإله الواحد كثيراً من مظاهر العالم كالشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم اللامعة والأرض وما اشتملت عليه من تلال وأنهار وجعلوا لكثير من أحداث الطبيعة كالريح والمطر والرعد والبرق أوصاف الآلهة، وما زالوا يتوسعون حتى اعتقدوا أن الكائنات الروحية تسكن البيوت وتقيم فى الأركان والكوى، وأن لها قدرة على النفع والضر فقدموا لها القرابين وضروب الإجلال.

والصينيون يعبدون أرواح أسلافهم عبادة حقيقية . وآية ذلك الضحايا والصلوات التى تقدم لها ، علها تحميهم من كل أذى وتسبغ عليهم كثيراً من نعم هذه الحياة

ويقول المؤرخون أن الصينيين إنما عبدوا هذه الأرواح وأحداث الطبيعة ؛ لأنها رسل الله وجنوده ، وواسطة ما يحدث فى هذا العالم من خير وشر ، وإذا كان كل شيء فى هذا الوجود قد يضر وقد ينفع فمن الطبيعى أن يكون كل ما فيه من جند الله .

كان الضعف قد بلغ من الأسرة المالكة حداً لم تستطع فيه

أن تبسط نفوذها على الولايات الإقطاعية التى تكوّن الامبراطورية الصينية فاستقل الأمراء بهذه الولايات ، وتنافسوا فى توسيع ملكهم ، فدارت رحى الحرب بينهم ، وحشد كل واحد رجاله فى ميدان القتال ، وساقهم إلى الموت زرافات ووحدانا ، فقتل الأبرياء وسالت الدماء ، وأهملت الزراعة لقلة الأيدى العاملة ، وفشا الجوع ، وانتشرت الأمراض ، وعم الظلم حتى قتل الوالى رعيته والولد أباه ، وساء الحال ، وأشرفت الدولة على الزوال .

ولكن فى ذلك الأفق المظلم لاح نجم لامع هو نجم كنفيوشص حكيم الصين ومصلحها العظيم . ظهر فى ذلك الوقت الذى كانت البلاد أحوج ما تكون إلى رجل يأخذ بيدها ويخرجها من الهاوية التى تردت فيها .

ولد هذا الزعيم فى سنة ٥٥١ ق م من بيت كريم المحتد وتوفى والده وتركه صغيرا لم يبلغ الثالثة من العمر فقيرا لا يجد ما يعيش منه واعتنت والدته بتربيته وأرسلته إلى مدرسة تعلم فيها فامتاز عن رفاقه وكان على صغر سنه فى مهابة الرجال وكثيراً ما كان أستاذه يسأله أن يشرح لزملائه الدروس وقال كنفيوشص محدثاً عن

نفسه « علقت المعرفة فى الخامسة عشرة وهام بها قلبى فى الثلاثين وانكشف لى قناعها فى الأربعين وتعلمت الشريعة فى الخمسين ولما بلغت الستين فقهت ما أقول وعند السبعين تسلطت على نفسى وأخضعتها لسلطان العدل » وكان منذ صباه مغرماً بتقليد الكهنة فى تقديم القرابين و إقامة الشعائر الدينية ثم تزوج وولى عملا من أعمال الحكومة فكان أميناً على خزائن الملك ثم حارسا للأملاك العامة ، وبعد مدة اعتزل العمل وبدأ يعلم طائفة من الشبان الذين يلتفون حوله ويدفعون اليه أجراً ، واتصل بأبناء بعض الأمراء فأكب معهم على قراءة الكتب التى تحويها خزائنهم . وبقى على ذلك مدة طويلة ، ثم خطر له أن ينتقل من ولاية إلى أخرى لنشر تعاليمه فطاف بكثير من بقاع الصين واكتسب خبرة واسعة بأحوال الناس فى الجهات المختلفة وتولى القضاء ووزر لبعض الأمراء .

وكان فى كل ما يوكل اليه آية فى الاخلاص والكفاية والحكمة ومات سنة ٤٧٨ ق م . وهو فيلسوف عملى ومصلح اجتماعى كما يتبين من مبادئه الآتية : —

مذهبه

كان يقول بوجود اله يدبر الكون بحكمته وأنه يجب أن يعبد دون سواه ولما وجد كنفيوشص قومه غارقين فى بحار من الأوهام منكبين على التفكير فى عالم الأرواح وعلى التأمل فى فى ذات الإله وملائكته وجنده والحياة الآخرة منصرفين عن الدنيا وكل مايتعلق بها إذلم تكن تزن عندهم جناح بعوضة ، همهم إقامة الشعائر الدينية وتقديم القرابين لأرواح أسلافهم وللقوى الطبيعية المتعددة التى رأوا مظاهرها فى كل ناحية والتمسك بالتقاليد القديمة الموروثة : وجدهم على هذا الحال فلم ينكر عليهم ولم يصادمهم فى عقائدهم ولكنه دعاهم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وقال لهم ما معناه : هناك طائفة من الأشياء لا يحيط بها عقل الإنسان ولا يدركها علمه ، وأنى لكم أن تعرفوا ذات الله وحقيقته ؟ ومن أين يأتيكم الإيمان بأن بين طبيعة الإله والطبائع البشرية ضروبا من المشابهة ، واذا كنا لا نستطيع أن نخترق الحجب و نعلم كثيراً عن الأمور الروحية فقد تكون عباداتكم التى تقيمون

شعائرها ، وقرابينكم التى تقدمونها لهذا العالَم المجهول عديمة الجدوى إنى أدلكم على عالَم آخر أمام أعينكم وفى استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الذكاء أن يلج بابه ويسير فى مسالكه . وذلك هو عالم الواجب : وهو الباب الذى يوصل الإنسان إلى السعادة .

إن الشعائر الدينية التى تمسكتم بإقامتها زمنا ضرب من الخيال فقد تكون صحيحة وقد تكون باطلة وإن الفضيلة — التى هى عمل الخير وتأدية الواجب الذى يتطلبه منك يومك وساعتك — هى الطريق التى توصل سالكها إلى أسمى غاية .

مما تقدم يتبين أن رأيه قريب جدا من المذهب الفلسفى الذى شاع فى القرن التاسع عشر ويتخلص فى أن العقل يجب أن يقف عند حد العالم الحسى وملاحظة الحوادث الظاهرة وهى التى يمكن ربط أسبابها بمسبباتها ؛ أما البحث فى الإلهيات وما وراء هذا العالم فليس لنا من سبيل إليه ولهذا ينصح قومه بأن يتركوا ما وراء الطبيعه لأنه سر غامض ويفكروا فى الإنسان وعالمه .

لا نعرف أن كنفيوشص ادعى أنه يوحى إليه من عند الله

وإنما هو مصلح اجتماعى أراد أن تقوم الامبراطورية الصينية على أساس متين من الأخلاق ، وأن تسود المحبة والروابط الاجتماعية بين الناس . إن الإنسان مدنى، واجتماعه بغيره لامفر منه، والطبيعة الإنسانية هبة من الله، وكمالها إنما يكون فى سلوكها الطريق التى خلقت لها : وذلك هو سبيل الواجب، والقيام بما تقتضيه الروابط الاجتماعية الآتية: وهى رابطة الراعى برعيته، والزوج بامرأته، والوالد بولده، والأخ الكبير بأخيه الصغير، والصديق بصديقه. فللراعى والزوج والوالد والأخ الكبير حق الحكم ، وعلى الرعية والزوجة والولد والأخ الصغير واجب الطاعة ، وأساس الحكم العدل ومحبة الخير ، وأساس الطاعة الحق والإخلاص . أما العلاقة بين الصديق وصديقه فدعامتها الأخلاق القويمة ، وعمادها ضبط النفس ومحبته الخير للناس عامة .

وعنده أن الإصلاح فى الاجتماع إنما ينشأ فى الأسرة ونظامها وعلاقة أفرادها . يقول ما معناه (أن القدماء أرادوا أن ينشروا الفضائل بين الناس فبدأوا بتعليم أنفسهم ، وطهارة قلوبهم ، وتنظيم بيوتهم ثم حكموا رعاياهم حكما صالحا) وإن القانون الذهبى الذى

جعله أساساً لتصرف الأنسان وسلوكه فى الحياة هو قوله (أحب لأخيك ما تحب لنفسك ولا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به) وفى رأيه أن الأنسان يجازى على أفعاله خيرها وشرها فى هذه الحياة فإن لم ينزل به الجزاء نزل بأولاده من بعده .

ومات كنفيوشص فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ويقال أن حاكم الصين يومئذ لم يكد يسمع بموته حتى صاح « ويحى لقد مات كنفيوشص فمن يعيننى على الحكم بعده ! »

وقد ظهر لك مما أسلفنا أن كنفيوشص لم يكن إلا فيلسوفاً عمليا ومصلحاً اجتماعياً كان لتعاليمه أثر عظيم فى إصلاح بلاده ورفعة شأنها فأحله الصينيون محلا رفيعاً ووضعوه فى الصف الأول بين الفلاسفة وقدسوه وقدموا له الذبائح كما كانوا يفعلون مع ملوكهم ومضى على تعاليمه أكثر من ألفى سنة ومع ذلك لاتزال شديدة الأثر فى النفوس يجلها كل واحد من قومه ويخضع لها خضوعه للشرائع الآلهية .

كتب كنفيوشص

الكتب المقدسة عند الصينين كثيرة منها القديم ومنها الحديث فالكتب القديمة هى التى يرجع عهدها إلى ما قبل هذا المصلح . وكانت مبعثرة يخشى عليها من الضياع والبلى فعنى بها وجمعها ورتب أبوابها ومنها :

(١) كتاب « شوكنغ » ويبحث فى تاريخ الصين السياسى والدينى وهو أقرب الكتب شبهاً بالتوراة ويؤخذ منه أن اسم الجلالة واسم السماء واحد عند الصينيين، وأنهم كانوا يعبدون أسلافهم، وأنهم كانوا يعاقبون المذنب بالكى فى الجبهة وجدع الأنف وبتر القدم وقطع الجلد والنفى والقتل .

(٢) كتاب « شيكنغ » وهو مجموعة عظيمة من الشعر يحتوى على أكثر من ثلثمائة من القصائد الدينية وهو شبيه بزابور داود .

(٣) كتاب « ليكنغ » وهو سجل الطقوس وهو فى المنزلة الأولى عندهم لاشتماله على الشرائع وأساس المعاملات التى يجب أن يسيروا عليها .

(٤) كتاب « بيكنغ » وفيه تفسير لكثير من رموز خطية، وبعض ارشادات أدبية وتعاليم سياسية.

أما الكتب الحديثة فهى التى ألفها كنفيوشص أو نقلها عنه كاتبوها ومنها :

(١) كتاب المحاورات وهو أحاديث متفرقة فى موضوعات مختلفة كالمثل الأعلى للإنسان وأوصافه ومناقبه وفيه كذلك سيرة كنفيوشص وتعاليمه على أسلوب تحاورى.

(٢) كتاب العلم الأعظم وهو قسم من سجل الطقوس السالف الذكر ولا يعرف مؤلفه على التحقيق ولكن مما لا شك فيه أنه يحتوي على كثير من آراء كنفيوشص فى السياسة والفضائل والتربية المنزلية وأثرها فى رفع شأن الأمة ونظام الحكم.

(٣) كتاب « لاشنغ ينغ » وسماه بعضهم كتاب « التوازن والتناسب » وهو أيضاً جزء من سجل الطقوس ألفه حفيد كنفيوشص بعد أن أخذ العلم عن جده ومهر فيه وتفقه فى الدين وتعمق فى الفلسفة.

هذه هى كتب الصين ومنها يتبين أن كنفيوشص كان

واسع الفكر عظيم الإنتاج شديد الأثر فى قومه غير أن بلاد الصين لم تبق مخلصة لتعاليمه كل الإخلاص ، فقد وجدت الديانة البوذية التى أسلفنا الكلام عليها طريقها إلى الصين وحلت فى قلوب بعضهم محلا رفيعاً .

اليهود

أصلهم : كانوا قبائل متفرقة يسكنون شرق الفرات ثم هاجروا تحت زعامة إبراهيم عليه السلام كما قال الرب « إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة» وما زالوا ينتقلون حتى أتوا إلى أرض كنعان المعروفة الآن باسم فلسطين وعاشوا بها عيشة أهل البادية يرتادون مساقط الماء ، ويرعون غنمهم ويتلمسون رزقهم وحصل جوع فى الأرض فانحدروا إلى مصر ونزلوا فى جوشن فى الشمال الشرقى ثم أوغلوا فى البلاد واختلطوا بأهلها وأقاموا معهم مدة طويلة .

قضى الإسرائيليون أبناء يعقوب المدافع عن الله فى مصر

نحو أربعة قرون ذاقوا فى خلالها حلاوة العيش ثم قام ملك جديد
على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هُوذَا بنو اسرائيل
شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا
حدثت حرب أنهم يضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون
من الأرض « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً
يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » فخرج
بنو إسرائيل من مصر على نحو ما قص التوراة والقرآن الحكيم
وتاهوا فى الصحراء أربعين عاماً حتى نشأ جيل يمجد الحرية
ويهوى الحروب ووقعت بينهم وبين الكنعانيين حروب انتصروا
فيها وقسموا بلاد كنعان بين القبائل الاثنتى عشرة المعروفة بالأسباط
وأقاموا فى هذه البلاد ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا فيها
قبائل تحت رياسة قضاة منهم ، ثم رأوا تنظيم حكومتهم على
النسق الملكى ليتمكنوا من درء غارات الأعداء فجمعوا كلمتهم
وخضعوا لملك واحد هو شاول البنياميني ثم خلفه داود عليه
السلام وجاء من بعده ولده سليمان عليه السلام وكانت مدة ملكه
زاهية فامتد سلطانه من نهر الفرات إلى البحر الأحمر . وبعد

موته انقسمت المملكة بين ولديه وتوالت أحداث الزمن فدب فيهم الضعف وانقسموا شيعاً وكونت قبيلتان من القبائل مملكة يهوذا جنوباً وجعلت قاعدتها أورشليم — بيت المقدس — أما القبائل الأخرى فكونت ملك اسرائيل جنوباً وجعلت قاعدتها السامرة

وكان هذا التفرق والشقاق سبباً فى وهن المملكتين معاً حتى أخضع الآشوريون مملكة اسرائيل سنة ٧٣٠ ق م وأصبح وطن العبرانيين مملكة يهوذا وفيها بقيت الشريعة الموسوية إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ثم أغار عليها بختنصر وأحرق المعبد فى أورشليم وحمل أشراف العبرانيين ورؤساءهم إلى بابل ثم سمح لهم بالعودة إلى أوطانهم بعد أن بقوا فى السبى ما يقرب من نصف قرن فأعادوا بناء المعبد ونشط رجال الدين ليجددوا مجدهم الغابر .

ديانتهم وفلسفتهم

قص الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام آنس من جانب الطور ناراً فذهب إليها وكانت من نور الله فتجلى عليه وناداه أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية .

لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تضع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة مّا مما فى السماء من فوق ومافى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض » إلى آخر الوصايا العشر التى تعد أساساً لليهودية . ولقد كان بنو اسرائيل يعبدون آلهة مختلفة ويظهر ذلك جلياً أيام إقامتهم مع الكنعانيين فإنهم شاركوهم فى اعتقادهم وعبدوا الشمس والنجوم وغيرها وكان ذلك شأنهم بعد أن دعاهم موسى عليه السلام إلى توحيد الله والإخلاص له فى العبادة وبلغهم رسالته. يقول الله تعالى فى كتابه الكريم حكاية عن بنى اسرائيل «فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » ويقول جل شأنه فى حكاية أخرى عن موسى عليه السلام « قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى »

وقال العلامة « شارل ستوبس » فى كتابه « تاريخ الحضارة »
« وكثيراً ما كان الإسرائيليون ينسون ربهم ويعبدون أرباب القبائل المجاورة فاستشاط ربهم غضباً من سيئات أعمالهم وأسلمهم إلى أيدى أعدائهم يفعلون بهم الأفاعيل حتى إذا ندموا على ما فرطوا فى جنب الله وأصبحوا خاضعين خانعين يرسل اليهم قضاة يسعون فى خلاصهم من أعدائهم وربما مات القاضى فعاد ديب الفساد إلى نفوس الاسرائيليين فيسجدون لمعبودات اخرى »

استمر الأمر على ذلك ومرت دهور وبنو اسرائيل كما بينّا يميلون مع الأهواء حتى ثبت فى قلوبهم الاعتقاد بوحدانية الله « يهوه » ويخيل إلينا أن تصور الوحدانية كان بادئ بدء ساذجاً ، فإن الناس كانوا يعتقدون أن يهوه إله العبرانيين ، وأن مقره فى طورسيناء ولقد مالوا إلى التشبيه فأثبتوا له بعض صفات الإنسان وساعدهم على ذلك ما ورد فى التوراة مما يوهم التشبيه نحو « وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار » تكوين رقم ٣ فقرة ٨ ونحو « الرب رجل الحرب »

خروج رقم ١٥ فقرة ٣ . ونحو « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل الرب نزل عليه بالنار » خروج رقم ١٩ فقرة ١٨ . ونحو « ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى اسرائيل » خروج رقم ٢٤ فقرة ٩ . ونحو « ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » خروج رقم ٣٣ فقرة ١١ ونحو « ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين . . . وأصعد فى الصباح على جبل سيناء وقف عندى هناك على رأس الجبل ولا يصعد أحد معك » خروج رقم ٣٩ .

وما زالت الأفكار ترتقى حتى انتهى بهم التفكير إلى الايمان بإله عام أزلى شديد البأس قوى البطش يفيض عنه العدل ويصدر الحق والقانون برأ العالم ودبره ، وخلق آدم على صورته ، واصطفى من ذريته بنى اسرائيل تفضلا منه . أليس هو الذى خلصهم من الأسر ونجاهم من عدوهم وواعدهم جانب الطور الأيمن ونزل عليهم المن والسلوى ؟ . فهو إلههم وإله موسى ومنه

يستمدون الهداية ويطلبون المعونة، ولئن كان موسى نقيبهم وصاحب شريعتهم أن يَهْوَه هو الذى أمده بروح من عنده وأوحى اليه بشريعته. وقد كان موسى أول الأمر يفصل فى كل المسائل بنفسه ثم وكل طائفة منها الى شيوخ الأسباط واختص هو بالصعب المشكل فقضى فيه بحكم الله؛ ومن هنا أدرك بنو اسرائيل أن الله يحكم بالعدل، وأن القوانين من التوراة تصدر عنه وأنه رقيب على الناس.

وقد ابنى على اعتقادهم بأن الاسرائيليين هم شعب الله امران

أما أحدهما فأنهم قادة الفكر فى كل جيل وأنهم يمتازون بسمو المدارك

وأما ثانيهما فهو ما أشار اليه الشهرستانى بقوله: « واليهود تدعى أن الشريعة لاتكون إلا واحدة وهى ابتدأت بموسى وتمت به فلم يكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجيزوا النسخ أصلا قالوا فلا يكون بعده شريعة أخرى »

لم يكن لليهود أول أمرهم فلسفة فقد كانوا يستمدون أفكارهم من التوراة ولا يجرؤون على التفكير المطلق من كل قيد

بل يستندون فى كل مايقولون على الوحى . ولذلك تركوا البحث فى حقيقة الخير والشر ، وفى حقيقة النفس ومصيرها ، وفى المادة وأصلها : وانما ذهبوا الى أن الله خلق آدم على صورته ، والى أن الله رأى جميع ماخلق فكان حسناً ، وقالوا أن الشر من الأعمال يتولد من انتصار المبدأ المادى على المبدأ العقلى .

جاء فى المقتطف سنة ١٩٠٨ « وكانوا إذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة أرجعوها إلى دائرة الدين وجعلوا الحكم فيها فوق مدارك العقول اعتبارا بما ورد فى سفر أيوب من اجتماع الحكماء ، وبحثهم فى مسألة العناية الالٰهية والقدر ، وكيف ظهر الله فى عاصفة لأيوب وأظهر له قصر المدارك البشرية عن اكتناه أسرار الطبيعة ، ووجوب خضوع الإنسان لله والتسليم لإرادته إلى غير ذلك مما يذهب بالقضايا الفلسفية إلى الوجهة الدينية »

لم يدم الحال على ذلك فإن اليهود لما اختلطوا بغيرهم من الأمم وأخذوا عنها كثيراً من العلوم والآداب اكتسبوا طرائق جديدة للتفكير ، ونحوا منحى الفلاسفة فى كشف الغامض من أسرار الطبيعة ، وفى تفسير المظاهر المختلفة فى هذا العالم ، وشرحوا

الكتب المقدسة وأسهبوا فى ذلك معتمدين على الآراء الفلسفية التى استمدوها من قراءة الأدب اليونانى وبخاصة فلسفة أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو .

ترتب على هذه النزعة الجديدة أن انقسم علماء اليهود قسمين هما الفريسيون وهم الربانيون والصديقيون : أما الفريسيون فكانوا يهتمون بحفظ شريعتهم ، ويستمسكون بتقاليدها ويأخذون فى تفسير الكتب المقدسة بأقوال السلف الصالح ، ولا يفرقون بين السياسة والدين ويعتقدون أن حرية اليهود وكيانهم لا يحفظان إلا بالشريعة ، وأن عظمتهم لا تسترد إلا بالدين ، وقد باعدوا بين الدين والفلسفة ما استطاعوا . وأما الصديقيون فكانوا يذهبون إلى وجوب فصل الدين عن الحكومة قائلين إن الله خلق الانسان كفئا ليتولى إدارة شئونه بنفسه، وأن من العبث الإخلاد الى السكينة، وانتظار إرادة الله فى حين أن الإنسان يستطيع أن يحل المشاكل التى أمامه بنفسه لأنه خلق مختاراً ذا إرادة ، وكانوا لا يتمسكون بسنة السلف وتقاليد الماضين ، ولا يؤمنون إلا بأسفار موسى ، وقالوا ليس فيها ما يؤيد خلود الروح وعلى ذلك كانوا لا ينظرون

إلا إلى عصر ذهبي يشبه عصر داود وسليمان عليهما السلام

ويخيل إلىّ أن الشهرستانى يشير إلى هذه الفرقة بقوله «وليس فى التوراة ذكر القيامة ولا الدار الآخرة ، ولا فيها ذكر بعث ولا جنة ولا نار ، وكلّ جزاء فيها إنما هو معجل فى الدنيا فيجزون على الطاعة بالنصر على الأعداء وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك ؛ ويجزون على الكفر والمعصية بالموت ومنع القطر والحمّيات والجرب ، وأن ينزل عليهم بدل المطر الغبار والظلمة ونحو ذلك ، وليس فيها ذم الدنيا ولا الزهد فيها »

على الرغم مما تقدم لا يسعنا إلا الاعتراف بأن عدداً عظيما من اليهود قد نبغ فى الفلسفة وأمعن فى دراسة النظريات ، ومن هؤلاء سعيد بن يعقوب الفيومى ، فإنه ألف كتابا فى العقائد ذهب فيه إلى أن العقل هو الذى يرشد الإنسان إلى الحقائق ، والوحى يؤيده ويذلل له طرق إدراك الحقائق العالية ، ومنهم موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وغيرهما

فصل

وبعد فهذا بعضٌ من صور الفكر الشرقى القديم وهى فى جميع أحوالها تستند الى الأساطير البالية أو الكتب الدينية التى حددت للناس طريق الفكر والعمل ، وأنت عليهم بأن الفلسفة مستمدة من الفكر المحض ، ووليدة العقل الطليق ؛ ولذلك يميل جماعة من المؤرخين إلى عدم تسمية هذا النوع فلسفة . يقول المؤرخ أردمان أن تاريخ الفلسفة يبدأ بفلسفة اليونان ومن الخطأ أن نعتقد أن الفلسفة اليونانية قد سبقتها فلسفة أخرى إذ لم يكن للأمم الشرقية كالصين والفرس والهنود والمصريين نظم فلسفية ، وإنما كان لهم بعض تعاليم وعقائد وعادات مستمدة من الكتب الدينية المختلفة ككتاب الموتى وكتاب الڤيدا وكتاب الأڤستا ، ولاشك أن هذا لا يتفق مع ما نفهم من كلمة فلسفة وإنا لنجد الفكر الشرقى القديم مضطربا مرتبكا لا قدرة له على التحليل والتمحيص ورد الأشياء المتشابهة بعضها إلى بعض فهو يجمع بين المتناقضات ولا يرى من سخف فى عبادة صنوف من الحيوان

ولا يتصور إلا أن تكون الحياة بعد الموت حياة مادية ينعم البدن فيها بما كان ينعم به فى الحياة الدنيا ويذهب الى أن آلهته التى دان لها بالعبادة لا تتصرف على حسب مايهوى إلا إذا تقدم إليها بالسحر والرقى والقرابين ، نعم كان لليونان شىء من هذه العقائد ، ولكنها نزعتها على مرور الزمن كما ينزع الثوب الخلق بعد أن تناولها العقل اليونانى بالتفكير والتمحيص . أما الأمم الشرقية فإنها حافظت على تقاليدها وعقائدها زمنا طويلا — ألست ترى مصر — فإن تقدمها كان فى دائرة عملية ، وبطيئاً جداً لا يتناسب مع آلاف السنين التى كرت عليها . يقول تيلر « فى أيام الأسر الأولى بلغت مصر ذروة مجدها ، ثم حافظت على ذلك وتمسكت بالقديم فلم تخط خطوات واسعة لا فى العمارة ولا فى الحفر ولا فى الآداب ولا فى جميع الفنون ، نعم أن لمصر تاريخاً قديماً لا يعرف أوله ولكن بقى المصريون فى عهد الطفولة على الرغم من مرور القرون المتتابعة »

إن النظريات الفلسفية — ونعنى بها نتائج البحث الفكرى المنظم الذى لا يقصد منه سوى الوصول إلى كنه العالم — لم تنشأ

مستقلة فى غير بلاد اليونان ، وإنا لمدينون لهؤلاء القوم باستقلال الفكر ، والخروج من سلطان العادات والمعتقدات البالية ، ورفض الآراء العتيقة التى كان الناس قديما يزعمون أنها تفسر هذا العالم بأمره وترجعه إلى أصله ، وتوضح حقيقته . حقاً لقد تعلمنا عن اليونان حب التفكير المحض ، ومتابعة البحث إلى نهايته وقبول النتائج التى يرشد إليها وإن تعارضت مع معتقداتنا . ولكن فى الأخذ بهذا الرأى بعض الجور على الأمم الشرقية فإنه على الرغم من التناقض الذى يبدو للعيان فى ديانة قدماء المصريين يمكننا أن نلمح من خلاله أن ديانتهم تقوم على أصول فلسفية لا يزال بعضها موضع الأخذ والرد بين العلماء فى الوقت الحاضر ، على أن تاريخ مصر لا يزال دفيناً ، ولعل تحت التراب كنوزاً مليئة بأنواع العلم والحكمة ، ومن العدل أن ننتظر حتى تتوفر أسباب الحكم الذى لا يحتمل النقض .

هذا ما يختص بمصر ، أما فى بلاد فارس والهند والصين فقد وجدت النظريات الفلسفية مرعى خصيباً وظهرت فى البلاد بمظاهر مختلفة كان لكل واحد منها تأثيره فى حياة الناس وشئونهم الاجتماعية .

الفلسفة اليونانية

بلاد اليونان

هى شبه جزيرة تمتد من قارة أوربة إلى البحر الأبيض المتوسط وتنتشر فى نواحيها جبال شامخة وسهول صغيرة وأودية ضيقة يتعذر اتصال بعضها ببعض ؛ وقد جادت عليها الطبيعة بكثير من المزايا فجمعت فيها بين الجبال والأودية والأنهار الجارية والعيون الصافية تتلبد السحب فى سمائها ثم تنجاب عنها ، ويسطع فى ربوعها ضوء شمس معتدلة الحرارة وتملأ جوها نغمات الطير فى أوكارها ، ويهب عليها نسيم عليل ، ويغطى ثراها كثير من أشجار التين والزيتون والأزهار النضرة الأرجة ، ويحيط بها بحر عجاج متلاطم الأمواج تظهر فى بعض جهاته جزر كأنها الكواكب فى الزرقاء .

وقد ساعد موقعها على اتصالها بكثير من أفكار الأمم ذات الحضارة القديمة فلا يفصلها عن آسيا الصغرى إلا بحر

الأرخبيل ، وليس بينها وبين إيطاليا إلا بحر لا يتجاوز عرضه في بعض المواضع ثلاثين ميلا هذا إلى قربها من شمال أفريقية ووادي النيل الخصيب منبع المدنية ومولد الحضارة . ولقد كان لطبيعة البلاد أثر بين في حياة السكان ، فقد بعثت في نفوسهم حب العمل وأعدتهم لتعلم فن الملاحة فشقوا عباب الماء ، واتخذوا من الجزر المتعددة معالم يهتدون بها في غدوهم ورواحهم . يقول العلامة دريبر « إن التعاريج الكثيرة ، والجزر الجميلة قد ملأت قلوب اليونان بأمور ثلاثة : ركوب البحار ، وجوب الأقطار ، وحب الاستعمار »

وقد قضت طبيعة البلاد أن تقوم فيها عدة ولايات صغيرة مستقلة في كل واحدة منها حكومة مدنية تتولى إدارة شئونها ؛ ولذلك كانت عائقا عن أن يكون فيها حكومة واحدة تجمع شمل مدائنها وتنتظم جميع سكانها ، ولكنها كانت من العوامل الفعالة في خلق حياة فكرية حرة امتاز بها اليونان عن سواهم ؛ فقد كانوا أهل جبال يعشقون الحرية ، ويخوضون المعامع أنفة من مذلة الخضوع ، وأهل ملاحة يحبون المخاطرة ، ويميلون إلى الرحلة

والارتياد والاختلاط بغيرهم من الأمم ولقد كان لمظاهر الطبيعة فيهم تأثير أى تأثير حتى تجلى لهم الحسن وظهرت آياته فى كل شيء — فى السماء المصحية، والمياه الصافية ، والظل الظليل ، والنسيم العليل ، والشمس المضيئة ، والمروج الواسعة فجعلوا لها تماثيل تجلت فيها المهارة الفنية وجمال الخيال وقوة الابتداع فتوهموها آلهة وخروا الأذقانهم يعبدونها ويتوسلون إليها بالقرابين .

فى هذه البلاد التى حدثتك عنها درجت الفلسفة والشعر والموسيقى ونشأت الحرية الفكرية والسياسية الدينية وانجاب ذلك الظلام الذى خيم على العالم زمناً وكان أهلها أساتذة الأمم وفلاسفة العصور فلقد تركوا للناس ثروة فكرية يستمتعون بها جيلا بعد جيل وأى معهد من معاهد العلم فى بلاد العالم كله يخلو من ذكر اليونان وعلومهم وآدابهم وفلسفتهم ؟ !

أن المراجع التاريخية تدل دلالة لاتحمل الشك على أن اليونان استمدوا مبادئ حضارتهم من الأمم الشرقية كالمصريين والبابليين والفينيقيين ولكن من الصعب جدا معرفة مبلغ ما وصل إلى اليونان من تلك الأمم . وللمؤرخين فى ذلك آراء متباينة . يقول

الأستاذ طه حسين فى كتابه قادة الفكر « أخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ولكنها عملية ، فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ، ووصلوا من ذلك إلى نتائج قيمة فهم لم يضعوا علم الفلك ، وانما هذا العلم يونانى لم ينشأ عن النتائج البابلية ، وانما نشأ عن البحث اليونانى والفلسفة اليونانية ، ولئن كان المصريون قد وصلوا الى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة ، وانما اليونان الذين ابتكروه ابتكاراً . ويجب أن نلاحظ أن العقل الإنسانى ظهر فى العصر القديم بمظهرين مختلفين أحدهما يونانى خالص وهو الذى يسيطر على الحياة الإنسانية الى اليوم والى آخر الدهر ، والآخر شرقى انهزم مرات أمام المظهر اليونانى وهو الآن يلقى السلاح ويسلم للمظهر اليونانى تسليما تاماً »

ويرى العلامة دربير غير هذا الرأى ويذهب إلى أن أوروبا مدينة للشرق برمته وبخاصة لمصر ؛ فقد كانت فى تلك العصور الغابرة مستقر العلم ، وموئل طلابه ، ومنها انبعث نوره حتى غمر بلاد اليونان

العقل اليونانى

مر على العقل اليونانى عصر نستطيع أن نسميه عصر الطفولة فقد جرى مع الخيال ، وابتدع الأساطير شعراً ونثراً لتفسير مظاهر الكون المختلفة ، وآمن بعدد من الأرباب لا يمتازون عن بنى الإنسان إلا فى درجة الكمال، وجعل لكل واحد من هذه الآلهة عملا خاصا ووظيفة لا يتعداها ، وأثبت لهم كل الصفات البشرية تقريباً فهم يأكلون ويشربون ويلهون ويلعبون ويخوضون المعامع ويغلبون ويتألمون ويفرحون ويحزنون ويتباغضون ويحسد بعضهم بعضاً ، وتتوارد عليهم العاهات والعلل ، وتتملكهم أحياناً ثورة الغضب ، وتأخذهم نشوة الحب ، ويخضعون لسلطان الشهوات المختلفة ، وهم يمتازون عن بنى الإنسان بضخامة جسومهم ، وجمال خلقهم ، وشدة بأسهم ، وجهارة صوتهم ، وخفة حركاتهم ، وسرعة انتقالهم ، وبأنهم لا يهرمون ولا تدركهم المنية

أما علاقتهم ببنى الإنسان فإنهم يحسنون الى من أحسن اليهم، ويسارعون إلى نصرته والأخذ بيده اذا وقع فى مكروه ، ويسيئون

إلى هؤلاء الذين لا يقدمون لهم القرابين ، ويهلكون الذين يحتقرونهم والويل لمن ناوأهم العداوة أو بدأهم بحرب فان غضب الآلهة شديد ، وان شئت تفصيلا لما أجملناه فاقرأ أشعار هومر وهزيود التي ترجمت الى العربية والانجليزية .

كرت القرون واستيقظ العقل اليوناني بعد ذلك من هذه الأحلام وجد في تعرف حقيقة هذا العالم ، ورغب في لذات العلم وشعر بما في طلبه والبحث عنه من لذة وسرور فأخذ يرتاد البلاد ويجوب الأمصار وينشد الحقيقة أنى وجدها غير معتمد على وحي ولا مستند الى كتاب ديني وانما كان همه مناقشة الوقائع ودقة ملاحظتها وادراك عناصرها ووضع كل عنصر في موضعه اللائق به.

حقا إن اليوناني يهوى الحياة ويرى فيها ألوانا من الجمال ويعشق الفكر المحض ويمجد الحرية في كل مظاهرها ولا يقدم على عمل إلا بعد تثبته من أساسه الفكري يقول بركليز « ليس تناول الموضوع من جهاته بالبحث عقبة كأداء في طريق العمل ، بل الحاجة إلى العلم الذي يسبق الفعل هو العقبة ، وإن لنا معشر

اليونانيين قدرة غريبة على التفكير قبل العمل، وعلى العمل أيضاً ».

ويقول الاستاذ « بتشر » « إن اليونان أول أمة أخذت على عاتقها أن تزود أبناءها بالعلم وتجعلهم صالحين لحياة مدنية، وترفع مستوى معيشتهم وأن تتعهد بالتربية كل ما فيهم من الاستعدادات والقوى سواء فى ذلك الجسمى والعقلى منها، حتى تبلغ بهم ذروة الكمال »

عصور الفلسفة عند اليونان

وجد العقل اليونانى أمامه عالم الطبيعة واسعاً خلاب المظاهر، مليئاً بالأسرار، فأثار فيه دهشة وإعجابا، وود لو يعرف أصل ذلك العالم ومنشأه وتطوره. وانحصرت الجهود الفكرية فى هذه المباحث، ومضى زمن طويل، والعلماء لاشغل لهم إلا فرض النظريات وإقامة الأدلة على صحتها. وعلى الرغم من الجهود المستمرة لم يهتد الباحثون إلى حل تطمئن إليه النفوس، فقد كانت النظريات يناقض بعضها بعضاً، فذهبت ثقة الناس بها، واعتراهم الشك فى قدرة العقل على فهم مظاهر الطبيعة وإدراك أصلها.

توجه البحث بعد ذلك فى ناحية جديدة، ورغب العلماء فى دراسة كنه العقل، ومعرفة قواه الظاهرة والباطنة، ومبلغ ماله من قدرة على استنباط الحقائق، وجر ذلك إلى اختلاف كبير فى الآراء، وإلى فوضى لم يعرف لها نظير فى تاريخ الفكر البشرى كانت سيئة العاقبة فى بلاد اليونان.

أراد المصلحون علاج تلك الحالة العقلية، واتسعت دائرة البحث، وشملت الإنسان المدنى من جميع جهات — إدراكه، أخلاقه وتربيته ونظامه فى الحكم وعقائده — وأنتج النظر بعض النظم والأفكار الفلسفية القيمة، التى تعتبر بحق أساس الحياة الفكرية فى الوقت الحاضر.

لم تجد هذه النظم نفعا فى إيقاف تيار الفوضى لأسباب نفصلها بعد، فسارع الفساد إلى بلاد اليونان، وأخذت تتداعى قليلا قليلا حتى سقطت فى يد الرومان.

وعلى ذلك يمكننا أن نقسم تاريخ الفلسفة اليونانية إلى عصور أربعة: —

(١) عصر الفلسفة الطبيعية

(٢) عصر الانتقال

(٣) عصر الفلسفة الإنسانية

(٤) عصر اختلاط اليونان والرومان

هذا — ولبعض المؤرخين اعتبارات أخرى فى التقسيم ولكننا آثرنا هذا لوضوحه وسهولة مأخذه وهانحن أولاء نذكر نبذة عن كل عصر من هذه العصور تبين خصائصه واتجاه الحياة العقلية فيه .

الفلسفة الطبيعية

كان العقل اليونانى مليئاً بالحياة والحركة ذا قدرة غريبة على متابعة التفكير ، وكان من الطبيعى أن يستكثر من المعلومات ، وأن يمعن فى البحث عن الحكمة ، وهو فى كل ذلك فرح طروب ، يقوده الأمل ، ويحدوه الرجاء ، وأن أسدلت دونه الحجب وأعوزه الدليل .

ولذلك تناول هذا العالم وما اشتمل عليه ، وحاول إدراك عناصره ، وتعرف الجوهر الأول الذى صورت منه جميع الكائنات ، ونشأ من هذا نوع من الحكمة يسمى الفلسفة الطبيعية لأنها إنما

تتعلق بهذا العالم المادى الذى يدرك بالحس والمشاهدة، وكان مدار البحث فى هذه الحركة الفكرية على المادة الأولى، التى خلقت منها الموجودات، أو الأساس الذى يستحيل ويتشكل، حتى يتولد عنه جميع ما نرى فى هذا العالم من إنسان ونبات وحيوان وجماد.

وقد ضمت هذه الفلسفة عدة مذاهب، قام كل مذهب منها فى جهة معينة . وإليها ينسب، وسنذكر المهم من بينها ملتزمين طريق الإجمال.

١ ــ الفلسفة الايونية

هذا لون من الفلسفة الطبيعية نشأ فى أيونيا وكانت مستعمرة يونانية فى آسيا الصغرى على شاطىء البحر الابيض المتوسط حاضرتها مليتس واليها ينسب طاليس زعيم هذا المذهب وواضع أساس الفلسفة.

طاليس

هو فينيقى الأصل ولد فى حاضرة أيونيا حول سنة ٦٤٠ق.م. ورحل الى مصر، وأقام بين أهلها مدة، وانتفع برحلته وماشاهد

فى خلالها ، حتى قالوا أنه استمد مذهبه من وادى النيل ، وكان من أوسع أهل زمانه علما، فقد ألم بالعلوم الرياضية والسياسية وعلم الفلك ، وتنبأ عن كسوف الشمس الذى وقع فى سنة ٥٨٥ ق . م ، وهو أول من يستحق لقب فيلسوف باعتراف مؤرخي الفلسفة جميعاً .

وقد بحث رجال هذا المذهب فى هيولى العالم ومادته الاولى التى تعتريها الاستحالة والصور المختلفة معتمدين على ما كان لهم من دقة الملاحظة وبعد النظر ولم ينته بهم البحث الى رأى واحد فانهم اختلفوا فى تعيين جوهر الأشياء الحسية التى خلقت أشخاصها منه .

وكان للناس آراء متعددة فى خلق العالم ، تستند الى مجرد الوهم أو الأساطير القديمة ، التى اكتسبت على مرور الزمن منزلة دينية واحتراما من الخاصة والعامة ، ولكن طاليس ضرب بهذه الآراء عرض الحائط ، وفرق بين العلم والخرافة ، وميز بين الصحيح والفاسد ، واستطاع أن يتخلص من أسر التقاليد ، وأن ينظر من جديد بطريقة علمية فى المادة التى منها خلق العالم بأسره ، واعتمد على الواقع المشاهد فى الوصول الى رأيه ، فذهب أن الى الجوهر

الأول الذى صورت منه جميع الكائنات هو الماء ، وذلك لأن الماء يستحيل الى صور متنوعة ، فيكون بخاراً يصعد فى الجو اذا اشتدت الحرارة ، ثم يتكاثف وينزل من السحاب مطراً ، وقد يتجمد فيصير ثلجا ، وعلى العموم تعتريه أحوال المادة الثلاثة وجميع مافى عالم المشاهدة لايخرج عن هذه الأحوال . يضاف الى هذا أن الماء يدور مع الحياة وجوداً وعدما ، وان نمو الكائنات الحية يتوقف عليه وهو دائم الحركة والانتقال ، بعيد المدى والغور ، تذوب فى قراراته الأجسام ، وتصدر عنه الموجودات ، حتى قيل أن الكواكب تستمد منه غذاءها عند شروقها وغروبها ، وقد جاء فى كتاب الملل والنحل لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ مانصه : « ومن العجب أنه نقل عنه (طاليس) أن المبدع الاول هو الماء ، وقال الماء قابل لكل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والارض وما بينهما ، وهو علة كل مبدع ومادة كل مركب من العنصر الجسمانى ، فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض ، ومن انحلاله تكون الهواء ، ومن صفوة الماء تكونت النار ، ومن الدخان والابخرة تكونت السماء ، ومن

الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب ، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بالشوق الحاصل فيها اليه » .
وقد ذكر الشهرستانى تفصيلا طويلا لمذهب طاليس واستدل على صحة هذا المذهب بما روى فى التوراة فى السفر الاول من أن « مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر اليه نظرة الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان ، فخلق منه السموات ، وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الارض ؛ ثم أرساها بالجبال وكأن طاليس الملطى انما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية »

والذى أراه أن فى نسبه هذا كله الى طاليس ضربا من المبالغة فان علماء الفرنجة الذين قرأت كتبهم لايذهبون الى هذا الحد من التفصيل على أن الخلط فى كلام الشهرستانى واضح لايحتاج الى دليل وأين طاليس من هذه المشكاة النبوية ؟ وما للمذاهب الفلسفية والنصوص الدينية ؟

أنكسمندر Anaximandre

٦١٠ – ٥٤٧ ق . م تقريبا

هو من الذين اشتغلوا بالفلسفة الطبيعية ، وعنوا بالبحث عن المادة الأولى التى صدرت عنها الموجودات ، وهو الثانى من فلاسفة أيونيا وكان معاصراً لطاليس ، وأخذ عليه أنه جعل الماء أصلا لكل شيء فى العالم الطبيعى ، مع أنه جزء منه ، فلا يمكن أن ينشأ عنه هذا العالم برمته ، مع اختلاف عناصره من رطب وجاف ، وحار وبارد .

لهذا رأى أن الهيولى لابد أن تكون شيئا غير محدود لا يقبل النفاد ويتألف من عدة عناصر لا يتميز بعضها من بعض ، وهو أزلى لا يلحقه فناء متمتع بحركة ذاتية صادرة منه ، وفى أثناء حركته تنفصل عنه اختياراً جميع الكائنات التى نراها ، ويكون لكل كائن وجود مستقل مدة من الزمن ، ثم يرجع إلى ذلك الأصل مرة ثانية متى جاء الأجل المقدر .

من هنا نفهم أن هذا الأصل الذى فرضه سبب فى وجود

الأشياء ثم اليه ترجع لتفنى فيه ، ويقول ما معناه « إن الكائنات يجب أن ترجع إلى أصلها الذى نشأت عنه وفقا لغاية معينة لأنها لا بد أن تكفر عما اقترفت من إثم ، وارتكبت من خطيئة ، متى حان وقت ذلك . »

وقد ذهب انكسمندر إلى أن الأرض اسطوانية الشكل قاعدتها ثلث ارتفاعها يحملها الهواء فى نقطة مركزية على ابعاد متساوية من محيط العالم ، وإلى أن الكواكب تدور حول الأرض كل واحد منها فى فلك معين وأبعدها عن الأرض فلك الشمس ويليه فلك القمر ، وله فى خلق الكائنات الحية رأى غريب : فقد كانت أول أمرها فقاقيع ذات غشاء رقيق ظهرت على وجه الأرض بتأثير حرارة الشمس ، ثم انفجرت وخرجت منها الحيوانات خروج الفرخ من البيضة فكانت أول نشأتها دميمة المنظر ناقصة التكوين ، ثم استكملت خلقها تدريجا ، وكذلك كان الانسان فقد كان أول عهده بالحياة فى شكل السمك يتقلب فى الوحل ثم انتقل من حالة إلى أخرى على مرور الزمن حتى وصل إلى صورته المعروفة.

مما تقدم يعلم أن هذا الفيلسوف ارتأى فى كيفية الخلق وأصل

الخليقة رأيا يخالف العقيدة الدينية ويمكننا أن نلمح فى فلسفته بذور نظرية النشوء والارتقاء غير أنه لم يعين لنا الماده الأولى التى منها خلقت الكائنات وانما وصفها وصفا لا نراها تتميز به عن غيرها. وقد حاول ثالث فلاسفة « ايونيا » أن يعين هذه المادة فذهب إلى أنها الهواء أو بعبارة أخرى الأثير كما سيتضح بعد.

انكسمينس

من ٥٦٠ — سنة ٥٠٠ ق. م

هو أحد فلاسفة ميليتس الذين اشتغلوا بالبحث عن أصل هذا العالم المادى وقد اعتمد على نفسه واستقل بفكره، ولم يأخذ برأي من سبقه، بل نظر فى الواقع المشاهد، وأمعن فى الدراسة والطلب حتى اهتدى إلى أن العنصر الأول الذى صدرت عنه جميع الموجودات هو الهواء الذى يملأ الفضاء ويغمر الكائنات ويستحيل إلى صور متنوعة فهو مصدر الحياة، وروح كل كائن، وهو سابق للماء فى الوجود ألا ترى أن الهواء إذا اجتمعت ذراته وانضم بعضها إلى بعض نشأ سحاب يمر من مكان إلى مكان ولا يزال

ينتقل حتى يتساقط منه مطر فتسيل الأودية وتجرى الينابيع والأنهار، وتمتلىء البحار، وأحيانا يشتد الضغط ويتراكم السحاب وينزل من السماء البرد والثلج، ويجتمع أوله بآخره فتتكون الأرض وقد يخف الهواء ويتمدد وتتفرق ذراته وتنتشر فى مكان فسيح فينبعث عنه الدفء والحرارة واللهب، وتنشأ النجوم والكواكب المضيئة الملتهبة كالشمس ونحوها، وتجارب الناس تدل على أن الهواء منبع البرودة والحرارة فان الانسان إذا تنفس مفتوح الفم كان نفسه حارا، وإذا تنفس مضموم الشفتين كان نفسه باردا، والهواء غير محدود الكمية فانه يشغل فراغا لا آخر له ويرتفع إلى غاية لايدركها البصر وهو الروح الذى يسرى فى الكائنات فتدب فيها الحياة والقوة والنشاط.

ومن هنا يتضح أن الهواء هو الجوهر الأول الذى صدرت عنه جميع الخلائق، وهذا آخر رأى أنتجته الفلسفة الايونية، ثم حدث أمر عظيم انقطعت بسببه الحياة الهادئة والبحث العميق فى ذلك البلد الأمين ذلك أن الفرس أغاروا على ميليتس ودمروها تدميرا، ولكنهم لم يطفئوا فى أهلها نور الفكر، ولم يقتلوا فيهم

حب الحرية فقد هاجر عدد منهم إلى بلاد مختلفة وكان من جراء هذه الهجرة أن انتشر العلم واتسعت دائرة الفلسفة ورفرف علم الحرية الفكرية فى كثير من الجهات .

٢ — الفلسفة الاليائية

اتسعت رقعة المملكة الفارسية، وأوغل أهلها فى البلاد فتحا ، حتى امتد سلطانهم إلى آسيا الصغرى ، وكان من بين مستعمراتهم « ايونيا » التى كانت مبعث الفلسفة فى العالم بأسره .

وقد ترتب على الفتح الفارسى أن تفرق علماء « ايونيا » وانتشروا فى كل واد يتلمسون الجهات الآمنة يتابعون فيها أبحاثهم ويعلمون حكمتهم وكان من بين المدن التى عمروها وطاب لهم المقام فيها « اليا » Velia أو Elea فى جنوب ايطاليا واليها تنسب الفلسفة الإليائية وهى شعبة من الفلسفة الطبيعية التى اهتمت بالبحث عن أصل هذا العالم المادى وجوهره الذى صدرت عنه جميع الكائنات .

ولكن الفلسفة الإليائية اتجهت جهة خاصة ، وبحثت عن أصل العالم ومبعثه الروحى ، ولم تعن إلا قليلا بالجوهر المادى كما

يتضح ذلك من آراء زعيمها وحامل لوائها اكسنافنس وسنتكلم عنه بعد .

اكسنافنس

٥٧٠ — ٤٨٠ ق . م تقريباً

ولد هذا الفيلسوف فى « أيونيا » ولما احتلها الفرس هاجر منها مع من هاجر . ومازال يضرب فى الأرض ويرحل من مكان إلى مكان حتى ألقى عصا التسيار فى « أليا » بعد أن زار صقلية وبلاد اليونان ورأى فيها انحطاطا فى الأخلاق وضلالا فى العقائد الدينية ، وانبرى لهومر وهزيود وأنحى عليهما باللائمة ، وسخر من شعرهما ، واستخف بآرائهما لأنهما يصفان الآلهة بأوصاف شائنة : كالسرقة والزنا والخداع ونحوها وأعلن أن الله لاأول لوجوده ولامثيل له ، وجميع العوالم فى قبضة يده لاشريك له فى ملكه فهو الواحد الذى يتصف بجميع صفات الكمال لا إله إلا هو تعالى عن شبه الحوادث ، فليس له يد ولا عين ولا أذن ولكنه يسمع ويرى ، ويبطش ويدبر شئون العالم بحكمته وعلمه . وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أن هذا الفيلسوف وصل إلى الإيمان

الحقيق بوحدة الله ولكن كلامه مضطرب يدل بعضه على أن الإله والعالم شيء واحد وعلى أنه أعظم الآلهة وقد يشعر بعض عباراته بالتعدد .

واكسنافنس لا يعتقد بالوحى ، ولا يعترف بكتب دينية ويعتبرها نوعاً من الخرافة ، ويعتمد على العقل فى تعرف الحقائق وإدراك الأمور التى لا تقع تحت المشاهدة على أن وثوقه بالعقل محدود ، إذ ليس فى استطاعة أى إنسان أن يفهم جميع مافى الكون وسر وجوده فهما يقيناً مطابقاً للواقع .

أما الأصل المادى الذى صورت منه الكائنات فهو فى رأيه العناصر الأربعة — الماء والتراب والنار والهواء — مجتمعة .

٣ — الفلسفة الفيثاغورية

ولد زعيم هذه المدرسة ، فيثاغورس ، فى المدة التى بين سنتى ٥٨٠ ، ٥٧٠ ق . م وقد هاجر فى منتصف عمره إلى إيطاليا الجنوبية وأقام هناك ردحاً من الزمن أسس فى أثنائه جماعة الفيثاغوريين . أما تاريخ وفاته ومكانها فغير معروفين على سبيل التحقيق .

ولا تنتسب الفلسفة الرياضية إلى فيثاغورس وحده ، بل تنتسب إليه وإلى جماعته ، فهى شبيهة بالمذهب الرواقى ، فى أن كلا منهما مجموعة آراء فلسفية لجماعة من المفكرين.

خصائص الفلسفة الفيثاغورية : تعلن هذه الفلسفة أن الأشياء تمايز بصفاتها ، فبعضها أخضر اللون وبعضها أحمره ، وبعضها أزرقه وهكذا ؛ كما أن بعض الأشياء حلو المذاق ، وبعضها مره ، وبعضها مزه وهكذا ؛ كما أن بعض الأجسام حار ، وبعضها بارد ، وبعضها فاتر وهكذا . وكذلك الشأن فى المشمومات وسائر المدركات الحسية . وأنت ترى بناء على ذلك أن هذه الصفات لا تعم ولا يمكن أن تعم جميع الأشياء ؛ إذ أن لكل منها صفة تميزه عن غيره . فاذا أردنا صفة تعم هذه الجواهر على السواء فليس لدينا إلا « العدد » لجميع الأشياء ذات كم متصل أو منفصل : فلا يمكن أن نتصور وجود عالم لا عدد فيه أو لا كم له كما يمكن أن نتصور وجود عالم خال من اللون . ومن ثم كان العدد هو الظاهرة المهمة الضرورية فى جميع الأشياء . ويرى الفيثاغوريون كذلك أن الكون تعمه أمور ثلاثة : هى التناسب ، والترتيب ، والتناسق ؛ وهى أمور

ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعدد ؛ فكل منها يقدر بالقياس إلى العدد فالتناسب يلاحظ فيه نسبة عدد الى آخر والترتيب يلاحظ فيه مجيء عدد بعد آخر ، والتناسق فى الحقيقة مجموع التناسب والترتيب ، فهو كذلك مرتبط بالعدد وبذلك نستطيع أن نلخص لك مذهبهم فى أن العدد هو الصفة الضرورية لجميع ما فى الكون .

وقد تغلغلوا فى تطبيق نظريتهم هذه حتى خرجوا منها بهذه النتيجة الغريبة : وهى أن الكون مكون من أعداد . فكما أن طاليس ذهب إلى أن الماء أصل جميع الكائنات ، ذهب الفيثاغوريون إلى أن العدد أصل العالم وإليك مثلا من غلوهم فى مذهبهم : فقد رأوا أن جميع الأعداد تتكون من الواحد — إذ أن كل ما عداه من الأعداد ليس إلا مكرراً له — فقالوا إن الواحد بناء على ذلك هو الأول فى سلسلة الوجود الكونى ورأوا كذلك أن العدد ينقسم إلى زوج وفرد ، فزعموا أن الكون مؤلف من أزواج من المتقابلات كل متقابلين منها زوج وفرد ورأوا كذلك أن الفرد متناه والزوج غير متناه بناء ذلك ، على ما يظهر ، على أساس امكان التنصيف ؛ إذ أن

العدد الزوجى قابل للتنصيف بخلاف الفردى الذى يضع حداً نهائياً للقسمة — فنادوا بأن أصل العالم مؤلف من المتناهي وغير المتناهى ؛ فالواحد يتكون أولا ؛ ثم يجذب إليه غير المتناهى من الأعداد . وبما أن الواحد متناه فهو شيء محدود أوشيء مستقل ، أو شيء من الأشياء الكونية .

وبهذه الطريقة ، التى لايمكن إنكار ما يكتنفها من الإبهام، يتكون العالم المادى فى رأى المدرسة الرياضية .

وقد وضع أصحاب هذا المذهب جدولا به عشرة أزواج ، يتألف كل زوج منها من متقابلين — قائلين إن الكون يتركب من هذه المتقابلات . وهى :

(١) المتناهى وغير المتناهى .

(٢) الفرد والزوج .

(٣) الواحد والكثير .

(٤) اليمين والشمال .

(٥) الذكر والأنثى .

(٦) السكون والحركة .

(٧) المستقيم وغير المستقيم

(٨) النور والظلام .

(٩) الخير والشر .

(١٠) المربع والبيضاوى .

ولم يطبق الفيثاغوريون نظريتهم هذه على أساس ، بل تحكموا تحكما تعسفيا ، فقالوا إن الواحد هو النقطة ، والاثنين ، الخط ، والثلاثة السطح ، والأربعة الجسم ، والخمسة الصفات المادية والستة الحياة ، والسبعة العقل ، الخ

وأنت ترى أن هذا كلام لا يقره العقل والمنطق ، ولكنها وجهة نظر قامت على أساس تخيله أصحابها ، ويدلك على هذا أنهم لم يتفقوا على العدد الذى تتكون منه الأشياء المختلفة فى الكون فقد سماه كل فيثاغورى على حسب هواه ، ومن ثم تجدهم فى تطبيق رأيهم على العدالة مثلا يتفقون على أنها مقابلة المثل بالمثل ، ويتفقون كذلك على أن هذا المعنى يترجم إلى عدد مربع ، ولكنهم يختلفون فى اختيار هذا العدد ، فمنهم من يرى أنه ٤ ومنهم من يرى أنه ٩ وهكذا .

نقد المذهب :

وتتلخص أوجه نقد هذا المذهب فيما يلى :

(١) أنه مذهب جرىء فى ربطه بين الفلسفة والرياضة إلى ذلك الحد . ولعل من أهم الأسباب التى مهدت لذلك اشتغال معظم فلاسفة اليونان القدامى بالرياضة ، حتى إن إفلاطون كتب على هيكله : « من لم يكن مهندسا لا يدخل علينا »

وقد ظهر فى العصر الحاضر بعض فلاسفة الانجليز الذين يحاولون أن يربطوا بالفلسفة الرياضة ، وفى مقدمتهم العلامة برتراندرسل .

(٢) أن كثيراً من آراء هذا المذهب مقبولة على اعتبار أنها وجهات نظر شائقة يسر المفكر أن يطلع عليها ، وإن لم يسلم بكل ما فيها .

(٣) أن هذه المحاولة الجريئة فى الربط بين الفلسفة والرياضة تركت آثارا حميدة فى دقة التفكير الفلسفى ونزوعه إلى زيادة التمحيص .

(٤) أن هذا المذهب كالمذهب الرواقى هو مجموعة آراء لطائفة

من المفكرين ؛ ولكن ذلك مهما أنتج الاختلاف بينهم ، لم ينتج التناقض الذى نشأ أحيانا فى آراء الرواقيين.

(٥) يظهر أن الفيثاغوريين قد أغراهم ما فى بعض آرائهم من الصواب بالغلو فى تطبيقها إلى الحد الذى أخرجها عن المعقول كما رأينا.

٤ — الفلسفة الذرية

هذه شعبة من الفلسفة الطبيعية اشتغل رجالها بالبحث عن حقيقة العالم وهيولاه ، فذهبوا إلى قدم المادة ، وإلى أنها لا تتغير ولا تستحيل والاستحالة واردة على الصورة دون الجوهر . وقال بعضهم ما معناه « خطأ يزعم اليونان أن الكائنات توجد بعد عدم ويلحقها الفناء بعد الوجود لأن الأشياء لا توجد ولا تنعدم والذى نراه مما يوهم الوجود والعدم يرجع إلى اجتماع الذرات وانضمام بعضها إلى بعض على نحو خاص ، أو إلى انحلالها وافتراق بعضها عن بعض »

ومن هنا نرى أنهم يذهبون إلى أن الجوهر الأول الذى نشأت عنه الكائنات ذرات أزلية لا يحصيها العد ، وفضاء لا يدرك

مداه وهذه الذرات غاية فى الدقة لا تدرك بالعين ، ولا تقبل القسمة وهى تماثل فى الجوهر ، وتختلف فى الحجم والصورة ، وتتحرك فى الفضاء حركة ذاتية وفى أثناء حركتها يتصل بعضها ببعض على أنحاء مختلفة ، فتظهر الكائنات المتنوعة والعوالم المتعددة ومن بينها عالمنا الذى نعيش فيه وهو كالكرة يسبح فى فضاء ينتهى بدائرة من الذرات المتكاثفة وعند هذه الدائرة تصدم الذرات ويرتد بعضها إلى بعض ، وتنشأ العناصر على هذا النحو .

وأنت ترى من هذا أن الصفات التى أثبتها رجال هذا المذهب للذرات الأولى محدودة لاتتجاوز أن لها حجماً وصورة وثقلا وحركة ، ولكننا ندرك فى الأجسام التى تتكون من اجتماع الذرات المحدودة الصفات صفات أخرى جديدة لا وجود لها فى الذرات كاللون والطعم والصوت . فمن أين جاءت هذه؟ وما مصدرها؟ وسيكون لهذه الأسئلة شأن عظيم فى الفلسفة فى عصر الانتقال .

وقد قال رجال هذا المذهب أن النفس تتألف من ذرات غاية فى الدقة مستديرة ملساء سريعة الحركة بعيدة عن الاضطراب فى حركتها والأشياء الخارجية تقابل الحواس فتنطبع صورها فيها وحينئذ

تحدث الصفات الجديدة التى لا وجود لها فى الذرات الأولى ، وبعبارة أخرى هى من خلق النفس فالصور التى تقوم فى الذهن ليست متماثلة فى كل شىء مع المدلولات الخارجية .

وعلى هذا لا يمكننا أن نعتمد على الحواس فى تعرف العالم الخارجى والعقل هو الذى يخلق الأفكار ويفسر المظاهر ، ومن هنا كان كل إنسان دنيا نفسه .

ولقد تجاوز أصحاب هذا المذهب العالم الطبيعى وتناولوا البحث فى حقيقة الخير والشر ، وماهية السعادة ، وسبيل إدراكها ؛ فعرفوا الشر بأنه كل ما يصدم النفس ويسبب اضطرابا فى ذراتها ذات الحركات الهادئة المؤتلفة ؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يجتنب كل التجارب التى تثير فيه أنواع الشهوات المختلفة ، وضروب الانفعالات القوية . وعندهم أن السعادة غاية الحياة ، وقد قالوا أنها ليست فى امتلاك الضياع الواسعة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وإنما مقامها المقدس ومقرها الأمين نفسك التى بين جنبيك ، ووسيلتها الذكاء والحكمة ، وأجدر شىء بالإنسان أن يرغب فى الجميل اللائق ويستمتع به ويتغلب على شهوات نفسه ،

ويكتفي بالقليل من العيش ويكف عن فعل الشر وإرادة الشر .

هذا ملخص المذهب الذرى وذاك موضعه من الفلسفة اليونانية ، ولا يزال له فى الوقت الحاضر أنصار يعدون بين أساطين العلم، فان بعض النظريات الحديثة ترجع فى أصلها إلى هذا المذهب .

مما تقدم نعلم أن الفلسفة الطبيعية تحولت تدريجاً من موضوعها وشملت البحث فى الآلهيات وطبيعة العقل وماله من قدرة على إدراك الحقائق ومبلغ الوثوق بعلمه وفى حقيقة الخير والشر وماهية السعادة ووسائلها وحياة الانسان والغاية منها ، وعلى الاجمال أوجدت مجالا جديداً للفكر سنحدثك عنه بشىء من التفصيل فى الفصول الآتية .

عصر الانتقال

تبين مما سبق أن الفلسفة الطبيعية بحثت عن أصل هذا العالم المادّى، وجوهره الذى صدرت عنه جميع الكائنات، وانتهى البحث برجالها إلى نظريات متناقضة وأصول متعددة يغاير بعضها بعضاً ، وكان من الطبيعى أن يرتاب الناظر إلى هذه المذاهب فى النتائج التى وصلت إليها كلها ، ويتناولها من جديد مذهباً بعد مذهب،

دله يرى مواضع الضعف فيها ، ومكامن الخطأ منها .

وعلى هذا النحو ظهر روح النقد واتجه فى جهات مختلفة ، وكان أول شىء خطر ببال الناقد أن يبحث فى معنى العلم ويتعرف العلاقة بين الحواس والعالم المادى ، أو بعبارة أخرى بين المعانى الذهنية والمدركات الخارجية واستقلال الأولى عن الثانية ، أو مبلغ اعتمادها عليها .

ثم انسعت دائرة النقد وشملت بجانب النظريات الفلسفية العقائد الدينية وسلوك الانسان فى حياته ، وتناول العقل العادات الموروثة والتقاليد المتبعة والمسائل الخلقية والسياسية والدينية ، وأراد أن يفرق بين الذى يقوم منها على أساس من العرف واصطلاح الناس واتفاقهم منذ القدم وبين الذى يبرره الفكر الصحيح وترشد إليه طبائع الموجودات .

ولقد كان من المحتمل أن يجمع النقد بين الهدم والبناء ولكنه جرى فى اتجاه سلبى ، وعمد الناقدون إلى تقويض دعائم الحياة الاجتماعية ، وهدم العادات الشائعة والقوانين المتعارفة والعقائد المتوارثة والأخلاق المرعية من غير أن يحلوا غيرها محلها .

وترتب على انتشار هذا النوع من النقد ، وعلى تضارب المذاهب الفلسفية التي عرضنا لها في الدروس السابقة أن يرتاب الإنسان في كل شيء وينكر أن للأشياء حقائق ثابتة تتساوى العقول في إدراكها وأن هناك قضايا عامة يتفق الناس عليها وإذا كان الأمر كذلك فما هو أساس الأحكام الخلقية ، والعادات والحقائق الدينية ؟ إن الإنسان هو مقياس كل شيء في الوجود ، ومرجع الحكم على الأشياء والأفعال هو ما تجلب إليه من سرور ولذة أو حزن وألم ، فالخير والشر من الأمور الشخصية،والفضيلة والرذيلة يتفاوتان باعتبار الأشخاص والنتائج ولو أن للخير والشر معاني ثابتة ما تفاوتت العقول في إدراكهما ، ولا كان هناك حاجة إلى وضع القوانين التي تبين للناس طريق العمل . وإلى هذا ذهب السفسطائيون : فإنهم أنكروا حقائق الأشياء ، وزعموا أن الإنسان مقياس كل شيء في هذا العالم ، وفسروا هذا بأن جميع ما استحسنه الشخص لنفسه حسن ، وجميع ما استقبحه قبيح ، وجعلوا مدار الحسن والقبح الحواس وألوان الشعور التي تنبعث في النفس .

السفسطائيون

كان لمباحث العلماء الذين اشتغلوا بتحقيق مذاهب الفلسفة الطبيعية ومتابعة النظر فى فهم أسرار الوجود أثر طيب فإنهم وسعوا دائرة العلم وزادوا فى فروعه وكان أول واجب على من يبغى التهذيب والثقافة الحقيقية أن يحيط علما بهذه الفروع فاتجهت رغبة الناس نحو دراسة الفلك والجغرافية والرياضة والطبيعة والتاريخ ، ووجدوا هذه العلوم وغيرها عند السفسطائيين الذين كانوا بمثابة جامعة علمية فى بلاد اليونان وهم جماعة من الناس نزحوا من المستعمرات إلى بلاد اليونان خصوصاً فى إبان الحروب الفارسية وتصدروا لتعليم الشبان فنونا مختلفة كالتاريخ واللغة وآدابها وأصول البلاغة والمنطق وبالجملة جميع العلوم التى كانت معروفة فى تلك العصور فإنهم لم يتركوا موضوعا إلا تكلموا فيه وتناولوه من جميع جهاته فذكروا جميع ما انطوى عليه من المحاسن إذا حلا لهم ذلك أو أطنبوا فى بيان سيئاته إذا قصدوا ذمه والحط من شأنه .

ولقد كان عمادهم فى كل ما يقولون زخرف الكلام وذلاقة اللسان وبلاغة المنطق وشدة العارضة وسرعة الخاطر وحسن إيراد

الحجة شأن المحامى الماهر الذى يتولى الدفاع فلا يزال يفتن فى العبارة ويكثر من الاستشهاد ويلجأ إلى العاطفة ويثير فى القضاة كامن الوجدان ويسترحمهم لموكله حتى يقضوا ببراءته .

ولقد وجدوا المجال لنشر تعاليمهم فسيحا فى بلاد اليونان لأن شبان الإثينيين أقبلوا عليهم ودفعوا لهم أجوراً عالية وتعلموا عنهم الخطابة والمهارة فى الحوار وقوة الإقناع وسحر البيان حتى كان فى استطاعتهم أن يصوروا الحق باطل والباطل حقاً .

تطلب النظام الديمقراطى هذه الصفات فكانت من ألزم الأشياء للشباب الأثينى من ذوى اليسار لأنها عدته فى المسائل السياسية والخطب فى المجامع العامة ولأنها كانت تمهد له طريق الرفعة وتقوده إلى المجالس النيابية ووظائف الحكم .

ولم يكن فى سلوك السفسطائيين مايعاب عليهم بادئ الأمر سوى أنهم كانوا يتطلبون أجوراً كبيرة على التعليم لا يستطيع دفعها إلا الأغنياء ولم يكن للأثينى عهد بهذا من قبل ، غير أن النجاح أطغاهم فغاض معين الإخلاص فيهم ، وكان هم المناظر أن يغلب خصمه بحق أو بباطل ، وأصبحت الذلاقة اللسانية وحدة

الذهن والافتنان فى الحيلة كل شىء لديهم فقطعوا النظر عن الواقع المشاهد ولم يقيدوا أنفسهم بالأوضاع القديمة والعادات المتبعة ، ولم تحمل إليهم ألفاظ اللغة معانى محدودة متعارفة، واستباحوا لأنفسهم أن يفسروها كما شاء لهم الهوى ، ومالوا الى الحرية المطلقة ، وقصدوا التمتع بألوان الترف وتحصيل المال بأى وسيلة معتمدين على ما كان لهم من براعة فى الكلام ومهارة فى إيراد الحجة .

ومن أشهرهم بروتاجورس وجورجياس الصقلى وهيباس وغيرهم وكانت مذاهبهم متقاربة فقد أنكروا حقائق الأشياء وسخروا من أصول الأخلاق وضربوا بجميع الفضائل عرض الحائط إذا كان الاستمساك بها لا يوصل الإنسان إلى غايته وقد ورد عن بعضهم قوله « إن الطبيعة نفسها ترشدنا إلى أن من العدل أن ينال القوى مالا ينال الضعيف سواء فى ذلك الحيوان والإنسان: أن العدل الطبيعى أن يتغلب العظيم وتكون له السيطرة على الدنىء الحقير ، ولو أن رجلا رزق من القوة ما يستطيع به أن يطأ القوانين برجليه ويخضع الناس لإرادته ويسخرهم لخدمته لفعل ولتجلى فى فعله العدل الطبيعى » وأنت ترى من هذا أنهم هدموا

الأخلاق رأساً على عقب وأنكروا الآلهة وقالوا لا وجود لها إلا فى الخيال .

وقد ترتب على مذهب السفسطائيين نتائج سيئة فى كل ناحية من نواحى الحياة وحصلت فوضى فى الأفكار ، وتعددت الآراء الدينية، وانحلت الرابطة الاجتماعية ، وذهب كل فرد فى إدراك الفضيلة والرذيلة وتفسير الخير والشر مذهباً يناسب هواه ويتفق مع مآربه ، وتفرقت بالناس السبل ، وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . وماذا عسى أن نقول فى قوم لا تربطهم رابطه ؟ لعلك تدرك أن أساس الحياة الفكرية والاجتماعية قد تهدم حتى لم تبق منه بقية ؛ ذلك لأن الموجودات أصبحت من خلق الحواس ، والقوانين العلمية صارت موضع الشك ، ولأن الحياة الاجتماعية إنما تقوم على أساس من الدين والأخلاق والقانون والنظام العام والمصالح المتبادلة ، وما ظنك بقوم يعتقدون أن هذه كلها أحلام نائم وأمانى كاذبة وأنه لا ضير على الإنسان إذا اقترف الآثام وحصّل لنفسه جميع اللذات بأى طريق تهيأت له ما دام فى مأمن من القانون وأعين الرقباء حتى إذا باع بلاده خفية فامتلأت بثمنها

خزائنه وفاضت ذهباً وفضة. أليست الوطنية حجة واهية ينخدع بها الأبله القليل التجارب؟

عصر الفلسفة الانسانية

كان من الضرورى لوقف هذا التيار الجارف أن يتعرض فريق من الناس لنقد المذهب السفسطائى، وللبحث فى الإنسان وحياته والغاية منها، وعقله وقواه الظاهرة والباطنة التى يدرك بها الأشياء، وفى الموجودات وحقائقها وطريق الوصول إليها؛ ومن ذلك نرى أن الفلسفة قد تحولت وجهة نظرها من الطبيعة إلى الانسان وقواه التى يتمكن بها من تمييز الحق عن الباطل ومعرفة الخير من الشر. غير أن هذا التحول لم يحصل فجأة؛ فإن الفلسفة الأولى شملت بالبحث بعض المسائل الخلقية والإلهية، وإنا لنستطيع أن نسمى هذا النوع من الفلسفة بالفلسفة الإنسانية أو المدنية. ومن أشهر زعمائها سقراط. وسنقص عليك حديث حياته ونجمل لك آراءه.

سقراط

(٤٧٠—٣٩٩ق. م)

هو زعيم الفلسفة اليونانية، وشيخ المفكرين، والمثل الأعلى للبطولة والنبوغ. ولد فى عصر كانت أثينا تموج فيه برجال الأدب وأساطين العلم، وأبطال السياسة، ومصاقع الخطباء. وتلقى التربية الاثينية حين كان غلاماً ولم يمنعه نسبه أن يصل إلى منصب من أكبر المناصب فى أثينا.

وليس فى استطاعتنا أن نحدثك بشىء من التفصيل عن حياته الأولى ونشأته العقلية والخلقية؛ فان التاريخ ضنين بكثير من المعلومات الشائقة، وجملة ما نعلم عنه أنه ولد حول سنة ٤٧٠ ق. م، وأن أباه كان حفاراً وأمه قابلة، وأنه اشتغل مع أبيه فى صغره، ثم انصرف عن ذلك إلى دراسة الفلسفة، وانه كان دميم الخلق، جاحظ العينين، غليظ الشفتين، مرسل اللحية، أشعث الشعر، أغبر الوجه، حافى القدمين، يلبس عباءة بالية صيفاً وشتاء، يطوف الشوارع والأسواق، ويتلمس المجامع حباً

فى الحوار وغراما بالجدل ، وأنه استطاع بما رزق من ذكاء وحكمة أن يكون من قادة الفكر ، وزعماء السياسة فى عصره ، والعصور التى تبعته إلى يومنا هذا .

كان سقراط وطنياً مخلصاً لبلاده محباً لأصدقائه ، يؤثرهم على نفسه وقد انضم إلى الجيش ، ودافع عن وطنه أيام محنته ، وتحمل آلاما ، وقاسى صعابا ، وقابلها كلها بالصبر الجميل ، وأظهر بطولة نادرة ، اعترف له بها أصدقاؤه وأعداؤه معاً ، حتى قال أحد زملائه فى الحرب « لو أن الجيش اليونانى برمته سلك مسلك سقراط لتم له النصر فى كل مكان »

ولا ينبغى أن ننسى لسقراط ذلك الموقف المشرف ، الذى وقفه فى مجلس الدولة للدفاع عن القانون ، والانتصار للحق ، فقد أراد المجلس — وكان سقراط رئيسه ذلك اليوم — أن يحاكم عشرة من القواد دفعة واحدة ، بتهمة أنهم لم يهتموا بنجاة الغرقى من جنودهم ، وكانت محاكمتهم على هذا النحو باطلة من الوجهة القانونية ، فما استكان سقراط ، ولا وهنت قوته على الرغم مما لقيه من المعارضة

الشديدة ، والتهديد الشنيع ، يقول ما معناه مخاطبا أبناء وطنه :

« لقد صحتم فى وجهى ، وهددتمونى بالايقاف والقبض علىّ ، وطلبتم منى الخضوع ومتابعتكم فيما أردتم ، ولكننى آثرت مواجهة الخطر ، حفظا لكرامة القانون ، وصونا للعدل ، ولم أرض لنفسى أن أشترك معكم فى الاقتراح الباطل ، ولم يجد نفعاً تهديدكم لى بالسجن مرة ، وبالقتل أخرى »

هذا هو سقراط رجل المبادئ ، ونصير الحق ، والموعظة الباقية ، والمثل الخالد ، الذى يملأ تاريخه قلوب الناس فى كل عصر محبة للعدل ، ورغبة فى الفضيلة ، وما ظنك برجل يقول للقضاة يوم جلسوا لمحاكمته على التهم التى اتهمه بها أعداؤه — وأشدهم عداوة له « أنيتس » — « لو أنكم قلتم ياسقراط إننا لن نسمع دعوى أنيتس هذه المرة وسندعك طليقاً تغدو وتروح فى ربوع أثينا ، ولكن على شرط أن تترك تعاليمك ، وأبحاثك وفلسفتك ، فإن وجدناك بعد اليوم مشتغلا بمناقشة الشبان ، والبحث معهم فى مسائل فلسفية ، ما كان لك من الموت منجى » لو أنكم قلتم هذا لقلت لكم : (أيها الأثينيون إنى أحترمكم ، وأحبكم ، وأعرف لكم

منزلتكم ، ولكننى أوثر طاعة الله على طاعتكم ، ولن أكف عن الفلسفة والاستماتة فى الحق ، وإسداء النصح إليكم ، مادام فىّ عرق ينبض ، وبين أحشائى نفس يتردد ، حتى إذا لقى الرجل أخاه قال له فى صراحة : أليس من العار أن تكون أثينا عظيمة عامرة ولا يعنى أهلها إلا بالمال وحب الشهرة ، ويتركون الحكمة وسبيل الحق ، ولا يهتمون بتهذيب أنفسهم ؟ »

هذا هو الرجل الذى احتقر لذات الدنيا وحطامها ، ورضى بالقليل من العيش ، ونصب نفسه لتعليم الناس ، ولم يبال بأحد ، حتى اتهمه نفر من قومه بأنه يتفكر فى السموات والأرض وما بينهما ، ويفسد عقول الشبان . ويدعوهم إلى ترك آلهتهم واتخاذ آلهة أخرى .

وقف سقراط أمام مجلس القضاء ، ودافع عن نفسه فى عزة وإباء هازئاً بالقضاء مرة ، ساخراً من أعدائه مرة أخرى ، وصدر الحكم عليه بالموت ، وسجن مدة من الزمن قبل تنفيذ الحكم فكانت حجرته غاصة بتلاميذه الذين كان يحاورهم فى كثير من المسائل الفلسفية ، وقد هيأ له تلاميذه سبيل الفرار من السجن ، حتى ينجو من الموت ، فعنفهم ولامهم على فعلهم ، وأبى إلا أن

يكرع كأس السم مترعة ، وهو رضى النفس قرير العين ، واثق بأن أمامه حياة أخرى خيرا من هذه الحياة .

فلسفة سقراط

لم يترك سقراط أثراً مكتوباً نستمد منه دقائق فلسفته ، فقد شغله الحوار عن كل شيء ، واستغرق حديثه مع الناس ومناقشاته لآرائهم كل وقته ، ولم يكن سقراط فى جدله لاهياً أو لاعباً ، وانما كان يؤدى فرضاً لابد له من أدائه ، فان الله أمره أن يختبر الناس ، ويمحص آرائهم من شائبة الخطأ ، وهو رجل طيع يقوم بما يؤمر به .

وقد حكى لنا التاريخ أن واحداً من أصحاب سقراط المخلصين له وجّه الى كاهنة « دلفى » السؤال التالى « هل بين بنى الإنسان أحد أعقل من سقراط ؟ » وكان الجواب « حقاً ان سقراطاً أكثر الناس علماً وحكمة » فلما بلغ سقراط الجواب ، دهش له وكان بين أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يكذب قول الآله ، وهذا مالا يستطيع فعله ، وإما أن يعتقد فى نفسه العلم والحكمة ، وهو

لا يرضى ذلك ؛ لأنه يجهل كثيراً من الحقائق ؛ ولهذا أخذ يتنقل من مكان إلى آخر ، ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة، ويناقشهم فى المسائل المختلفة حتى يعرف مبلغ ماوصل اليه العلم وتبين له فى النهاية أن الجهل المطبق غلب على قلوب الناس ، وأعماهم عن إدراك الحقائق ، وخدعهم حتى اعتقدوا فى أنفسهم العلم ، وهم عنه بعيدون . وعندئذ أدرك سقراط أن الناس مغرورون كاذبون فى دعوى العلم ، أما هو فجاهل معترف بجهله ، ولعل هذا هو السبب الذى جعله عنه الله الحكيم المفرد . لذلك لم يترك مسألة إلا حاور فيها فقد تناول السياسة العامة ، والآراء الشائعة فى زمنه ، والمبادىء الخلقية ، ونظام الحكومة ، وأساليب التربية ، والغرض منها ، والموت وما بعده ، والنفس وما أعد لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم . ولذ له الحوار فيها كلها ، وتشعبت به الطرق حتى أن الانسان ليجد صعوبة فى تحديد موضوع فلسفته ، وليس السر فى عظمة سقراط وخلود ذكره ، وضعه نظاما فلسفيا لم يسبق اليه ، ولكنه يرجع فى الحقيقة الى أمرين أولهما محاكمته على النحو الذى أسلفنا ، واحتماله الموت فى سبيل نصرة مبادئه ، وإظهاره ذلك الجلد والصبر

الذى لاعهد للناس بمثله ، وما تثيره تلك المحاكمة فى قلوب الأجيال المتتابعة ، من العطف على هذا الشيخ الفانى ، وتمجيد ذكراه ، وتقديس اسمه ، وثانيهما أن كان من بين تلاميذه المخلصين - وكثير ماهم - زينفون وأفلاطون فانهما دونا تاريخ حياته فى سجل الخلود ، ورويا أحاديثه ، ودبجا محاوراته بأسلوب من البيان قل أن يباريهما فيه أحد ، وهذا أيضا مما يزيد دراسة سقراط صعوبة ، فانك لا تدرى حين تقرأ المحاورات التى أوردها أفلاطون فى كتبه إذا كانت تتجلى لك فيها فلسفة الأستاذ ، أو آراء أفلاطون نفسه ساقها اليك على لسان معلمه .

ومهما يكن من الأمر فانا نريد أن نعترف لسقراط بأمر لا مجال للريب فيه ، وذلك أنه نجح فى تغيير وجهة الفلسفة ، فقد كانت قديما على نحو ما علمت تبحث فى أمر العالم المادى ، ونشأة الكائنات عن هذا الأصل ، ولكنه حول مجرى البحث الى الإنسان وما اشتمل عليه من القوى الظاهرة والباطنة التى تتصرف فى شئون الحياة ، وتسلك به المسالك المختلفة . وأنت جدّ عليم بأن السفسطائيين كانوا قد ذهبوا فى تعاليمهم الى انكار حقائق الأشياء

وادعوا أن الإنسان مقياس كل شىء ، ودعوا الناس إلى تحصيل المنفعة الشخصية ، والاستمتاع بكل ما يعده الشخص جميلا فى هذا الوجود ، ولقى مذهبهم اقبالا من الشبان ورواجا لدى الجماهير حتى دبت الفوضى فى كل ناحية من نواحى الحياة اليونانية ، وسارع الفساد إلى كثير من مظاهر الاجتماع .

لهذا لم يكن لسقراط بد من أن يوافق السفسطائيين فى الأساس الذى تقوم عليه تعاليمهم وهو « أن الإنسان مقياس كل شىء » ولكنه ذهب بعد هذا الى أن أول واجب على الإنسان أن يعرف نفسه مادام هو مقياس كل شىء وجعل قاعدة فلسفته الحكمة الآتية « اعرف نفسك بنفسك » ومن هنا كان البحث يدور حول النفس الإنسانية وقواها وكان أول ما خطر بالبال السؤال التالى : أليست للنفس فى جميع بنى الإنسان قوة قادرة على أن تتغلغل فى أعماق هذه المدركات الحسية ، وتكشف الحجب عن مهاياها العامة التى يتفق الناس فيها جميعا ؟ وقد اهتدى سقراط إلى أن هناك فرقا بين الإحساس والفكر ، فالإحساس بالأشياء المدركة أمر شخصى لا يتعدى الشخص إلى سواه ، أما الفكر

أو المعنى الكلى الذى يجمع الجواهر والصفات الذاتية دون الأعراض والمشخصات فأمر عام يشترك فى فهمه الناس جميعا ، وهذه المعانى الذهنية العامة هى حقائق الأشياء التى ينكرها السفسطائيون .

وللنفس قدرة فطرية على ادراك هذه الحقائق ، وقد يعوقها عن وظيفتها اشتغالها بتحصيل حاجات البدن ، أو خداع الحواس لها ؛ فان اتصالها بالبدن مفسد لها ، عائق عن كمالها ، والشرور والآثام وضروب الخطأ ، انما تصدر عنها لاقترانها به ، وان شئت استشهادا على ذلك فاليك ما دونه أفلاطون من الحوار الذى جرى بين سقراط وتلميذه سمياس :

سقراط : وما رأيك يا سمياس فيما يأتى ؟ هل تعتقد أن هناك شيئا اسمه العدل المطلق والجمال المطلق والخير المطلق ؟

سمياس : نعم إن لهذه الأشياء وجودا .

سقراط : هل رأيت واحداً منها بعينك ؟

سمياس : كلا .

سقراط : هل تفهمها باحدى الحواس ؟ وهل ندرك المعانى الذهنية ونتأملها بجسومنا ؟ أليس من الضرورى أن نغض الطرف

عن حاجات البدن وقت التفكير ؟ ألست تعتقد أن المعانى الذهنية وحقائق الأشياء انما تتجلى للإنسان اذا تجرد عن عالم الحس والمشاهدة واعتمد على العقل الخالص ؟

سمياس : لقد وفقت إلى الصواب فيما تقول

سقراط : إن هذا يتحتم على الفلاسفة الذين ينشدون الحكمة أن يفكروا فى السبيل الذى يوصلهم إلى غايتهم مسترشدين بهدى العقل المحض ، وليس فى استطاعتنا أن نصل إلى الغاية مادامت الأجساد مقترنة بالنفوس ؛ فإن تحصيل حاجات الجسم يستغرق الوقت كله ، ويعوقنا عن التفكير ، ومتابعة البحث وراء الحقيقة ، والآفات والعلل تعترينا بسببه . هذا إلى أنواع من البلاء والمحن تدفعنا إليها الشهوات والمطالب المادية وإذا كان لنا أن نحصل العلم ، وندرك الحقائق فان ذلك لا يكون إلا إذا تجردت النفس عن جميع المشاغل الدنيوية ، وتحصيل حاجات البدن »

وقد قضى سقراط شطراً من حياته باحثا فى الطبائع البشرية وفى الأفكار ومبلغ مالها من قوة تدفع الإنسان الى العمل ، وكان غرضه من ذلك كله أن يضع أساسا عقليا لعلم الأخلاق ، وأن

يصرف الناس عن العادات الموروثة، والتقاليد البالية. وقد ذهب إلى أن الفضيلة والعلم أمران متلازمان وإن شئت فقل هما شيء واحد. أليست الفضيلة معرفة الخير الأسمى؟ فالتقى فى نظره هو الذى يعرف الواجب عليه نحو الله والإنسان، والشجاع هو الذى يعرف كيف يتصرف مع الحزم وقت الخطر، وإذا كان العلم أساس الفضيلة فهو وسيلة السعادة، أما الثراء فلا يوصل إليها؛ لأنه لا يساعد الإنسان على التمييز بين الخير والشر، ولا يدفعه إلى العمل الطيب ومجانبة الخبيث.

مما تقدم يتبين أن العلم لا يقصد لذاته، ولكنه يطلب لهداية الناس فى سلوكهم، وإرشادهم إلى مواطن الخير. ولعلك إذا تأملت ما ذهب إليه سقراط من أن العلم والفضيلة شيء واحد، أدركت أنه بالغ فى دعواه فكثيراً ما يكون الإنسان عليما بمسالك الخير، ومع هذا يعدل عنها، وينصرف إلى غيرها، وقد يكون العلم سبباً فيما يصيب الناس من البلاء والمحن، والواقع أن سقراط لا يسمى هذا علماً صحيحاً، فإن للعلم الصحيح قوة دافعة وفيه حياة ونشاط يسوقانك إلى العمل الصالح.

وكذلك تناول سقراط البحث فيما وراء الطبيعة ، وذهب إلى خلود النفس ، وأنكر على الأثينيين تلك العقائد الساذجة التي امتلأت بها أدمغتهم ، ورأى أن الأدلة على وجود الإله لا يحصيها العد ، وهو فى نظره إله خير لا يدركه العقل ، ولا يحيط به الوصف ولا يصدر عنه إلا كل صلاح ، ولا يشبه الحوادث فى قول أو فعل ، يقول العالم تشيرتش فى مقدمة كتابه ما معناه (ان إله سقراط خير محض ، تفيض عنه جميع الأفعال الطيبة ، وهو واحد لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يخدع أحداً ، وهو صادق فى قوله وفعله ، عليم بكل شيء ، يبعد الأذى عن الصالحين من الناس ، وتتجلى إرادته لهم فى أحلامهم ، أو فى الوحى يجريه على لسان كاهنة دلفى ، وشرعته مقدسة ، والواجب على كل إنسان أن يطيع أوامره مهما كان فى ذلك من مشقه »

بقى علينا أن نقول كلمة فى طريقة سقراط التى اتبعها فى جدله مع الأثينيين ، والذى أراه أن طريقته تشمل مرحلتين : فالأولى يراد منها إظهار جهل الخصم وغروره ، وادعائه العلم ، وقبوله لما يلقى عليه من غير أن يحتكم إلى المنطق والذوق السليم ؛ فقد قضى

سقراط حياته يجوب أنحاء آثينا ، ويتسمع أحاديث الناس ومحاوراتهم في المجامع العامة ، ويتظاهر بالجهل ، ويبدى رغبة أكيدة في التعلم ، فيوجه إلى المتكلم سؤالا يطلب منه المزيد من العلم ، وإيضاح المشكل من الكلام ، وتتوالى الأسئلة والأجوبة حتى يتردى المتكلم ، ويقع في حيرة لامخلص منها ، ويبدو التناقض في عباراته وينفر أولها من آخرها ، فيأخذه الغضب ، ويعتبر سقراط ثقيل الظل ، أشأم الطلعة ، ولكن شيخ الفلاسفة كان يقابل كل كلام من هذا النوع بالصبر الجميل ، ويقود صاحبه إلى صميم الموضوع الذى يدور الجدل حوله ، ولا يزال آخذا بزمامه ، حتى يتملكه الخجل ، ويشعر أنه تعرض لشيء لامجال له فيه ، ويوقن بأنه جاهل مغرور ، وتشتد رغبته في طلب العلم ، وحينئذ تبدأ المرحلة الثانية التي يقصد منها البحث من جديد في الموضوع ، ومعرفة الأمثلة التي تندرج فيه ، وتمييزها عن غيرها ، وملاحظة مابينها من ضروب الشبه ووجوه الخلاف ، والوصول إلى تعريف منطقي جامع للذاتيات دون سواها ، أو إلى القضية المنطقية التي لا يجد الشك اليها سبيلا .

أفلاطون

٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م

ولد هذا الفيلسوف فى أثينا على مارواه بعض المؤرخين ويرجع نسبه من جهة أبيه « أريستون » إلى « قودرس » آخر ملوك أثينا ومن جهة أمه إلى « سولون » الشارع اليونانى العظيم فهو شريف النسب ، كريم المحتد ، عالى النفس ، يحتقر الجماهير ، ويبغض الصناع ورجال المهن المختلفة ، ويميل إلى طبقة النبلاء.

تعلم الموسيقى بمعناها المعروف عند اليونان، والألعاب الرياضية من أشهر المعلمين فى ذلك العصر ، وعالج قول الشعر مدة ، ثم انصرف عنه ، ومال إلى الفلسفة ، واتصل بأستاذه سقراط اتصالا وثيقا ، ولازمه نحو ثمانية أعوام كان فيها من المقربين لديه ، فسمع مناقشاته ، ودوّن كثيراً من آرائه وأخذ الحكمة عنه ، ولما مات سقراط على النحو الذى قصصنا عليك من قبل ، آثر تلميذه المخلص أن يرحل عن أثينا ، فذهب إلى ميغارى ، وكان بها نفر من تلاميذ سقراط ، ثم زار مصر وايطاليا وصقلية ، واتصل بحاكمها المستبد « ديونيسيس » فأصابه من ظلمه شرر ، حتى قيل إنه باعه بثمن بخس.

أكب أفلاطون على دراسة المذاهب الفلسفية الشائعة فى زمنه، وشملت دراسته بعض مذاهب الفلسفة الشرقية كالهندية والفارسية كما سيتضح ذلك فى آرائه بعد.

غاب أفلاطون عن أثينا نحو اثنتى عشرة سنة ثم رجع اليها وكان قد نيف على الأربعين فافتتح مدرسته «أقاديميا» وأقام يعلم الناس فيها على طريقة أستاذه لا يطلب من أحد أجرا، واصطفى من بين تلاميذه ثمانية وعشرين كان يذهب بهم فى بعض الأحيان إلى منزله ومن بين هؤلاء ارسطو.

الآن وقد أجملنا لك حياة أفلاطون، لم يبق علينا إلا أنه نقول كلمة فى العصر الذى عاش فيه، حتى تتبين العوامل الاجتماعية والأحداث العظيمة التى كان لها دخل فى حياته وفلسفته.

نشبت الحرب «البلوبونيسية» قبل أن يولد هذا الفيلسوف بنحو أربعة أعوام، ودارت رحاها بين أثينا واسبرطه، ثم امتد لهيبها حتى شملت بلاد اليونان جميعها واستمرت زمنا طويلا يقرب من ربع قرن، وصحبها ما يصحب الحروب العامة، من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتخريب الأبنية، وتبديد الثروة وتغيير

أنظمة الحكم ، وكان من جرائها أن فقدت أثينا تلك المنزلة السامية التي كانت لها بين الولايات اليونانية .

شب أفلاطون في هذا العصر ، وجرّب ويلات الحرب ، وشاهد كثيرا من النزعات السياسية ، وعرف ما يقاسي الناس من أنواع الحكومة ، ولم يفته أن ينتفع بهذه التجارب ، ويسوقها للإيضاح في كتبه ، ولو أنك تأملت كتابه (الجمهورية) لتبين لك أن الأمثلة الكثيرة التي يؤيد بها دعواه مستمدة من تجاربه المتعددة النواحي .

لقد كان مجال السياسة أمام أفلاطون فسيحاً فهو من سلالة الملوك ومن عظماء الرجال ، وأقاربه من أعضاء المجلس الذي تولى شئون الحكم في أثينا ، ولكنه أبى أن يلج باب السياسة ، وآثر أن يعيش للعلم ، وأن يخدم بلاده من طريق آخر ، وكيف يشترك رجل مثله في الحكم ؟ والحكام يظلمون الناس ، ويسوقون غيرهم إلى الظلم ، وهو جالب لخراب العمران ، وقد حدثته نفسه أن يخرج عن عزلته ، ويقوم بنصيبه في إدارة شئون بلاده ، وكان ذلك أيام عودة النظام الديمقراطي إليها ، ولكن اليأس ملأ قلبه

فرجع عن عزمه، لأن الديمقراطيين ارتكبوا كثيراً من المساوئ، وكان أشد معايبهم فى نظره حكمهم بالموت على سقراط، ولهذا انتهى به الأمر إلى كراهة الاستقراطية، ومقت الديمقراطية. وفراراً من هذه وتلك لجأ إلى معهده، وانقطع للتعليم مدة أربعين عاماً، كان فى أثنائها بعيداً عن الأمور العملية، ومشاغل السياسة، مستغرقاً فى تأملاته ونظرياته الفلسفية، ولعل هـذا هو الذى جعل فلسفته منقطعة الصلة بالحياة وضاربة إلى الجانب الخيالى، على العكس من فلسفة سقراط ابن الشعب وربيبه « ولما استكمل إحدى وثمانين سنة من عمره مات ودفن بالبساتين فى أقاديميا وتبع جنازته كل من كان بأثينس. والذى خلفه من التركة البساتين المذكورة، وخلف مملوكين، وقدحاً وجاماً، وقرطا من ذهب كان يلبسه وهو غلام، وهو لباس أشراف اليونان فى ذلك الزمان. ولما قبر كتب على قبره بالرومى ما تفسيره بالعربى « ههنا موضع رجل وهو أرستوقليس الألهى، وقد تقدم الناس وعلاهم بالعفة والعدل، فمن كان يمدح الحكمة أكثر من سائر الأشياء فليمدح هذا؛ لأن فيه أكثر الحكمة وليس فى ذلك شك ». هذا من الجهة

الواحدة فى القبر ومن الجهة الأخرى « أما الأرض فإنها تغطى جسد أفلاطون هذا ، وأما نفسه فإنها فى مرتبة من لم يمت »

هذا ماذكره القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ فى كتابه « أخبار العلماء بأخبار الحكماء »

فلسفة أفلاطون

من الصعب أن نجمل لك فلسفته فى بضع صفحات ، فقد كتب كثيراً وتناول ببحثه كل شىء . وتلخيص آرائه يقتضى الإحاطة بما كتبه والبحث فيه من نواح متعددة وذلك مالا يتهيأ لنا فى الحالة الحاضرة، على أن هناك عقبة أخرى لا نستطيع التغلب عليها، فانا لا ندرى حين يكتب أفلاطون أيعبر عن رأيه الخاص أم يدوّن رأى السابقين من الفلاسفة أمثال سقراط وفيثاغورس .

وقد آثر أفلاطون أن يتبع طريقة أستاذه، وأن يتم العمل الذى بدأه، ولذلك نجده يبدأ كتاب الجمهورية بفصل ممتع يبحث فى حقيقة العدل على طريقة سقراطية ، ويرى أن الناس أخطأوا فهمه ومدحوا الظلم لفوائده التى تترتب عليه ، ويرشدهم إلى أن للنفس

الإنسانية وظيفة، كما أن للعين عملا، وليس فى ميسور النفس أن تؤدى وظيفتها إلا إذا كانت عادلة.

يرى أفلاطون أن المجتمع الكامل يتكون من ثلاث طبقات: —

١ — طبقة المنتجين، وتشمل الزراع والصناع، ووظيفتها تحصيل الغذاء ومون الجماعة.

٢ — طبقة الجند، وعملها حفظ كيان المجتمع ودفع الغارات عنه.

٣ — طبقة، الحكماء ولها الزعامة الفكرية، وولاية الحكم، وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه، وحينذاك يسود العدل وتتحقق السعادة، هذا هو العدل فى المجتمع.

أما فى الفرد فهو ائتلاف قوى النفس وتعاونها وقيام كل قوة بعملها.

وللنفس قوى ثلاث قياساً على المجتمع: —

أولاها — القوة الشهوانية: وعملها تحصيل حاجات الجسم من طعام وشراب ومركزها البطن وفضيلتها العفة.

وثانيتها — القوة الغضبية: ووظيفتها الدفاع عن الجسم وحفظه

من الأذى، ومقرها القلب، وعدتها الشجاعة والصبر.

وثالثها — القوة المفكرة: وموطنها الرأس، وهى التى تستجلى الحقائق وتدبر شئون الإنسان وفضيلتها الحزم والحكمة.

والناس ثلاثة أصناف: صنف تغطى عليه القوة الشهوانية، فيقضى حياته فى تحصيل المال وما يتبعه من اللذات، وصنف تسوقه القوة الغضبية إلى محبة الخصومة واستكمال أسباب الشهرة وبعد الصيت، وصنف تدفعه القوة المفكرة إلى استجلاء الحقائق. ولكل من هؤلاء نوع من السرور يستمتع به: فجامع المال يرى فى انقطاعه إلى عمله سروراً لا حدّ له، ومحب الشهرة يرى أن المال عرض زائل، وأن العلم تعب فى غير طائل إلا إذا كان من ورائه شهرة واسعة، وطالب العلم يحتقر المال والشهرة معاً، ويجد السعادة فى الوقوف على أسرار الله فى خلقه.

وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لنا أن نتبين الرشد من الغى، ونهتدى إلى مكامن السعادة؟ إن صحة الحكم تتوقف على سعة التجارب، ورقى المدارك والحكمة: فطالب العلم هو الذى يستطيع أن يقضى فى هذا الموضوع بالعدل فقد تملك الأشياء، وجمع المال

وهو صغير ، وجرب احترام الناس له ، وأفاده علمه الحكمة ، وعلى ذلك أحسن أنواع السرور ، مما ينبعث فى النفس ، ويملأ جوانبها إذا وجدت لذة العلم ، وحياة العالم مليئة بالسرور الذى لا يعقبه ألم ، أما الذين لا يعرفون للحكمة طعما ، ولا يذوقون للفضيلة حلاوة ، ويقضون حياتهم فى الاستكثار من ألوان الطعام والشراب وصنوف اللذائذ ، فإنهم كالأنعام يملئون بطونهم ، ويتناسلون ، ويشعرون بقوة فى جسومهم ، فيعتدى بعضهم على بعض ، ويقتتلون حتى لا تبقى منهم باقية .

وهو يرى أن السعادة — وهى الخير الأسمى والغاية من الحياة الإنسانية — لن تكمل أسبابها إلا إذا سادت القوة الفكرية وسيطرت على أختيها ، فملك الإنسان زمام شهوته وكبح جماح غضبه ، وقامت كل قوة بعملها ، وأدت وظيفتها ، وحل الائتلاف ، وساد التعاون بين أجزاء النفس فكانت بذلك عادلة كاملة تتصرف فى جميع الشئون على مقتضى الحكمة والشرف . هذه هى الغاية الخلقية ، وذلك رأى أفلاطون فى حقيقة العدل ، وماهية السعادة ، وسبيل الحصول عليها .

أما مذهبه فى نظرية المعرفة فخلاصته أن العلم ليس هو الإدراك الحسى وإلا لما اختلف باختلاف المدركين على أنه إذا كان الإدراك الحسى علما صحيحاً وكان الإنسان مقياس كل شىء فإنه يجب أن يشارك أنواعُ الحيوان الإنسان فى صحة وصفها بأنها مقياس كل شىء لأنها تدرك إدراكا حسياً.

وكان يرى أن عالم الطبيعة ينقسم إلى العالم العلوى وعالم الجماد ويشمل العناصر الأربعة، وعالم الأحياء ويشمل النبات وله نفس غاذية، والحيوان وله نفس غاذية ونفس حساسة، والإنسان وله نفس غاذية ونفس حاسة ونفس ناطقة.

وكان يعتقد أن نفس الإنسان مؤلفة من قسمين: قسم مدرك وهو النفس العاقلة المتصلة بالخالق، وهي خالدة مثله ويتصل إليها علمه، وقسم غير مدرك وهو النفس غير العاقلة، وتتصل بالعالم المادى وبها يشعر الإنسان بلوازم حياته، وهى فانية؛ والنفسان مرتبطتان معاً بحلقة يسميها الروح.

وكان أفلاطون يدين بقدم الله، ويعتقد بوجود الله واحد سماه الخير المطلق، أو مثال المثل، وكان يذهب إلى قدم المادة وقدم الأفكار

أو المثل، ويرى أن المادة كان لها خاصية الحركة قبل تكوّن هذا الكون ولكن حركتها كانت مضطربة لا حد لها ولا نظام، فلما أراد الله خلق الكون لم يوجد شيئاً من العدم. ولكنه سبحانه وتعالى جعل للمادة القديمة ولحركتها المضطربة حدًّا ونظاما. فألف منهما الأجسام وعين حركاتها، وفى اعتقاده أن الله فعل ذلك طبقاً لتصور سابق فى علمه، فكانت المادة كتلة واحدة، خالية من الصور، فخلق الله منها جميع الكائنات، غير أنه لم يبتدع أشكالها ولم يصورها على غير مثال سبق، فقد تعلق علمه بالمثل أولا، ثم صور المادة على مقتضاها مع خلاف قليل أو كثير فى الأمور العرضية دون الجوهرية: فلكل شىء فى عالم الحس نظير فى عالم العقل سابق فى الوجود، وهو الفكرة أو المثال أو المعنى الكلى الذى صورت الجزئيات على مثاله. وإلى هذا يشير الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل بقوله «والعالم عالمان: عالم العقل وفيه المثل والصور الروحانية. وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجثمانية كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات، فإن الصور فيها مثل الأشخاص كذلك العنصر فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم تتمثل فيه جميع الصور غير

أن الفرق أن المنطبع فى المرآة الحسية صورة خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك فإن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية ، وهى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك، فنسبة الأشخاص إليها نسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص، فلها الوجود الدائم، ولها الثبات القائم »

وهذه الصور الروحانية هي حقائق الأشياء التى أنكرها السوفسطائيون وهى موجودة فى النفس بالفعل، وقد وصلت إليها إبّان مقامها فى عالم العقل المحض ، أو فى أثناء تناسخها وانتقالها من كائن الى آخر ، فهى إذن ذكريات تجاربها فى العصور الغابرة. أما تعلق الحواس بعالم المحسوسات فلا يراد منه الوصول الى الحقائق وتكوينها بعد أن لم تكن، وإنما يقصد منه استجلاء الأفكار التى احتجبت عن النفس عند ما فارقت عالمها الحقيقى وهبطت إلى عالم الجسم واتصلت به، وكلما أمعنت النفس فى هذه الحياة العملية وما تستتبعه من الخضوع لحاجات الجسم اشتد نسيانها للحقائق وتراكم عليها الصدأ، وعمل البحث الفلسفى هو إزالة هذا الصدأ وتذكير النفس بما كانت تعلم من قبل : فالنسيان إذن لم يجئ للنفس

إلا عن طريق المادة ، وهى سبب ما يصيب الإنسان فى حياته من شقاء ، وما يرتكبه من جرم

مؤلفات أفلاطون

لم يترك أفلاطون تدوين آرائه كما فعل سقراط ولكنه ترك مؤلفات كثيرة كتبها على شكل محاورات بعضها يتضمن تعاليم سقراط، وبعضها يعبر عن آرائه الخاصة، ويرى بعض العلماء أن أكثر الكتب التى تنسب إليه ليست له، ومع ذلك قد اتفقوا على أنه كتب كتباً كثيرة فى موضوعات مختلفة كالعلم واللغة والوجود والمُثل والطبيعة وخلود النفس والأخلاق والسياسة. ومعظم كتبه كانت تسمى بأسماء الأشخاص الذين لهم فى الحوار منزلة خاصة فمنها كتابه فيدون وبروتاجوراس وجورجياس وغيرها من الكتب التى كانت تسمى بأسماء الأشخاص ، وقليل من كتبه كان يسمى بأسماء الموضوعات كالجمهورية والقوانين .

الجمهورية

أنفس كتاب وضعه أفلاطون وصف فيه المدنية الفاضلة، وهو فى قالب محاورى مزج فيه الشعر بالفلسفة والعلم والدين وقد كتبه

لقراء عصره؛ ولذلك كان يكثر فى الأخذ والرد وإعادة البراهين لتمكينها فى نفوس السامعين فى ذلك العصر، كما أنها اشتملت على كثير من المجازات التى لم تألفها عقول العصر الحاضر؛ لذلك كان من المتعذر علينا إدراك كثير منها لبعد ما بين حياتنا وحياتهم.

والجمهورية من أهم الكنوز الثمينة التى خلفها أفلاطون: فقد تناولت فلسفته الطبيعية والخلقية والسياسية ولاهوته ومذهبه فى الفن، كما أنها احتوت كثيراً من المسائل التى نحسبها من مبتكرات هذا العصر كالشيوعية والاشتراكية وتحرير النساء وتحديد النسل والتعليم الحر وغير ذلك، وتشتمل على كتب عشرة تبحث فى ماهية العدل وأركان الدولة وتعليم طبقة الحكام ووجوب تقليد الحكم للفلاسفة والصور التى تتخذها الحكومة فى انحطاطها، كما تبحث فى خلودِ النفس وجزاء الفضيلة ووصف يوم الدينونة.

وفضل الجمهورية عظيم فقد احتوت كثيراً من المبادىء الخلقية الرشيدة التى إن سار عليها الناس نجحوا فى حياتهم نجاحاً عظيما ونالوا قسطا وافراً من السعادة.

ولقد قال بعض العلماء منوها بفضل الجمهورية «أفلاطون

هو الفلسفة، والفلسفة هى أفلاطون أحرقوا المكاتب كلها فكلها فى جمهوريته » .

وقد ترجمت مؤلفاته إلى أكثر لغات أوروبا القديمة والحديثة، وترجمت الجمهورية إلى اللغة العربية .

ارسطو

٣٨٤ — ٣٢٣ ق م

ولد فى مستعمرة يونانية بالقرب من مقدونيا يقال لها استاجيرا ونشأ فى مقدونيا فقد كان والده (نيقوماخيس) طبيباً لملكها جد الإسكندر واتصل برجال البلاط الملكى وعاش عيشة الأشراف مدة تأثر فيها بأساليبهم فى الحياة، واكتسب كثيراً من عاداتهم وفقد والديه وهو صغير، فمال إلى الترف وآثر حياة النعيم وأسرف فى مال أبيه حتى أتى عليه إلا قليلا، ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره رحل إلى أثينا وكانت مستقر العلماء والفلاسفة فى ذلك الوقت، فتلقى البيان والفلسفة على كبار الأساتذة، ثم تعرف بأفلاطون وحسنت صلته به ولزمه مدة مقامه بهذه المدينة، وشغف به أستاذه لما رأى آيات الذكاء وأمارات النبوغ بادية فيه فقربه من مجلسه

وآثره على جميع تلاميذه وسماه العقل الأول ، وقد اعتمد عليه الطلبة فكانوا يرجعون إليه عند اختلافهم، وفى كل ما أشكل عليهم فهمه مع ما كان عليه من مخالفته أستاذه فى بعض آرائه . وقد أنابه عنه فى التعليم بالمدرسة لما توجه إلى صقلية فى المرة الثانية .

ولما مات أفلاطون ترك تلميذه المخلص أثينا ومال إلى الرحلة فى البلاد المختلفة وشاع ذكره فى الآفاق فاستدعاه فليب ملك مقدونيا ليتولى تربية ابنه الإسكندر فلبى دعوته وقام بمهمته خير قيام وكان عمره إذذاك اثنتين وأربعين سنة وعمر الإسكندر خمس عشرة سنة وقد علمه مدة ثلاث سنوات .

ثم تولى الإسكندر بعد أبيه واتسعت آماله وأشعل نار الحرب فى كل مكان وشغل بشئون الدولة ولاسيما قيادة جيشه عن أستاذه الحكيم ؛ فلم يجد أرسطو بداً من الرجوع إلى أثينا وهناك أنشأ مدرسته المشهورة فى التاريخ باسم (اللوكايون) أو (الليسيوم) لبنائها فى مكان يسمى ليسى وانقطع لتعليم العلم فيها ، وكان من عاداته أن يلقى الدروس على تلاميذه وهو يغدو ويروح ؛ ولذلك سمى مشاء وسمى اتباعه بالمشائين، وقد أقام يعلم فيها نحو ثلاث عشرة سنة

وقد استمرت الصلة بينه وبين تلميذه الملك، وتتابعت الرسائل والهدايا من جهة، والنصح والتدبير من الجهة الثانية، ويقال أن الإسكندر لما غزا مملكة فارس أرسل إليه كل ما اكتشفه من النبات والحيوان مما لم يكن معروفاً فى بلاد اليونان؛ ليفحصه فحصاً علمياً

ولم تدم المودة بينهما فقد أبلتها حوادث الدهر. وبقى أرسطو يعلم الناس البلاغة والحكمة. وقد عظم أمره وذاع فضله بين اليونانيين إلى أن جاء خبر وفاة الإسكندر فوجد حاسدوه طريقاً إلى إيذائه، فأكثروا فيه القول وكفروه كما كفروا سقراط؛ فخشى على نفسه أن يبطشوا به كما بطشوا بسقراط، فهاجر من أثينا إلى استاجيرا ومات هناك وعمره ٦٢ سنة تقريباً فقبروه بها وبنوا له هيكلا واتخذوه مزاراً كما هى عادتهم فى عظمائهم.

فلسفته

رأى أرسطو أن الإنسان مكوّن من عنصرين: الجسم والنفس، وفى الجسم قابلية للحياة ولكنه لا يحيى بالفعل إلا إذا حلت فيه النفس فحركته ودفعته إلى قضاء مآربها، وللنفس ثلاث مراتب أولاها النفس الغاذية ويشترك فيها الحيوان والنبات،

ووظيفتها تحصيل المأكل والمشرب والمحافظة على بقاء النوع بالنمو والتناسل، ثانيتهما النفس الحساسة، وبها يكون الإحساس والشعور، وهى خاصة بالحيوان دون النبات، وثالثتها النفس الناطقة. وبها يكون العلم وإدراك حقائق الأشياء، ولا تكون إلا للإنسان. ومن البين أن الإنسان يجمع بين هذه المراتب الثلاث: فهو آكل شارب محس مفكر ذو بصيرة ناقدة نافذة.

وقد ذهب إلى أن الغاية من الحياة هى السعادة، وتتكون من عنصرين: علم الخير وعمل الخير؛ ومن ثم خالف من سبقه. ففرق بين العلم والفضيلة ورأى أنه ليس من الضرورى أن يتبع العلم العمل، فقد يكون الإنسان ضعيف الإرادة يرى وجوه الصواب وطرق الخير، ولكنه لا يسلكها. ومن الواضح أن فضائل الإنسان لا ترتبط بما قد يصيبه من لذة أو ألم، وإنما سعادته فى وصول الصفات الإنسانية إلى منتهى ما أعد لها من كمال يقول فى كتاب الأخلاق ما ملخصه: —

لا ريب فى أن السعادة هى الخير الأسمى ولكنا نريد أن نعرف ما هو ونتبين مميزاته. وأحسن سبيل لذلك أن نبحث عن

وظيفة الإنسان فى الحياة. أن للعازف على المزهر عملا محدوداً ، ووظيفته معينة ، وخيره أو فضله إنما يظهر فى قيامه بعمله ومبلغ اتقانه له،ومثله رجال الصناعات المختلفة،ولا ينكر أحد أن للإنسان وظيفة معينة وإذا كان الأمر كذلك فما هى ؟ أهى مجرد الحياة التى يشاركه فيها النبات أم الإحساس الذى يشترك معه فيه الحيوان على اختلاف أنواعه ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما عمله الذى يختص به ويرفعه عن بقية الكائنات هو الفكر أو القوة الناطقة ؛ ولهذا وجب أن تكون أعماله جارية على مقتضى العقل والحكمة سالكة سبيل الفضيلة.

وقد بحث أرسطو فى نظرية المعرفة واهتدى إلى أن الحقائق ليست موجودة بالفعل فى العقل حين يولد المرء فليست قديمة وصلت إلى النفس أيام مقامها فى العالم الروحى ، ولا ذكريات الماضى ، ولا وليدة التجارب التى مرت بها فى أثناء تناسخها ؛ وإنما هى موجودة بالقوة فى دائرة العقل ، ومعنى ذلك أن فى العقل استعداداً فطرياً للبحث وتعرف خواص الأشياء فهو لا يزال يستقرئ أفرادها حتى يدرك صفات كل منها ، ثم ينتقل الى

الموازنة فيهتدى الى أن من بين هذه الصفات صفات مشتركة لازمة لنوع من الكائنات وأخرى عرضية توجد فى بعض الأفراد دون بعضها ؛ فيستنبط الصفات الذاتية المشتركة ويجمعها معاً ، ويضع لهذا المعنى الذهنى الذى اهتدى اليه كلمة بأزائه . هذا رأى أرسطو فى طريق العلم بحقائق الأشياء ، ومنه نتبين الصلة بين المحسات والمعقولات : فالأفكار لا توجد مستقلة عن عالم الحس ، وإنما وجودها مستمد من الأشياء الخارجية التى تعلق بها العقل عن طريق الحواس .

ذرس أرسطو آراء من سبقه من فلاسفة العصر الأول وأخذ عليهم قصورهم فى البحث عن أصل هذا العالم : فقد توجهوا نحو المادة وأدركوا أن العالم نشأ عنها ، وفاتهم أن كل شىء فى الكون يتوقف وجوده على أربعة أصول : (١) المادة التى خلق منها أى العلة المادية (٢) وسيلة الخلق والتصوير أى العلة الفاعلة (٣) الصورة والشكل الذي انتهى إليه أى العلة الصورية (٤) الغاية من خلقه وتصويره أى العلة الغائية . وإذا كانت الفلسفة تبحث عن الوجود وما اشتمل عليه ، فإن الواجب أن تشمل أبحاثُ الفلاسفة مادةَ

الأشياء وصورها والغايةَ من وجودها والقدرةَ التى أبدعتها على ما هى عليه، وهذه هى أقسام العلة ومن السهل إدراكها فى أى كائن مادى من عمل الخالق تعالى ، غير أن آراء الفلاسفة تختلف فى تعيين العلة الفاعلة والعلة الغائية .

آثار أرسطو

يعدأرسطو بحق أول رجال العلم الذين وضعوا أصوله ورتبوا أبوابه وأرشدوا الناس إلى طريق البحث المنطقى المنظم : فلم يترك فناً إلا تكلم فيه ، ولا مذهباً من مذاهب الفلسفة والأخلاق إلا أبدى فيه رأيه ، ولانظاماً اجتماعياً إلا تناوله بالنقد ، وهوأول من اهتدى إلى القوانين الفكرية التى يسير العقل البشرى على مقتضاها حين الاستدلال والاستنباط .

وتعتبر مؤلفات أرسطو دائرة معارف تتناول جميع العلوم البشرية التى كانت معروفة فى عصره فوضع لكل علم كتاباً خاصاً تقريباً وتنقسم مؤلفاته ثلاثة أقسام :

(١) العلوم العلمية أو النظرية : ومؤلفاته فيها كتاب السماء والأجرام السماوية وكتاب الطبيعة والنبات وتاريخ الحيوان

وكتاب النفس ويلحق به نبذ فى الأجناس والذاكرة والنوم والحياة والموت الخ، ثم كتاب الفلسفة الأولى وما وراء المادة (٢) العلوم العملية أو الأدبية (الأخلاقية): وله فيها كتاب الأخلاق وكتاب التدبير المنزلى والسياسة المدنية وغيرها (٣) العلوم العقلية والشعرية: ومؤلفاته فيها الشعر والخطابة، وكتاب المنطق ويتضمن المقولات والقياس والبرهان والجدل والسفسطة والخطابة وغيرها.

« ويقسم أرسطو نفسه مؤلفاته إلى كتب مذهبية وهى التى وضعها للطلبة ولا يتعاطاها إلا من سبق لهم الاستعداد لدرسها وإلى مؤلفات للكافة: أما هذا القسم الثانى فقد نشر فى حياة المؤلف، وأما مؤلفات القسم الأول فالظاهر أنه لم ينشر منها شىء فى حياته بل بقيت فى المدرسة وفى أيدى الطلبة بالضرورة. وقد ذهب بعض من نقد أرسطو إلى أنه كان يتعمد الغموض فى مؤلفاته المذهبية . . . ولكن هذا الغموض يرجع سببه إلى أن أرسطو لم يكن أعد مؤلفاته للنشر بعدُ فلم يعن بإصلاحها لهذه الغاية فكان يترك أثناء الكلام إحدى مقدمات القياس باعتبار أنها معلومة،

وبخاصة عند تلاميذه . أضف إلى هذا أن هذه الكتب لم تصل إلى من اتهموا أرسطو بالغموض إلا بعد أن أصابها البلى ، وأصلحها غير العالمين بها »[1] .

ولكثرة ما ألفه أرسطو فى العلوم المختلفة سمى المعلم الأول وقد بقيت آثاره خالدة وتناولها الناس بالدرس والشرح وعدوه حجة فى كل شىء وكان لكتبه منزلة لا نظير لها : فكانت منهج الدراسة فى العصور الوسطى ، غير أن تأثير أرسطو لم يكن ظاهراً فى بلاد اليونان لاشتغال تلاميذه عن البحث ودراسة النظريات بالكتابة فى الموضوعات المتفرقة التى لا قيمة لها . وقد نقلت كتبه إلى آسيا الصغرى وقبرت هناك قرنين كاملين ، ثم ذهبت إلى مكتبة الإسكندرية بعد أن أصابها البلى وأفسدت الرطوبة والأرضة شيئاً منها أصلحه بعضهم ، وكان جماعا للكتب لا فيلسوفا فأساء إصلاحها ، ومن الإسكندرية ذهبت إلى روما .

وقد ترجمت إلى اللغة العربية ، وانتشرت مذاهبه فى أنحاء البلاد الإسلامية ، حتى وصلت إلى اسبانيا ، ومن هناك وجدت طريقها من جديد إلى أوربا ، فأيقظت العقول وأثارت الهمم

(١) تصدير العلامة لطفى بك السيد لأخلاق أرسطو

ولا تزال لأرسطوا منزلة ممتازة بين الفلاسفة قديمهم وحديثهم

وقد عنى حضرة صاحب السعادة الأستاذ أحمد لطفى السيد بك مدير الجامعة المصرية ووزير المعارف سابقا بترجمة كتاب الأخلاق فارجع اليه ان شئت .

المذاهب التى أسست على مبادئ سقراط

فى هذا العصر

قد تتلمذ لسقراط غير أفلاطون وأرسطو عدد من الفلاسفة ، وقد اختلفوا فى فهم آرائه وتعيين الغاية من حياة الانسان ؛ لأنه لم يدون شيئا يمكن الرجوع إليه، ولم يحدد معنى الخير الذى عده غاية للفضيلة : فأسسوا على مبادئه مذاهب مختلفة من أشهرها ثلاثة :

(١) المذهب الميغارى أو الجدلى : وقد أسسه (أوقليدس) الذى ولد بمدينة ميغارى سنة ٤٤٠ ق م وهو غير (أوقليدس) الرياضى المشهور الذى عاش فى الاسكندرية . وقد درس على برمنيدز الإيليائى وسقراط ؛ ولذا كان مذهبه خليطا من السقراطية والإيليائية فكان يعتقد مع الإيليائيين بالواحد المطلق ، وأنه هو الموجود الحقيقى وأما ماعداه فهو وهم وخيال . أما الفضيلة التى عرفها سقراط بأنها

المعرفة ، ودعا اليها ، ففسرها أوقليدس بأنها معرفة ذلك الواحد الحقيقى — وهو الله أو الخير المطلق — بالتفكير فيه وفى ملكوته .

فتكون الفضيلة على هذا هى التفكير والبحث وطلب العلم لذاته والنظر فى ملكوت السموات والارض، وتكون الفضائل المختلفة أسماء متعددة للعلم بالله .

وبعد وفاة سقراط عاد إلى وطنه وأسس به مدرسته التى اشتهرت بكثرة الجدال والسفسطة وكان أوقليدس نفسه سوفسطائياً ماهراً .

Aristippe Cyrénaïque

(٢) المذهب القورينائى : ينسب الى (ارسطيبس) المولود فى قورينا وهى بلد قديم مكانه الآن برقة بأفريقية سنة ٤٠٠ ق . م وكان سوفسطائيا أخذ عن بروتاجوراس وسقراط .

Cyrène

ورأى أن الفضيلة غاية الحياة ولكنه فسرها تفسيراً أخرجها عن معناها الأصلى إذ كان سقراط يعتقد أن الفضيلة هى الطريق المؤدى إلى السعادة ، وأن السعادة باعث الفضيلة . وأن واجب الإنسان هو عمل الخير لذاته لا على أنه جالب للسعادة . وبالجملة كان سقراط فى هذه المسألة غامضاً ، فجاء أرسطيبس الذى كان

متأثراً بتعاليم السوفسطائيين من جهة ، وبرأى سقراط من جهة أخرى ، وذهب إلى أن غاية الفضيلة مصلحة الإنسان ولذته : فهى الغاية الوحيدة فى الحياة وليس هناك قانون أخلاقى خارج عن الإنسان نفسه ؛ فلا شىء يعد شراً مادام يشبع رغبة الإنسان فى السعادة واللذة ، ولا تظنن أن هذه الفلسفة تؤدى ضرورة عند تطبيقها إلى انحطاط المستوى الخلقى ؛ فإن ذلك يتوقف على نوع اللذة التى كان يقصدها : فإذا قصد بها اللذة المعنوية العقلية ، فلا مانع من أنها توصل إلى حياة صالحة ، وإن أراد اللذة الحسية ، فإن النتيجة لا يمكن أن تكون شريفة ، على أنه على كل حال لم ينس اللذة المعنوية ، ولكنه كان يرى أن الإحساس باللذة الجسمية أقوى دائما من الإحساس باللذة المعنوية ؛ ولذلك كان سعيه إليها أكثر من سعيه الى المعنوية ، فقال يجب أن يسعى الإنسان وراء اللذة على شرط أن يكون فى سعيه وراءها حكيما : فلا يفرط إفراطاً يؤدى إلى الألم ، والألم بمقتضى مذهبه يجب تجنبه ، فينبغى للعاقل أن يكون سيد نفسه لا عبد رغباته فيضبطها ويحكمها ويقتنص لذة وقتية تاركا لذة مستقبلة إلا إذا أدت اللذة الوقتية الى ألم ؛ فحينئذ يتركها منتظراً اللذة المستقبلة .

والمثل الأعلى للرجل العاقل عندهم هو المحنك الذى يسعى وراء لذته بحزم وحكمة وبصيرة تقدر العواقب ؛ فلا يميت شهواته بل ينيل نفسه كل ما تتمنى من اللذات التى لا تستتبع ألما .

وعلى الرغم من أنه اعتقد أن اللذة هى الغاية الوحيدة للحياة قد قدّر الصداقة والقرابة : فذهب إلى أنه يجب على العاقل أن يضحي بنفسه لصديقه أو لأسرته .

وبعد أن مكث أرسطيبس فى بلاد اليونان وصقلية زمناً عاد الى قورينا ، وأسس بها مدرسته التى نشر بها تعاليمه ، ثم خلفته عليها ابنته ، فبعض ذريتها ، حتى جاء بعضهم وهو (هِجِزْيَاسْ) فرأى أن آلام الحياة أكثر من لذاتها ، ودعا الناس إلى التخلص منها وحثهم على الانتحار وحقق قوله بالفعل فمات منتحراً ، ثم خلفه (أَنْتِيسِيرِسْ) الذى مهد الطريق للمذهب الأبيقورى .

(٣) المذهب الكلبي : أسسه (أَنْتِسْتِنِيسْ) الذى ولد فى أثينا سنة ٤٢٢ ق . م وقد أخذ عن جورجياس السوفسطائى ، وأعجب بسقراط لما رأى استقلاله فى الرأى واتباعه لما يعتقد فيه الصواب مهما كان مخالفا لآراء غيره ، واحتقاره للثروة ، وصبره على احتمال

آلام الحياة ، وامتلاكه لنفسه ، فصمم على الاقتداء به فى هذه الفضائل ، غير أنه أفرط فى ذلك كل الإفراط فرأى — كسقراط — أن الفضيلة هى المعرفة وأنها أعظم خير وأسمى غاية للانسان ، وفسرها بأنها احتقار كل شىء يتهافت الناس على اقتنائه ، وتحرير الإنسان من كل الميول التى تدعو إلى الكفاح والجهاد فى الحياة، وقتل الشهوات الشخصية ؛ وذلك لما رأى فى الحياة المدنية من انتشار الظلم وفساد الأخلاق والآلام المسببة عن طلب الثروة والجاه ، ووازن بين حال الإنسان مع كل هذه الأشياء المؤدية الى شقائه ، وبين حاله قبل وضع القوانين الظالمة وانتشار المدنية الكاذبة : فهو فيها صحيح البدن بعيد عن الآلام ، فدعا إلى وجوب الاكتفاء بما هو ضرورى والقناعة بالقليل والاستهانة بالموت وباحتقار الغنى والزهد فى اللذائذ ، وقصد الفضيلة لذاتها والبعد التام عن كل الممتلكات . وقد زهد هو وأتباعه فى اللذائذ كلها واحتقروا العلوم والفنون؛ لأن الفضيلة وحدها كافية للسعادة ولا تحتاج إلا إلى قوة الخلق السقراطية ، فهى أعمال لا أقوال . وقد عاشوا عيشة أبناء السبيل فلم يملكوا شيئاً ولم يحترموا العرف

ولا قوانين البلاد وانما كانوا يحترمون ما تمليه عليهم عقولهم وحكمتهم.
وقد رأوا أن الفضيلة وحدها هى الخير والرذيلة وحدها هى الشر ولا شىء غيرهما يوصف بخير ولا شر: فالثروة واللذة والحرية والراحة والحياة نفسها لا يوصف شىء منها بأنه خير، كما أن الفقر والشقاء والمرض والرق والتعب والموت لا يوصف شىء منها بأنه شر، فلا فرق بين أن يكون الإنسان حراً أو رقيقا، لأنه اذا اتبع الفضيلة كان حراً فى نفسه بل ملكا، وليس الانتحار عندهم رذيلة فيمكن كل إنسان أن ينتحر لا هرباً من الشقاء والآلام بل ليبرهن على أن الحياة عديمة القيمة.

وقد قسم الكلبيون الناس قسمين: الخيرين والشريرين ولا واسطة بينهما، لأن الفضيلة واحدة لا تتجزأ، ولا مراتب فيها فالإنسان إما متحل بها أو عاطل عنها وهو فى الحالة الأولى حكيم خيّر وفى الثانية جاهل شرير. وقد أسس مدرسته فى أحد الملاعب الرياضية بالقرب من هيكل هرقل حيث وقف كلب أبيض اختطف من الهيكل ضحية مقدمة لهرقل؛ ولهذا ونظرا لطرق معيشتهم التى سلف ذكرها، ومخالفتهم ما يألفه بنو الإنسان

سموا بالكلبيين . وقد خلفه فى مدرسته (ديوجنيس) (ديوجين) وكان يعيش فى أبسط الحالات يحمل على ظهره دنا ينام فيه ، وملعقة كان يشرب بها ثم رماها واكتفى بيديه ، ثم خلفه (كراتيس) وكان من أهل أثينا ذاع صيته ، وقد باع كل ما يملك ، وفرق ثمنه على أهل وطنه ، واكتفى منه بالقليل الزهيد .

الفلسفة اليونانية الرومانية

مات أرسطو فانقضى بموته أزهى عصور الفلسفة اليونانية ؛ فقد شغل الناس عن البحث وراء الحقائق ، وذهب ما كان للعلم من سلطان على النفس ، وانصرف كل واحد إلى تحصيل المسرات لنفسه دون سواها ، وشملت الفوضى فى الأفكار والأخلاق والعقائد المدائنَ اليونانية ، فاعتراها الضعف وتداعت أركانها ، واندمجت فى دولات عظيمة الرقعة واسعة الأرجاء تجمع شعوباً متباينةً فى العادات والأفكار واللهجات وأساليب الحكم ، واستدعى ذلك كله تغيراً فى الحياة العقلية وطرائق الفكر ؛ لهذا اتخذت الفلسفة وجهة عملية ، وقصدت أن تعلم الناس كيف يعيشون وكيف يتصرفون فى المسائل المختلفة التى تقتضيها طبيعة

الحياة ، واتفقت مذاهب الفلسفة على أنه إذا كان للخير وجود ، فالواجب على كل امرىء أن يبحث عنه فى نفسه لا فى بيئته ؛ لأن أحداث العالم الخارجى وشئون الجماعة لا تخضع لإرادته ولا تؤاتيه بخيرها فى كل حين ، وكثيراً ما تتوالى عليه أنواع من المحن وصنوف من البلاء : فسعادته فى نفسه التى بين جنبيه واستقلاله عن العالم المادى وخضوع شهواته لحكم العقل . وسنكتفى بذكر بعض المذاهب الفلسفية التى جدّت فى هذا العصر .

١ المذهب الابيقورى

ينسب إلى أبيقور ٣٤٢ — ٣٧٥ ق م . من أهالى ساموس ، ولما بلغ السادسة والثلاثين من عمره رحل إلى أثينا ، وافتتح بها مدرسته ، وأخذ يعلم مذهبه وتبعه كثيرون من مختلف الطبقات اليونانية والرومانيـة . وقد اعتبر الفلسفة وسيلة إلى السعادة وقسمها إلى منطقية وطبيعية وأخلاقية . ويتلخص مذهبه الأخلاقى فى أن الخير الأسمى نوع من السرور يملأ النفس ، وفى أن اللذة قسمان : جسمى مملوء بالاضطراب سريع الزوال ، وآخر عقلى دائم . ولا نستطيع الوصول إلى الثانى إلا إذا قللنا رغائبنا وجعلنا

مطالبنا فى الحياة محصورة فى الضرورى دون سواه من الرغائب الكمالية كمحبة الغنى والترف والرياسة . ورأى أن الفضيلة أجمل ما يتبع كوسيلة لاغاية ، فالعاقل يمارسها لا لذاتها بل لما ينشأ عنها من اللذة والارتياح .

وقد أساء فريق من الناس فهم هـذا المذاهب وظنوا أنه يدعوهم إلى الأخذ بأنواع السرور والتمتع باللذات العاجلة ؛ فاستباحوا لأنفسهم ، كل شىء وجروا وراء شهواتهم البهيمية ، فوصموا مؤسس مذهبهم بوصمة خزى لا يستحقها .

٢ المذهب الرواقى

زعيمه (زينو) القبرصى ٣٤٤ — ٢٦٣ ق م . انصرف إلى الفلسفة وسنه إحدى وعشرون سنة أخذ عن كراتيس الكلبى وغيره ثم فتح مدرسة فى رواق كانت تحفظ فيه التحف الفنية فى أثينا ، واليه تنسب فلسفته . واستمر فى إلقاء دروسه هناك زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتحر ودعا الناس أن يتبعوا سبيله . وقد ذهب إلى أن دراسة الفلسفة وسيلة السعادة ، وأن الغاية منها معرفة الخير ، وقسم فلسفته ثلاثة أقسام منطقية وطبيعية وأخلاقية .

ومجمل مذهبه أن الفضيلة العملية هى الخير الأسمى وأن الشهوات التى تتحكم فى النفس أمراض يجب القضاء عليها حكى صاحب الملل والنحل مانصه قيل رأى زينو فتى على شاطىء البحر محزونا يتلهف على الدنيا فقال يا فتى ما يلهفك على الدنيا لو كنت فى غاية الغنى وأنت راكب فى لجة البحر قد انكسرت السفينة وأشرفت على الغرق كانت غاية مطلوبك النجاة ويفوت كل ما فى يدك قال نعم قال لو كنت ملكا على الدنيا وأحاط بك من يريد قتلك كان مدارك النجاة من يده قال نعم قال فأنت الغنى وأنت الملك الآن » . . . . . .

وقد وجد هذا المذهب أشياعاً بين الرومان لأن له اتصالاً وارتباطاً بسلوك المرء فى حياته وأنت جد عليم بأن الأمة الرومانية كانت أمة عملية لا تبغى العلم لذاته ولا تهيم وراء الحقائق ولا تجد سروراً فى التفكير المحض ولا استمتاعاً بمظاهر الجمال فى العالم وإنما كان من شأن الرومانى أن يعيش لغرض مادى وأن يبذل جهده للحصول عليه وأن يوفر لنفسه أسباب الترف ووسائل النعيم فاتحة إلى الحرب وأشعل نيرانها فى العالم وكتب له النصر فى كل

مكان ودانت له البلاد التى على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وفكر فى أساليب حكمها وأظهر قدرة نادرة على تنظيم الشعوب المختلفه واتحاد الائتلاف بين أجزاء الأمبراطورية الرومانية مع سعة رقعتها وترامى أطرافها وامتاز فى التشريع وابتكار النظم ووضع القوانين التى تحدد للناس طريق العمل كأفراد مسئولين فى جماعة متماسكة ولا تزال القوانين الرومانية إصلاح للشرائع الوضعية فى العالم

أراد الرومان أن يجعلوا لتشريعهم أساساً من الفلسفة اليونانية ووجدوا مجالا فسيحاً فى مذهب الرواقيين الذين يرون أن الغرض من الحياة هو الفضيلة وأن طريقها القضاء على جميع ما للنفس من شهوات حتى لا تتمنى مالا يدرك ولا تحزن على فائت من العيش ولا تخاف ذهاب نعمة ومن البديهى أن الله قد ميز الإنسان بالفكر الذى يسلك به مسالك الخير ويكبح به جماح نفسه ويسيطر على شهواته ويربطه بغيره من بنى جنسه والناس متفقون فى الطبيعة العامة يستمدون حياتهم من مصدر واحد فهم إخوان فى الإنسانية يعاون بعضهم بعضاً ويشتركون فى جميع المنافع

والمرافق ويحترم كل واحد ادارة الجماعة ممثلة فى قوانينها وعلى هذا الأساس قامت الشرائع الرومانية يقول سنكا

« سأقابل الموت بوجه باسم وأرى مشاهد الحياة وما يجلبه القدر خيره وشره مطمئن النفس هادىء البال وسأقوم بنصيبي من أعباء الحياة مهما كان ثقيلا مستعيناً بما لى من قوة عقلية إذا وهن الجسم وعز النصير وسأحتقر الغنى واليسار سواء كان لى منه نصيب أم لم يكن ولن يملأ قلبي السرور إذا أقبلت الدنيا على بخيرها ولن تفيض النفس أسا إذا أدبرت عنى وتولت بزينتها وسأعتبر جميع بقاع العالم وطنا لى ووطنى ملكا لبنى الإنسان جميعا وسأذكر دائما أنى خلقت لغيرى وأشكر الطبيعة على ذلك إذ ليست هناك غاية أشرف من هذه فقد وهبتنى للجماعة ووهبت الجماعة لى وسيدفعنى إلى خير العمل ضميرى وذمتى وسأصفح عن المذنب قبل أن يسألنى الصفح ولن يغيب عنى أن الدنيا بأسرها مدينتى التى ولدت فيها وأن حكامها آلهتى يحيطون بى وينظرون إلى أعمالى وسأجيب داعى الموت طائعاً وأشهد الناس جميعاً اننى أحب طهارة الضمير ونيل الغاية »

وبعد فهذا نوع من الفلسفة الخلقية يرمى إلى تهذيب النفس ورياضتها ووصولها إلى حال من الهدوء التام والاطمئنان الدائم والرضا بكل ماتأتى به الأيام وتسوقه الليالى ويعتبر الناس إخوانا فى الله يجب عليهم محبته والاخلاص له والتقرب منه باحتمال أنواع البلاء الذى يبتلى بها المصطفين من عباده إذا ليس أحب إلى الله من أن يرى الصالحين وقدتوالت عليهم صنوف المحن ونزلت بهم المصائب ومن كل جانب فلا تذهب نفسهم حسرات بل يستسلمون لقضاء الله ويقابلونه بالصبر الجميل، ومن هنا نرى أن طاعة الله واجبة على كل إنسان فانه خلق الكائنات واختص الانسان بالعقل وهو نور روحانى انفصل عن الله وحل فى عباده ليكون بينهم وبين الله صلة حتى يذكروه فى السر والعلانية ويعترفوا بجميل صنعه وتتابع إحسانه ويقوموا بواجب شكره يقول ابكتيتس أن جزءاً من الله قد حل فيك فأنت تحمله أنى سرت فينبغى أن تكف عن الفكر الخبيث والعمل الخبيث حتى لا تحط من قدر الله يقول:

« فكر فى الله أكثر من عدد أنفاسك المتصاعدة وقدم له الشكر على كل شىء وبخاصة نعمة العقل »

وأنت إذا تأملت هذا المذهب وأدركت ما فيه من تناقض فإنه لا يتلاءم مع الطبائع البشرية ألست تراه يدعو الناس إلى القضاء على مشاعرهم ثم يكلفهم طاعة الله وخدمة الإنسانية والتنافس فى صالح العمل ؟ ولست أدرى كيف يكون ذلك والوجدان هو القوة الدافعة التى ينبعث منها الإرادة والعمل . أضف الى ما تقدم أنه لا يشفى غله ولا يسد حاجة النفس ولا يشجع على المضى فى سبيل العمل الطيب فلا يرفع للناس مناراً يهتدون بنوره ولا يعين غاية يسعون للوصول إليها ولا يبين مايترتب على العمل خيره وشره فإنه لم يذكر شيئاً عن حياة باقية ولم يشر إلى جنة أو نار ولم يبشر الصالحين بالنعيم الدائم ولم يمن المذنبين بعفو من الله ورحمة وعلى ذلك يستوى فيه الخبيث والطيب والطائع والعاصى بل قد يكون المسىء خيراً من المحسن ؛ لأن الله إنما يبتلى الصالحين من خلقه بصنوف المحن حتى يعلم مقدار احتمالهم لبلائه وصبرهم على قضائه

لا غرابة بعد هذا إذا تولت النفوس سآمة فانصرفت عن هذا المذهب وتلمست نوعا جديداً من الفكر يقع منها موقع الماء من ذى الغلة الصادى

٣ المذهب الارتيابى

تقدم فى الكلام على العصر الثانى من عصور الفلسفة أن النتائج التى وصل إليها الفلاسفة الذين قصروا بحثهم على أصل الكون كانت متناقضة مما أدى إلى ارتياب الباحثين وظهور السوفسطائيين الذين أنكروا حقائق الأشياء فكان ما كان من معارضة سقراط وتلاميذه لهم

ولما فقد اليونان استقلالهم وقل اهتمامهم بالفلسفة النظرية بعثت الفلسفة السوفسطائية من جديد، وتطرق الشك إلى عقول كثير من الفلاسفة، وقام المذهب الارتيابى يقاوم المذهب اليقينى المشائى، وقد مهدت المدرسة الجدلية له السبيل . وزعيم هذا المذهب هو (بيرو) الإيلى سنة ٢٦٥ ق ـــ ٢٧٠م وكان فى أول أمره نقاشا ، وقد صحب الإسكندر فى غزوة الهند، وبعد عودته إلى وطنه فتح مدرسته، وقد قال بالشك، لأنه هو الطريق الموصل للسعادة، وللفرار من مصائب الحياة. ومن تعاليمه أنه لا مقياس للحق ؛ ولذلك كان الإنسان عاجزاً عن فهم الحقائق فهما يتفق عليه كل مفكر ؛ وذلك لاختلاف الإدراكات الحسية باختلاف الاشخاص والسن والحالة

الصحية ، كما أن خواص الأشياء وآثارها تختلف باختلاف مقاديرها كالسموم مثلا فهى قاتلة إذا أخذت بمقدار عظيم ، ونافعة إذا كان مقدار ما يتناول منها قليلا ، ومن رأيه أن الخلو من الألم مصدر السعادة ولا يمكن الوصول اليه باتباع اليقينيين الذين يقولون بإمكان الوصول إلى حقائق الأشياء ولا باعتناق آراء السوفسطائيين الذين يدعون استحالة معرفة الحقيقة بل بالتوقف قطعيا عن كل حكم: فلا يمكننا أن نحكم بشىء على الأشياء نفسها ، فكل ما نستطيع أن نقوله هو أن هذا الشىء يظهر لنا كذا وكذا ، وبهذا نكون قد حكمنا على حالتنا الوقتية فقط ؛ وعلى ذلك يحصل العقل، الذى لا يميل الى جهة النفى، ولا إلى جهة الاثبات، على هدوء البال وراحة الضمير ويكون فى غبطة تامة ، وهذا هو منتهى السعادة ، هذا إلى أن العاقل متى أدرك ذلك توقف عن العمل ؛ لأنه لا يفضل حينئذ خطة عملية على أخرى ، ونتيجة هذا هو الراحة التامة ؛ لأن الأعمال نتيجة التفضيل ، والتفضيل هو اعتقاد أن هذا يجب أن يعمل لأنه أحسن من غيره ، فاضرب عن هذا الاعتقاد صفحاً تقف عن العمل . وهذا هو ما رمى اليه (بيرو) فقاعدته فى الحياة هى ألا يكون للإنسان رأى فيرتاح .

وقد سرى هذا المذهب إلى الأكاديمية القديمة بعد زعمائها الثلاثة أفلاطون وابن أخته (اسبيوسيب) (وزينوقراط) فتغيرت خطتها ودعيت بالأكاديمية الجديدة، ومن أشهر زعمائها (كرنياد القبرصى) وكان أكثر الناس جدلا، وقد ندبه الأثينيون إلى روما ليسوى مسألة الضرائب، فخطب مثبتا حقيقة العدل مبينا فوائده مستدلا على قوله بالحجج القاطعة، ثم خطب فى اليوم الثانى ونقض ما قاله فى اليوم السابق مستدلا على كلامه بحجج عقلية لا تقبل النقض ولا تقل فى الإقناع عن سابقتها فخشى بأسه أهل رومه وكان هذا سببا فى رجع كل فيلسوف يونانى إلى وطنه ومنع شبان رومة من الاستماع لهم. وقد افتتح بعض زعماء هذا المذهب فى أوائل القرن الأول المسيحى مدرسة فى الاسكندرية ونشر مذهبه بها ويقال إنه بذلك مهد السبيل لبعض مذاهب الفلسفة الحديثة

٤ مذهب فلاسفة الاسكندرية

أخذت مدرسة الاسكندرية — وهى آخر مدرسة للفلسفة اليونانية — فى الظهور فى أواخر القرن الثانى للميلاد أسسها فيها البطالسة حين هاجر اليها كثير من مفكرى اليونان. غير أن

النظم الفلسفية القديمة وجدت طريقها اليها قبل ذلك التاريخ

وقد جاء إلى الإسكندرية كذلك عدد عظيم من اليهود بدعوة من البطالسة الذين اشتهروا بتسامحهم الديني وكان الغرض من إنشائها دراسة العلوم والآداب والديانات فوجدت فيها الفلسفة مكانا خصيبا وسارع اليها الفلاسفة والطلاب من كل صوب حتى بلغ عددهم على ماذكره بعض المؤرخين أربعة عشر ألفا .

وقد امتزج المذهب المشائي والمذهب الأفلاطوني والمذهب الرواقي وتكون منها مذهب دعي بالمذهب الانتخابي، أما المذهب الابيقوري فظل وحده مستقلا حافظا تقاليده وتعاليمه وكان من آثار تلك الحركة العلمية اتصال الفلسفة اليونانية بالديانات الشرقية القديمة والديانتين اليهودية والمسيحة ، والتوفيق بين الأفكار التي مصدرها الفلسفة والأفكار التي مصدرها الدين فحاولت الفلسفة حل مسائلها بمعونة الدين حتى لا يكون للشك الذي مصدره الاعتماد على مجرد الفكر مجال ، كما أن الدين من جهته أخذ يبحث عن الفلسفة ليجد له أساسا علميا يبني عليه عقائده لتكون أكثر قبولا للعقول المفكرة فترجمت التوراة من العبرانية إلى اليونانية

وحاول حبران من أحبار اليهود هما « ارستبول وفيلو » التوفيق بين تعاليم موسى وأفلاطون وكذلك حور المصريون بعض عقائدهم فأدخلوا اليها بعض الآراء الأفلاطونية ونشأت ثورة فكرية مزجت الدين بالفلسفة ولكنها ظلت مدة القرنين الأولين للميلاد غامضة ثم ظهرت على شكل مذهب ديني جديد سمي بالأفلاطونية الجديدة من أول القرن الثالث

الافلاطونية الحديثة

ظهرت الافلاطونية الحديثة فى أوائل القرن الثالث الميلادى على يد زعيمها «أمنيوس سقاص» وقد كان مسيحيا جحد المسيحية ودرس الفلسفة الأفلاطونية وتعمق فيها وتوفى فى منتصف القرن الثالث الميلادى ولم يدوّن شيئا من آرائه، ولذلك نسب المذهب إلى تلميذه أفلوطين الذى يعرفه العرب باسم الشيخ اليونانى ولد فى الوجه القبلى بمصر فى أوائل القرن الثالث المسيحي ومات فى رومة سنة ٢٧٠ م. وقد تخرج فى جامعة الأسكندرية ودرس الفلسفة على « امنيوس سقاص » ثم رحل إلى فارس والهند ليقف على المذاهب الشرقية القديمة ولما بلغ الأربعين من عمره ذهب

إلى رومه وفتح بها مدرسة أخذ يعلم الناس فيها مدة ربع قرن وقد لقيت تعاليمه رواجا حتى سارع إلى أخذ العلم عنه عدد عظيم من الأشراف وعرف مذهبه بالأفلاطونية الحديثة وهو نوع من الفلسفة مشوب بكثير من العقائد الدينية أريد به سد ما فى المذهب الرواقى من نقص فنصب للناس غرضا هو الاقبال على الله الذى يجازيهم بأعمالهم وأغفال كل ما عداه والرياضة الصادقة والتفكر الدائم حتى تسعد النفس بالمشاهدة ويتجلى عليها الله فتتحد معه لكن هذه الغاية لا ينالها كل إنسان ولا يصل إليها إلا الخاصة أما العامة فلم تتعرض الأفلاطونية الحديثة لمصيرهم ؛ لذلك كان العالم فى حاجة شديدة إلى مذهب يفتح باب الأمل للعامة والخاصة ويبشرهم برحمة شاملة وعفو من الله قريب

وقد اعتقد أفلوطين أن هناك عالمين : عالم الحس الدائم التغير وعالم الكليات أو المجردات أو المثل ، وهو وحده ذو الوجود الحقيقى الذى لا يطرأ عليه تغير : فالعالم الحسي ظواهر للعالم المجرد ومتأخر عنه فى الوجود . والعالم العقلى يأتى فى المرتبة بعد الله . وكان يرى أن الأنسان مؤلف من عنصرين أحدها طيب طاهر وهو النفس

والثانى خبيث دنس وهو الجسم ، والجسم سبب ما يصيب النفس من بلاء ومحن وما ترتكب من إثم؛ وعلى ذلك فطريق النجاة من الشقاء أن تترك النفس عالم الحس وترجع إلى عالمها الطيب الطاهر الذى صدرت عنه وتتحد مع الله حتى تصل إلى أفضل حالاتها وتتمتع بكل ما كانت تتمتع به من السعادة قبل أن تهبط من عالمها وتحل بالبدن .

وقد التمس أصحاب هذا المذهب أساساً له وسهل عليهم أن يجدوه فقد رجعوا إلى فلسفة أفلاطون وأنعمو النظر فيها فعلموا أن السعادة لا تنال فى رأيه إلا إذا انسلخت النفس عن عالم الحس وغلب عليها نور اليقين فأشرقت عليها الحقائق إشراقا وانفتح أمامها باب الغيب .

مما تقدم يفهم أن هناك تنافراً بين عالم المادة وعالم الروح ولما كان الله روحاً محضاً لا يدركه عقل ولا يحيط به وصف كان من الضرورى البحث عن كيفية اتصاله بعالم المادة وتصويره للكائنات المختلفة وحلول الروح فى هذه الكائنات ثم انفصالها ورجوعها إلى حالها الأولى .

وقد قال أفلوطين بالحلول ووحدة الوجود وذهب إلى أن الله هو الواحد الأول وأن كل شيء في الكون صدر عنه بطريق الانبثاق وكل شيء يعود إليه بطريق الرجوع ، فهو كل شيء بمعنى أنه كمال كل شيء فليس هو أحد الأشياء التي تصدر عنه ولا مجموعها ولا يمكن وصفه بوصف خاص فهو ليس الموجود ولا الجوهر ولا الحياة ، وإنما هو أسمى من كل ذلك ولا يمكن تشكيله بشكل ما فهو فوق كل تعريف ويتوصل الإنسان المفكر إلى العلم بكنه الله الذي هو غير محدود بتجريد النفس وخروجها من سجنها المادي واتصالها بمصدرها الأول قبل حلولها في المادة وهذه هي المرتبة التي يسميها الصوفية مرتبة الفناء . ويقال أن أفلوطين بلغها بضع مرات في حياته وهذه المسألة هي الأولى من فلسفة أفلوطين وهي طريق العلم وحدوده وكل ما نعرف عنه أنه واجب الوجود تام الكمال لا يحتاج إلى شيء خارجي بل يفيض خيراً وينتشر فيتولد عنه جميع الكائنات كالضوء الذي يصدر من الشمس والحرارة التي تصدر من النار . فالعالم بأجمعه هو الله والله هو العالم وهذا ما يسمى بنظرية الفيض الإلهي

وخلق العالم وهى المسألة الثانية التى تبحث فيها فلسفة أفلوطين .

وأول نتاج لهذا التوليد هو العقل وهو جوهر روحانى محيط بالأشياء فيه جميع صور الأشياء غير متراكمة ولا متزاحمة يحتوى عليها كما يحتوى العلم على نظرياته ومسائله الجزئية وهو علم الله المحيط بكل موجود والجامع لكل مخلوق وهو أكمل شيء بعد الواحد يستمد منه كل كمال ولا ينقص عنه إلا قليلا ثم يفيض عن العقل الأول كائن روحى آخر وهو النفس الكلية وهو القوة الحاكمة المنظمة لكل حوادث الكون والمدبرة لها كما سيأتى وهذه الثلاثة التى هى الله والعقل الأول والنفس متحدة بعضها ببعض وهذه هى المسألة الثالثة من فلسفته وهى نظرية التثليث الالهى فالله ذو ذاتية واحدة مكونة من عناصر ثلاثة هى الواحد الحقيقى والعقل الأول والنفس الكلية وقد قال موضحاً هذا « أن حوادث الكون لا تقع اعتباطا من غير قوة حاكمة تنظمها وتدبرها فهى معلولة لقوة واحدة هى النفس الكلية وهى مخلوقة أو معلولة لعلة أرقى منها هى العقل الذى يجمع كل المثل وفوقهما يأتى المصدر الأول وهو الواحد الحقيقى وعلة العلل وهذه الثلاثة هي عناصر التثليث الالهى » .

وعن النفس الكلية تصدر النفوس الجزئية التى تتصل بعالم المادة فتكسبه الحياة والحركة . والنفس الناطقة أهل لإشراق النفس الكلية عليها وهى مستعدة لقبول الصور المعقولة بقوة طهارتها الأصلية وصفائها الأول ، غير أن بعضها قد يمرض فى هذه الدنيا ويمتنع عن إدراك الحقائق ، وبعضها يبقى على الصحة بلا مرض ولا فساد ، فأما النفوس المريضة فأنها تشتغل بعالم الحس وتصرف الوقت فى تحصيل ملذات الجسم وتزداد بعداً عن عالمها ، وأما الصحيحة فتستمد نورها من النفس الكلية فتنكشف أمامها الحقائق وترتفع عنها الحجب وترى الله أبين من رأى العين وتستمع بشهوده . وفى كل شىء صدر عن الواحد ميل لأن يعود إلى ذلك الواحد وبهاتين الحركتين حركة الصدور وحركة العودة يتجدد العالم الحسى على التوالى فهو من الله وإلى الله يعود .

إن فكرة الانبثاق فكرة خيالية استعارها أفلوطين من الضوء الذى يشتد عند صدوره من المركز ثم يضعف تدريجاً كلما بعدت أشعته عنه حتى يصل فى النهاية إلى ظلام تام هو المادة : فالمادة عنده هى انعدام الضوء وبهذه الفكرة المجازية تغلب أفلوطين

على الصعوبة التى واجهت فلاسفة اليونان وهى [من أين أتت المادة ؟] ويعتقد أفلوطين أن المادة هى علة الشرور فى العالم ، ومن ثم كانت غاية الحياة عنده التخلص من عالم الحس والمادة كما سبق ووسيلة ذلك تحرير النفس من سيطرة البدن والحواس ، ثم الاشتغال بالفلسفة، ثم النهوض بالنفس فوق مستوى الفكر إلى مستوى الوجدان الروحى . وهذه المراتب الثلاث تُعِدٌّ للوصول إلى مرتبة الفناء التى سبق ذكرها وفيها تسمو الروح وتصير النفس فى حالة غيبوبة وتتحد مع الله اتحاداً لا يستطيع العقل الإنسانى تصوره

وليست النفس فى هذه الحالة مشتغلة بالتفكير فى الله أو برؤيته؛ فان هذا عمل شعورى يتضمن انفصال المدرك عن المدرك ، وهذا الانفصال لا يحصل فى مرتبة الفناء ؛ فالنفس لا تنظر الى الله كأنه شىء خارج عنها بل تصبح معه شيئاً واحداً وتكون هى الله. وهذه الغيبوبة الصوفية لا تمكث غير لحظة ثم تهبط النفس بعدها متعبة مجهدة إلى مستوى الشعورى العادى ، وقد ادعى أفلوطين أنه وصل إلى هذه المرتبة عدة مرات كما سبق .

وقد استنبط أفلوطين من تعاليمه أن الكمال أصل الوجود

وكل موجود يميل إلى الكمال . فالعالم وجد للخير ، أما الشر الذى نشاهده فى الكون فمآله إلى الزوال تدريجا وفقاً لسنة الترقى من النقص إلى الكمال .

وانما ظهرت الأفلاطونية الحديثة بعد المذهب الارتيابى الذى أنكر إمكان الوصول الى الحقائق ؛ لأنها قامت تحاول إثبات أن الوصول الى الحقائق ممكن، وأن ما يعجز العقل عن إدراكه يستطيع الإنسان إدراكه بطريق الإلهام والرياضة وتجريد النفس ؛ ولذا كانت الأفلاطونية الحديثة خاتمة الفلسفة اليونانية . إذ الفلسفة مؤسسة على الفكر: فهى السعى فى إدراك حقائق الأشياء بالفكر والروية ، أما الألهام وتجريد النفس فليس فى وسع الفلسفة أن تدعيهما ، وبهذا تكون الفلسفة قد ألقت سلاحها أمام الدين ، ولكن لتسترد قوتها وتعود إلى الكفاح من جديد كما سنبين ذلك بعد .

ومن تلاميذ أفلوطين : فرفريوس الصورى صاحب إيساغوجى وهو الذى تولى زعامة المدرسة من بعده ، ونشر مؤلفاته وكان جد موفق فى الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطو .

الفلسفة والمسيحية

ليست المسيحية نظاما فلسفيا يقوم على قوانين المنطق وإنما هى فرع من الدين اليهودى نشأ فى الشرق يستند إلى وحى ويناجى المشاعر والقلوب ويضع للناس جملة من القواعد يسترشدون بها فى أعمالهم كالمساواة بين بنى الانسان ومحبة بعضهم لبعض والاقتداء بالمسيح عليه السلام فى سيره وسلوكه ويبشر الطائعين بحياة روحية طيبة مباركة ويتوعد العصاة بغضب من الله والعذاب بنار الجحيم ويلوح لهم فى الوقت نفسه أن باب الغفران مفتوح كما أنه يعلم أن السيد المسيح قد ضحى بنفسه ليخلص العالم من خطاياه.

وكانت النصرانية أول الأمر بعيدة عن الآراء الفلسفية والمجادلات الدينية فقد كان بعض زعمائها يكرهون الفلسفة ويخافون على دينهم من الاتصال بها؛ لأن الدين وضع إلهى يقوم على الإيمان بالله والتصديق بوحيه والاعتقاد فى شريعته، أما الفلسفة فتقوم على العقل المحض، ويعزى إلى بيكن الفيلسوف الانكليزى أنه قال «إن المسيحية كحبة من الدواء المرّ يسهل بلعها ولا يستطاع مضغها»

ولد المسيح عليه السلام فى بيت لحم فكان الشرق مبعث ذلك الدين ومنه سلك طريقه إلى البلاد الغربية وصادف فى انتقاله درجات من الحضارة والحياة الفكرية وكان لا بد له من مقابلة الفلسفة اليونانية وحينئذ إما أن يطغى عليها ويكتسح أمامه جميع المذاهب الفلسفية وإما أن يتودد إليها ويجعل له منها سنداً ويستخدمها فى تأييد العقائد الدينية وإظهار أنها تتفق مع العقل وقد كان الطريق الثانى أسهل الطريقين لأن كثيراً ممن اعتنقوه كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين؛ ولهذا أخذ رجال المسيحية يدرسون الفلسفة ويمزجونها بالدين ويجعلون للعقائد الدينية سنداً منها، وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل فى المسائل الدينية كتحديد ماهية الله وكنهه وطبيعة المسيح وهل هو إله أو إنسان اختير لتبليغ رسالة الله إلى خلقه وغيرها من المسائل التى كانت موضوع خلاف بين الأفلاطونية الحديثة والمسيحية من جهة، وبين فرق المسيحية وفلاسفة اليهود من جهة أخرى وبخاصة بعد أن أخذ بعض آباء الكنيسة يكتبون دفاعا عن النصرانية ويبررون تقاليدها فى نظر المفكرين من اليونان والرومان وغيرهم ممن خرج

على الكنيسة ويتبين ذلك فى نواح كثيرة ولا سيما الناحية الخلقية فإن المبادئ التى اشتملت عليها المسيحية قريبة الصلة بتعاليم أفلاطون والرواقيين من بعده، ومن ذلك اعتبارها أن الله هو الخير الأسمى وأن جميع الكائنات تنتهى إليه، وبذلك امتزجت الفلسفة بكثير من أصول النصرانية، ولاسيما مسألة التثليث وهى كما تعلم أساس هذه الديانة وكان أول من أثار الكلام فى هذا الموضوع أريجين [١٨٥ ـ ٢٥٤] فقد ذهب إلى أن الله خلاق وأنه روح محض وإلى أن المسيح رسوله إلى الناس خلقه أولا ثم اصطفاه وجعله الواسطة بينه وبين عباده فهو كائن مستقل عن الله متميز الذات منفصل الوجود. وقد احتدم الجدال بين فريقين من العلماء

فارتأى فريق أن كلمة الله شخص ثان مقدس خلقه الله وجعل له ذاتا غير ذاته فليس هو إلهاً وإنما هو واحد من بنى الإنسان يستطيع بما أوتى من قوة الإرادة ومتانة الخلق وخالص الحب أن يتصل قلبه بالله ويشهده بعين بصيرته ويتحد معه.

وذهب فريق آخر إلى أن الله تعالى حل فى ذات المسيح واتحد معه فكان الأب والابن إلهاً واحداً. وإلى هذا الخلاف يشير ابن

حزم بقوله « والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس وكان قسيسا بالإسكندرية ومن قوله التوحيد المجرد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التى خلق بها السموات والأرض إلى أن يذكر فرقة الملكانية وقولهم « إن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس كلها لم تزل وأن عيسى عليه السلام إله تام كله وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر وأن الإنسان منه هو الذى صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معاً شيء واحد إلى آخر ماقالوا » . وقد بقى الجدال محتدماً بين الفريقين حتى كانت سنة ٣٢٥ م فاجتمع عدد من رجال الدين، وقرروا أن يأخذوا برأى (أثناسيوس) ، أسقف الاسكندرية (٢٩٦ - ٣٧٣ م) ويدينوا بأن الله تجسد فى المسيح عليه السلام ، وأن اللاهوت والناسوت اتحدا فى ذات واحدة: فالله والمسيح وروح القدس كائن واحد متعدد المظاهر والقوى كالنفس الإنسانية تتعدد قواها وتختلف مظاهرها ولكنها مع هذا واحدة لاتقبل القسمة ولا تخضع لتجزئة

ولم يقف الخلاف بين النصارى عند حد التثليث فقد تعداه

إلى غيره من المسائل الفرعية وكان كل فريق يستعين بالمذاهب الفلسفية المختلفة فى تأييد رأيه وترتب على ذلك اختلاط الفلسفة بكثير من مسائل الدين وكثيراً ما كانت الخلافات الدينية سبباً فى إراقة الدماء وتخريب الأماكن وحدوث الفتن بين القسيسين وأشياعهم ، وقد اضطر الأمبراطرة إلى التدخل فى المناقشة الدينية وعملوا على تأييد بعض المذاهب، ولم يكن غرضهم من ذلك إحقاق الحق و إبطال الباطل، وإنما كانوا يتبعون أهواءهم ويميلون إلى أشد الفريقين وأكثرهما أشياعا ليكون لهم من ذلك قوة فوق قوتهم .

استمر هذا النزاع قروناً متتابعة وكان من عوامل التفرقة بين السلطتين المدنية والروحية . وبينما كان رجال المسيحية يختلفون فيما بينهم إذ بجماعات من برابرة الشمال تنتشر فى جنوب أوربا وتغير على البلاد المختلفة فتخرب المدائن وتسفك الدماء وتستولى على رومة حاضرة الدولة الغربية (سنة ٤٧٦) وتناول هؤلاء بالتدمير والتخريب كثيراً من مبانيها ولم يبقوا على شىء سوى تلك الكنائس العظيمة التى قامت باسم الدين فقد ملأتهم

رهبة ووجدت فيهم تربة خصبة لسذاجة أخلاقهم واستعدادهم للعمل الطيب وسماع الموعظة الحسنة فتعهدتهم بالتعليم وتلقين المبادىء الدينية وراضتهم على احترام القانون والخضوع لسلطانه وأملت عليهم العقائد إملاء حتى سلبتهم حرية الفكر وأوجبت عليهم الأيمان والطاعة العمياء .

ولقد كان سقوط رومه فى أيدى هؤلاء الأقوام فاتحة لعصر جديد امتد إلى القرن الخامس عشر الميلادى وهو المعروف فى التاريخ باسم العصور الوسطى .

الحياة العقلية فى العصور الوسطى

امتازت العصور الوسطى بنوع من الحضارة والحياة العقلية والفلسفية القائمة على أساس الدين وبنظام معين من نظم الحكم؛ فقد كان الناس فى هذا العصر عبيداً لطائفتى الأشراف ورجال الدين؛ وذلك لأن الأشراف زعموا أن الله آتاهم بسطة فى الرزق، وثروة طائلة ليستذلوا بها رقاب العباد . وأما رجال الدين فادعوا أن الله اختصهم من بين عباده ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس وأنه

ألهمهم من العلم ما شاء ، و كشف لهم عن ملكوت الأرض والسماء ؛ فظهرت لهم الحقائق وتجلت الآيات ، فقاموا يعلمون الناس و يطلبون منهم الخضوع والطاعة العمياء وحالوا بينهم و بين الكتاب المقدس وحرموا عليهم النظر فى الكائنات وفهم أحداث العالم ولم يسمحوا لأحد بحرية الفكر وتعصبوا للنصوص الدينية ، وفسروا كل شىء على مقتضاها وكثرت تقاليد الكنيسة رغبة فى التعمية على العامة وتغلغل الدين فى كل شىء حتى لم يبق للفكر منزع ، ونتج من ذلك أن خضع الناس لسلطانهم وقبلوا ما أملوه عليهم طائعين أو مكرهين فغاض معين الابتداع ووقفت الحركة الفكرية وفقد الاستقلال الشخصى وساد الجهل وعم الاعتقاد فى الخرافات وشغل الناس بأمر الآخرة ونسوا نصيبهم من الدنيا وأصبح التعليم مقصوراً على تلقين العقائد المسيحية دون سواها. ولو أن هذه العقائد بقيت خالصة من شوائب الخرافة لما وجد المؤرخون مجالا للطعن فى الكنيسة ونظامها ورجالها .

ولكن ما ظنك بها إذا كان رئيسها وخليفة السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة مريم والتبرك بتماثيلها وصورها ، وإلى الاعتقاد

فى القديسين وأن لهم تصريفاً فى العالم وفى تأثير بقايا الشهداء من ثياب وغيرها وفى أن بعض الموتى يقومون من قبورهم لقضاء مآرب مختلفة إلى غير ذلك، وبالجملة كان خليفة المسيح فى رومه يكره العلم والتفكر فى خلق السموات والأرض، ويقول إن الجهل أساس التقرب من الله بالمحبة والعبادة، فلا عجب إذا قلنا بعد هذا إن الآداب القديمة قد ركد ريحها فقد حظر رجال الدين دراستها على الناس حتى كاد هذا الميراث العظيم يضيع. حقاً أن سير التقدم الفكرى قد وقف فى العصور الوسطى، وإن الفلسفة أصبحت فيه خادمة لعلم اللاهوت المسيحى وأن الكنيسة الكاثوليكية كانت صاحبة الكلمة العليا فى أمور الدين والدنيا بأوروبا.

Scolastique

الفلسفة المدرسية

نعم نشأ فى العصور الوسطى نوع من الفلسفة يعرف بالفلسفة المدرسية قام على أساس من الدين وانتهى إلى غايات دينية معينة يقول بعضهم « فصلت الكنيسة فى جميع المسائل الجوهرية كخلق الإنسان وطبيعته والغاية من حياته ووضعت أصول العلم وفروعه

وجعلت لكل حداً وقالت أن الله خاق العالم وجعل فيه الخير ولكن آدم عصى ربه فأخرج من الجنة واستحق العذاب فأرسل الله ابنه السيد المسيح ليضحى بنفسه ويخلص العالم من نتيجة الخطيئة الأولى فكانت الكنيسة لا غير وسيلة النجاة »

وكانت الفلسفة المدرسية تتميز بأمرين: أما أولهما فإنها كانت فلسفة العقائد الدينية التى تقوم على قضايا مسلمة الصحة لا يعتورها أدنى شك، وأما ثانيهما فانها فاسفة كلامية قليلة الجدوى ضئيلة الإنتاج . وليس أدل على هذا من أن نتعرف بعض مذاهبها وموضوع الجدل فيها فإن من المسائل الأولى التى دار البحث حولها واشتد النزاع فيها مدلول الكلمات الكلية والجزئية وهل لهذا المدلول من وجود فإن زعماء الفكر فى تلك العصور انقسموا فى الرأى إلى ثلاث فرق : —

فنهم من رأى أن الكلمات الكلية هى ذات المدلول الحقيقى وأنها إذا كانت أدخل فى باب العموم كان مدلولها أعرق فى الوجود .

ومنهم من رأى أن المدلول الحقيقى إنما هو للكلمات الجزئية

أما الكلمات الكلّية فمقاطع صوتية لا دلالة لها على شيء

ومنهم من توسط وأدرك ما بين الكلي والجزئى من علاقة وذهب إلى أن مدلول اللفظ الكلى حقيقة ذهنية مستمدة من خصائص الجزئيات الشائعة فيها

ولقد كان من الطبيعى أن تؤيد الكنيسة رأى الفريق الأول وتشتط فى تطبيقه وتتخذه ذريعة لتأييد ذلك النظام العجيب الذى قضى بانحلال الشخصية واندماج الجزئى فى كليه وتفسر على هذا النحو احتمال الأفراد لإثم آدم الذى هو كلى يمثل الإنسانية الخاطئة وخلاصهم بموت السيد المسيح عليه السلام وهو الممثل الأعلى لبنى الإنسان

وقد جاوزت الفلسفة المدرسية حدود العقل وبالغت فى اعتبار أن الإنسان مؤلف من عنصرين النفس والجسم وفى أن هناك نزاعاً مستمراً بينهما وفى أن الكمال الروحى الذى ينشده الانسان لا يتم له إلا إذا فارقت الروح الجسد، وقد كانت تستمد فى هذا الموضوع وما ماثله أدلتها من الكتاب المقدس، ومما كتبه آباء الكنيسة الأولون من غير أن تحتكم إلى العقل فى شيء بل لم تحتكم

إلى العقل، والعقائد المسيحية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ وعلى ذلك فطريق النجاة أن يؤمن الناس بهذه العقائد إيمانا لا يتسرب إليه ذرة من شك حتى إذا لم يفهموها .

وهكذا كتب على الفلسفة أن تبقى فى هذه الدائرة التى رسمتها الكنيسة وبينت فيها أصول الأشياء وفصولها وتناولت ذلك كله بتفصيل شامل لم يخرج عنه شيء فكان رجال الكنيسة يؤمنون بأن الكتاب المقدس جمع فأوعى وأنه لم يبق للنظر والبحث مجال بعد النصوص الدينية. ولذلك كانت الكنيسة وحدها هى باب العلم.

لم تستطيع الكنيسة مع كل هذا أن تقضى على الحياة الفكرية ؛ فقد رأى فريق من رجال الدين أن عقائد النصرانية لن يضيرها أن يتلمسوا لها سندا من العقل ، وكان ذلك من أضر الأشياء على الكنيسة ورجالها وتقاليدها ، لأن العقائد أصبحت تدريجا فى حاجة إلى سند من العقل لا يأخذ بها أحد إلا إذا ارتضاها الفكر المنطقى والذوق السليم ، وهذا بلا ريب نوع من الحياة الفكرية ، ولكنه ضيق الدائرة ، إذ كان الغرض منه تأييد العقائد الدينية بالأدلة المنطقية ، فلم يكن لثقافة الأغريق وعلومهم مجال يظهر فيه نفعها ؛

لأن المفكرين فى هذا العصر أخذوا بشىء قليل من الأفلاطونية الحديثة ورضوا بالألغاز والتعمية ومالوا إلى التصوف وشغلوا بالحوار فى مسائل تافهة حتى نضب معين العلم، ومع هذا نشطت الكنيسة وسيطرت على الحرية الفكرية وجعلت الفلسفة خادما للعقائد بحيث كانت خاضعة تمام الخضوع لسلطانها

وبينما كانت الكنيسة تحاول القضاء على البقية الباقية من الحياة الفكرية قامت فى الأندلس تلك الحضارة العربية، وعنى العرب بدراسة العلوم الإغريقية واختص نفر منهم بالبحث فى كتب أرسطو وشرح فلسفته فانبعث نور العلم من بلاد الأندلس وشمل أوروبة، ووجدت فلسفة الأغريق وبخاصة فلسفة أرسطو طريقها إلى العالم المسيحى، ففزعت الكنيسة وخشيت على بنائها أن ينهار وحرمت على الناس دراسة المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة.

ولما لم تستطع الكنيسة القضاء على الحياة الفكرية الجديدة؛ لأن العرب نشطوا فى نشر علوم الإغريق، عمدت إلى كتب أرسطو وتناولتها بالشرح واتخذت منها سندا للعقائد الدينية فكانت فلسفة أرسطو من القيود الثقيلة التى منعت الناس من السير فى

سبيل الحرية الفكرية ؛ فقد حكى التاريخ أن عالما كتب إلى تلميذه الذى أخبر أنه رأى على وجه الشمس كلفا ما معناه « يابنى لقد قرأت كتب أرسطو مرارا وأنا واثق من أنه لم يذكر شيئا عن كلف الشمس ، فمن الواضح أن تكون النقط التى رأيتها على عينيك لا على وجه الشمس »

جدّ كثيرا من العوامل التى أيقظت العقل الأوربى من سباته العميق فاستيقظ يطلب الحرية ولم يرض أن يكون خادما لعقائد الكنيسة . وأول خطوة خطاها فى هذه السبيل التفرقة بين الدين والعلم ؛ لما وجد أن من عقائد الدين ما لا يمكن تأييده بالدليل المنطقى .

ومما تقدم نرى أن الفلسفة أوشكت أن تتخلص من الأسر الذى وقعت فيه فى أثناء العصور الوسطى وسنتكلم فى المستقبل على أسباب تلك النهضة الجديدة ونبين آثارها فى الحياة العقلية .

الفلسفة الاسلامية

نظرة تاريخية

كان العرب فى جاهليتهم أميين لا يقرءون ولا يكتبون متنقلين يتلمسون مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، يرعون ماشيتهم ويغير بعضهم على بعض ، وتقوم بينهم الحرب لأسباب واهية ، يعتمدون على أنفسهم فى حراسة منازلهم ، ويتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ، يجلون الشجعان ، ويتمدحون بسير الأبطال من قبائلهم ، يهتدون بمواقع النجوم فى ترحالهم ويتعرفون مهاب الرياح ، حتى يضربوا فى البادية خيامهم .

نشأ العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، الواسعة الأرجاء ، وشغلوا بتحصيل مطالب الحياة ، والمنافسة فى سبيل الرزق ، فلم يتسع وقتهم لدراسة علم ، ولا لأقامة دعائم الحضارة ، وتشييد الأبنية العظيمة ، على أنهم كانوا متنافرين متدابرين مختلفين فى العقائد ، وضروب العبادة ، وثنيين يعبدون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لم ينبغوا فى شىء سوى الخطابة وقرض الشعر ، ولا غرابة فقد كانت الخطابة عمادهم فى إقامة الحجة ، واستنهاض

الهمة، واثارة النفوس لحماية الأعراض، والذود عن الحياض، أما الشعر فقد كان سجل أيامهم، وسلاحهم الذى لا يفل، حتى بلغ من عنايتهم به أن كان لهم مواسم وأسواق يجتمعون فيها ليحتكم شعراء القبائل إلى رجل من ذوى الفضل والمكانة فيهم.

جاء الإسلام والعرب على ما وصفنا لك فألف بين قلوبهم، وجمع كلمتهم ودعاهم إلى توحيد الله وإلى النظر والتفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء فاستجابوا دعاءه ودخلوا فى الإسلام طائعين ورضوه لهم ديناً فتهذبت نفوسهم واستقامت عقائدهم وقويت شوكتهم وعنوا بالفتح ونشر الدين واقامة دولة اسلامية عظيمة السلطان واسعة الرقعة فسارت جيوشهم شرقا وغربا وكتب لهم النصر فى كل مكان حتى امتد ملكهم من المحيط الأطلسى إلى حدود آسيا القاصية.

فلما استقر لهم الملك ودونت الدواوين ومصرت الأمصار توجهوا إلى مدارسة القرآن وتفهم آياته واستنباط أصول الأحكام الشرعية وقواعد اللغة العربية، ولما كان القرآن مشتملا على كثير من الآى المتشابهة كان من الطبيعى أن يختلفوا فى تفسيرها إلى فرق: فمنهم من أخذ بظاهر التنزيل، ومنهم من أجاز التأويل، وكانت لهم إلى

جانب ذلك بحوث دينية أخرى تناولت خلق القرآن وحرية الإرادة والاختيار والجبر والخلافة وما يتصل بها على أن شيئاً من ذلك لم يدوّن أول الأمر بطريقة علمية .

ولما قامت الدولة العباسية وعظمت الحضارة الإسلامية واشتد اختلاط العرب بالأعاجم جد العلماء فى دراسة الثقافة الفارسية والإغريقية وشغفوا بكتبها وعنوا بنقلها إلى اللغة العربية فترجموا كتب أفلاطون وأرسطو واقليدس وجالينوس وسواهم وبحثوا فيها وتناولوها بالشرح والاختصار ، ومما شجع هذه الحركة اشتغال خلفاء بنى العباس أنفسهم بالعلم وتقريبهم العلماء من مجلسهم وبذلهم المال الوفير للمترجمين والنقلة والمجتهدين من المسلمين وغيرهم .

وكان المشتغلون بالفلسفة فى أول الأمر من رجال الدين أرادوا التوفيق بين عقائده والنظريات الفلسفية ، ولكنهم اختلفوا فى وجهة النظر وتفرقوا فى دينهم شيعاً فكان منهم المعتزلة والاسماعيلية وغيرهما من الفرق المعروفة فى تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية ، وكان من جراء هذا الاختلاف أن خاف جمهور المسلمين على دينهم من الفلسفة ووصموا المشتغلين بها بالإلحاد

والكفر حتى قالوا « من تمنطق فقد تزندق » ومما زاد الطين بلة أن قوماً من المستهترين حشروا أنفسهم فى عداد الفلاسفة واتخذوا من حرية الفكر التى تقوم الفلسفة على أساسها ذريعة لكثير من المنكرات التى ارتكبوها فأساءوا إلى الفلسفة وإلى المشتغلين بها وانصرف الناس عنها ، ولكن ذلك لم يمنع المفكرين من متابعة البحث فى المذاهب الفلسفية حتى نبغ منهم الرازى والفارابى وابن سينا ونصير الدين الطوسى ونشأت جماعات اشتغلت بنشر الفلسفة سراً بين طبقة المتعلمين ومنها جماعة إخوان الصفاء أصحاب الرسائل الفلسفية المشهورة .

واقتضت الجهود المستمرة التى قام بها المفكرون فى الخفاء وعلى الرغم من الدهماء أن تقوم حركة فكرية عظيمة يراد منها الدفاع عن الدين ودحض آراء المتطرفين والغلاة الذين اعتمدوا على العقل فى شئون الدين والدنيا وكان من الضرورى لنجاح هذه الحركة أن يدرس القائمون بها أصول المنطق ونظريات الفلسفة ومذاهب علم الكلام حتى يقرعوا الحجة بحجة مثلها والدليل بدليل من نوعه ، ومن أشهر هؤلاء حجة الإسلام الغزالى .

ثم قضى على الفلسفة فى المشرق وكان لذلك أسباب : —
منها أنها اتصلت بفكرة الإلحاد والزندقة عند كثير من المتدينين ، ومنها قيام السلطات التى فطرت على الجمود والتعصب والاستمساك بظاهر الكتاب والسنة ولو لم يرق فى نظر العقل ، ومنها أيضاً جهل الجمهور وخضوعه للجامدين من الفقهاء الذين خافوا على دينهم من الفلسفة فحملوا على أهلها حملة عنيفة واستطاعوا أن يوغروا صدر صلاح الدين ويغروه بقتل السهروردى حتى قتله سنة ٥٨٦ هـ .

واستمر الحال على هذ النحو حتى كانت غارة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ فأسرف فى قتل العلماء والأشراف وأرباب المكانة وسواهم ودمر دور الكتب وجمع ما اشتملت عليه وألقاه برمته فى نهر دجلة واتخذ منه جسراً يعبر عليه الناس مشاة وركباناً ، وبهذه الحادثة انتهت مأساة الفلسفة فى بلاد المشرق فلم يشتغل بها أحد اشتغالا منتجاً ولم يظهر لها أثر شامل كما كانت قبلا .

ولقد كان التنافس شديداً بين خلفاء بغداد وخلفاء الأندلس وكان من أثر ذلك التنافس أن وجدت الفلسفة طريقها إلى بلاد

المغرب على يد العلماء الذين كانوا يرحلون إلى بلاد المشرق في طلب العلم كأبي الحكم عمر بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فانه عاد إلى بلاده ومعه نسخة من رسائل إخوان الصفاء فتعلق الأندلسيون بالفلسفة وعكفوا على دراستها ونبغ منهم فيها عدد عظيم من بينهم « أبو محمد على بن حزم من رجال القرن الخامس الهجرى وله كتاب الفصل بين أهل الأهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها وابن باجه السرقسطى المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى وابن طفيل الذى كان معاصراً لابن الصائغ وهو صاحب الرسالة الشهيرة التى سماها حى بن يقظان ، ومن تلاميذه أبو الوليد بن رشد أشهر علماء الأندلس وأكبر فلاسفتها » « ومن بعده اضمحلت الفلسفة وكأنها كانت وديعة عند العرب » .

هذه نظرة مجملة نرى حقاً علينا بعدها أن نتعرف بشيء من التفصيل العوامل التى أوجدت هذا النوع من الحياة العقلية عند العرب خاصة والمسلمين عامة ومن أول هذه العوامل كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

القرآن الكريم

كتاب عربي فصلت آياته ثم أحكمت من لدن حكيم خبير نزل به الروح الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم فكان معجزته إلى العرب خاصة وإلى الناس عامة جمع به القلوب على الإيمان بالله الواحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد .

ووضع للناس أصول الأخلاق وأرشدهم إلى تدبير شئون معاشهم ومعادهم ونصب لهم أسمى الغايات وعبد لهم طريق الخير. ومازال يضرب الأمثال حتى رغبهم فيه فعرفوا سبيله واهتدوا إليه.

وقد نعى القرآن على التقاليد القديمة والمعتقدات المتوارثة. وأنكر على القوم محاكاتهم آباءهم فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وجادلهم بالتى هى أحسن وخاطب عقولهم ولفت أنظارهم إلى احداث العالم وإلى آثار الله فى خلقه ووسع دائرتهم الفكرية فكان ينتقل بهم من الأرض وأنهارها وجبالها وما على ظهرها من دابة إلى السماء ونجومها وسير الكواكب ومر السحاب وشروق الشمس

وغروبها وبزوغ القمر وأفوله « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت »

بهذه الآيات وأمثالها من كتاب الله تفتحت الأذهان المقفلة، واستيقظت العقول، واستنارت البصائر، فجدت فى البحث وطابت

العلم ، وكان من الطبيعى عند خاصة المسلمين أن يدرسوا القرآن الكريم ، ويتفهموا ما اشتمل عليه من أصول العقائد والأخلاق وأحكام العبادات والمعاملات ، ومن نظريات فى نشأة الإنسان وتكوينه والعالم ونظامه والأحداث الطبيعية وأسبابها ومبلغ ما بينها من ارتباط . وبقى القرآن محط الأنظار وموضع الاعتبار فى سائر الأقطار إلى يومنا هذا .

هذه كلمة مختصرة ومع اختصارها نعتقد أنها كافية لبيان أن القرآن الكريم كان من عوامل الثقافة والحياة العقلية عند المسلمين .

النقل والترجمة

خضع المسلمون لدينهم وجدوا فى نشره بين الأمم المجاورة لهم ، فرفعوا رايته فى كل مكان ، ودان لسلطانهم سكان البلاد التى فتحوها ، واختلط المسلمون بغيرهم ، وأخذوا عن الفرس والروم وأهل مصر وسواهم كثيراً من عناصر الحضارة وأنظمة الحكم وطرائق التفكير بعد أن صبغوها بصبغة الإسلام ، وعنوا عناية فائقة بعلم اليونان وفلسفتهم وأدب الفرس وحكمتهم ، وقام السريان

والنساطرة بحركة علمية عظيمة ، فنقلوا كثيراً من علوم اليونان إلى اللغة العربية. وكان لتلك الحركة أثر ظاهر فى النهضة الإسلامية، فلم يجئ القرن السابع للميلاد حتى وجدت تلك العلوم طريقها إلى الشرق ، وبخاصة قنسرين التى تعد بحق من أهم وسائط الحضارة الإسلامية . وكانت سوريا نقطة التلاقى بين الشرق والغرب ومحل تقابل القوتين العظيمتين الفارسية شرقاً واليونانية الرومانية غرباً ، فكان السوريون يذهبون بتجارتهم غرباً وشرقاً ، ثم يعودون بحكمة الفرس وعلوم الأغريق إلى بلادهم ، فالتقت فيها معارف الفرس وفلسفة الإغريق .

ونقلت هذه العلوم إلى اللغة السريانية التى كانت لغة الكنيسة عند اليعقوبيين فى سوريا والنساطرة فى العراق وفارس كما كانت لغة التعليم فى المدارس الكبرى هناك ، فأصبحت غنية بالمؤلفات اليونانية المختلفة ، وشجع الإسلام هذه الحركة واستمر النقل ، ولكنه كان إلى اللغة السريانية حتى عهد الدولة العباسية ، وإن كان قد ظهر فى عهد بنى أمية عدة رسائل فى الطب والكيمياء نقلت من اليونانية إلى العربية

ويبتدئ عصر الترجمة الحقيقى إلى العربية من عهد أبى جعفر المنصور، فإنه كان أول مشجع فى الدولة العربية على النهوض العلمى الذى بلغ شأواً عظيما فى عهده وعهد الرشيد، ووصل إلى الغاية القصوى فى عهد المأمون، فقد أنشأ داراً للحكمة تحت رياسة حنين ابن إسحاق الذى بقى رئيساً لها مدة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

ولم يكن النقل مقصوراً على علوم اليونان بل شمل المعارف الفارسية والحكمة الهندية، فنقل المسلمون إلى لسانهم معظم ما كان شائعاً من العلم والطب والفلسفة والفلك والأدب، وأخذوا عن كل أمة أحسن ما لديها، واختاروا من اليونان فلسفتهم فآثروها بالنقل، وكان شعارهم فى تلك الحركة العظيمة «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها»، لهذا كان الخلفاء والأمراء والوزراء يقربون العلماء والمتأدبين من مجلسهم لا يفرقون فى ذلك بين دين ودين ولا بين بلد وبلد، ويعزى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت». وقد كانت المؤلفات التى نقلت إلى العربية فى هذا العهد نواة صالحة أثمرت ثمرة طيبة

وآتت أكلها. واستفاد منها المسلمون وسواهم ممن اندمجوا في مدنيتهم منذ ظهور الإسلام إلى الآن

واشتهر بالترجمة كثير منهم آل بختيسوع من أولاد جرجيوس، ابن اسحاق العبادى شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة وكان المأمون يجزل له العطاء فيعطيه وزن مايترجمه ذهباً . ومن أولاده المشهورين إسحاق بن حنين وقد ترجم ما وراء الطبيعة وعلم النفس لأرسطو، وحبيش بن الأعسم الدمشقي ابن أخت حنين، وقسطا ابن لوقا البعلبكي من نصارى الشام وترجم طبيعيات أرسطو ومقولاته ، وأبو بشر بن يونس وترجم علم المنطق لأرسطو وإيساغوجى لفرفريوس الصورى، ومنهم أيضاً موسى بن خالد، ويحيى بن البطريق مولى المأمون ، وآخرون . وكان لهؤلاء إلمام باللغات اليونانية والسريانية والعربية، فنقلوا من اليونانية إلى السريانية والعربية

ومنهم الكاتب البليغ عبد الله بن المقفع ونقل إلى العربية من اللغة الفارسية واليونانية ويقال إنه ترجم بعض كتب أرسطو ، ولكن مما يؤسف له أن يد الضياع لم تبق على شيء مما ترجم عن اليونانية ، ومنهم الحسن بن سهل ، وإسحاق بن زيد وغيرهما ممن

نقل عن اللغة الفارسية ، ثم منكه وابن دهن : وقد اشتغلا بمارستان البرامكة وهما من اشهر النقلة عن الهندية

ولم يكن المترجمون بمجرد نقلة بل كانوا أصحاب رأى، وهم لذلك يدخلون فى عداد الفلاسفة وإن لم يصلوا إلى درجة الابتداع فى المذاهب الفلسفية

وكان لهذه الحركة أثر عظيم فى اللغة العربية فقد وثبت الوثبة الثانية بعد النهضة الأولى التى نهضتها بعد نزول القرآن ، فدخل فيها كثير من المعانى الاصطلاحية والتراكيب الفنية والعبارات العلمية، واتسع صدرها لكثير من الألفاظ الأجنبية بعد أن صقلتها بما يتلاءم مع مخارج الحروف وقواعد العربية، وأصبحت لغة العرب لغة الحكمة والكتابة والتأليف ، وصار أهلها ذوى بحث وتفكير، فعظمت الحركة العقلية بينهم واتسع نطاقها وشملت كل شىء من مظاهر الحياة ، غير أن آثار اليونان فيما يخص بالفنون الجميلة بقيت بعيدة عن اللغة العربية لانصراف المسلمين إلى المبادئ الدينية وإلى كل ما يتوصلون به إلى إدراك هذه المبادئ وكان لهم من الحكمة اليونانية ما أدركوا به غايتهم

ولقد أسلفنا أن المسيحية اختلطت بالفلسفة الإغريقية وأن رجال الدين اتخذوا من الحكمة الإغريقية وسيلة لتأييد بعض المذاهب الدينية، وفسروا مذاهب الفلسفة الأولى تفسيراً يلائم أغراضهم، فحرفوها عن مواضعها وعدلوا بها عن مقاصدها؛ ولهذا نقلت الفلسفة الإغريقية إلى العربية مشوهة مشوبة بكثير من الآراء المضطربة، ولم يستطع النقلة أن يفرقوا بين الأصيل منها والدخيل فيها؛ إذ لم تكن لديهم العدة الكافية للنقد الذى يمكنهم من رد كل رأى لصاحبه، وهذا هو السبب فى أن فلاسفة الإسلام الأولين لم يقفوا على آراء افلاطون وأرسطو خالصة من الغريب عنها كما وضحه النقد الحديث

وعلى الرغم من هذا كله قد كان للفلسفة العربية قيمة عظيمة فى تاريخ المدنية ونشوء الحياة الفكرية؛ فقد حافظت على تراث الأغريق عدة قرون وكانت حلقة اتصال بين القديم والحديث كما سنبين ذلك بعد فى أسباب النهوض الأوربى

ومما تحسن الإشارة إليه فى هذا المقام أن اليونان قبل اعتناقهم الدين المسيحى كانوا على درجة عظيمة من الرقى الفكرى، فلما

دنوا بالمسيحية زالت فلسفتهم وانقرض حكماؤهم لشدة ما بين عقيدتهم الجديدة والفلسفة من الخلاف : فهم إنما اشتغلوا بالفلسفة ومارسوا العلوم وبرعوا فيها أيام وثنيتهم وقبل أن يخضعوا للمسيحية التي باعدت بينهم وبين حرية التفكير ؛ فأما العرب فقد كانوا فى جاهليتهم أبعد الناس عن الفلسفة مع معاصرتهم لليونان واختلاطهم بهم من أقدم الأزمنة ، فلما جاء الاسلام أخرجهم من جمودهم وحثهم على البحث والفكر ومهد لهم سبيل الفلسفة ، فكأن دين محمد صلى الله عليه وسلم على الضد من سائر الأديان يغذى الفلسفة ويشد أزرها ؛ لأن قواعده فطرية لا تنافى المنطق فى شيء

أما بعد فقد أجملنا أسباب الحركة العقلية فى الإسلام فلم يبق علينا إلا أن نذكر بعض زعمائها المبرزين الذين امتازوا برسوخ القدم فيها وسمو الإدراك وأصالة الرأى ، وفى مقدمة هؤلاء الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد

الكندى

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها اذ ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان، وكان معظم أجداده ملوكا باليمامة والبحرين، وقد ادعى لفرط إعجابه بمعارف اليونان ومدنياتهم أن عرب قحطان من أصل يونانى؛ لأن جدهم قحطان كان أخا ليونان جد اليونانيين، وكان هذا من السهل عليه فى بلاط العباسيين لجهلهم بأنساب غيرهم من الأمم ولإعجابهم باليونان.

نشأ وترعرع فى كنف العباسيين وعاش فى ظل ثلاثة من خلفائهم: المأمون والمعتصم والمتوكل، وقد نال من حظوة أولهم ما نال أمثاله من العلماء. تخرج فى مدارس بغداد بعد مدارس البصرة وكان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وتأليف اللحون وطبائع الأعداد وعلم النجوم، وكان على إلمام بعلوم اليونان والفرس وحكمة الهنود؛ ولذا ندبه المأمون فيمن ندب من الحكماء لنقل العلوم من اليونانية والسريانية إلى العربية. وقد عاش معظم أيامه عيشة هنيئة فى ظلال دواوين الحكومة العباسية لعهد المأمون والمعتصم فتفرغ لفلسفة أرسطو وأخذ فى شرحها

والتعليق عليها فصححت نظره فى الأشياء وشحذت ذهنه ووسعت دائرة معارفه وأفكاره . ويعتقد بعض الإفرنج أنه من العدد القليل من فلاسفة العالم النادرين فى الذكاء والعلم الذين ظهروا قبل القرن السادس عشر الميلادى . وعلى الرغم من كل ذلك فلم يكن الكندى عبقريا إذ لم يكن له مذهب فلسفى خاص به بل كان عالماً مصنفاً يعلّم العلم وينشره ويشرح أمهات الكتب ويضع عليها كل ما تحتاج إليه من التعليقات التى توضحها وتزيل غموضها وإبهامها .

وقد احتذى فى تأليفه حذو أرسطو وفسر من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ، وتكاد تشتمل تآليفه جميع العلوم : فقد دوّن كتباً فى الفلسفة والسياسة والمنطق والرياضة والفلك والطب وعلم النفس والموسيقى وسواها وذكرها ابن النديم فى الفهرس فارجع إليه إن شئت .

ولما كان القرن الثالث الهجرى حافلا بفضلاء المعتزلة لم يكن له بد من الاحتكاك بهم والأخذ عنهم ؛ ولذلك صبغت فلسفته بالصبغة المعتزلية . وكان يقول بوحدة واجب الوجود وبساطة ذاته العلية ، ومعنى ذلك عدم الاعتراف له تعالى بصفة مميزة عن

الذات زائدة عليها، وقد كان أرسطو ينكر الصفات ويقول بأنها هى والذات شىء واحد وهذا معنى قولهم « بساطة الوجود »

ولا خلاف بين أهل السنة والمعتزلة فى أن الله تعالى متصف بصفات معينة من علم وقدرة وإرادة وغيرها، وإنما الخلاف فى أن الصفة عين الذات أو زائدة عليها: فالمعتزلة يقولون بأن الله عليم بذاته قادر بذاته دون احتياج إلى صفة زائدة عن الذات، وذلك دفعاً لتعدد القدماء. أما الصفاتية وهم جمهور المسلمين فيقولون إن الله عليم بصفة هى الكون عالما إلى آخره وأن الصفة ليست منفصلة عن الذات، فهم فى الحقيقة متفقون فى جوهر المسألة

وكان الكندى يرى أن الله خلق العالم وأثر فيه تأثير السبب الأعلى فى مسببه المؤثر فيما بعده من المسببات على التوالى والترتيب فخلق العقل الأول الكامن فى عالم الحقيقة الذى له التأثير العام والقدرة على تصوير المادة كما شاء، وبين العقل الأول والعالم المادى توجد النفس الكلية التى سببت عالم الأفلاك وعنها فاضت النفس الإنسانية المتصلة بالأجسام بتأثيرها فيها مع استقلالها عنها بجوهرها العقلى

وقد حدد النفس بأنها جوهر بسيط لا يفنى هبط من عالم العقل إلى عالم الحس مع بقاء استعداده لذكرى منشئه الأول ولا تشعر وهى فى الجسم بأنها فى وطنها بل تحس دائماً بأنها غريبة فيه . وهى دائماً فى آلام مستمرة لكثرة احتياجاتها التى لا يتحقق منها شىء ، لأن هذا العالم المادى متغير متقلب لا تحقق فيه رغبات النفس بل أنها قد تحرم فى أى لحظة مما تحب وتشتهى فلا ينتظر البقاء والدوام إلا فى العالم العقلى ، فإذا اشتاقت النفس لأن تحقق رغباتها وألا تحرم مما تحب ، وجب أن تتوجه إلى العالم العقلى فإنه يصير إلى الحقيقة والخلود ، وذلك يكون بالانصراف إلى الله تعالى وخشيته وطلب العلم والقيام بصالح الأعمال . أما التعلق بالعالم المادى فكالتعلق بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ومن هذه النقطة ابتدأ الكندى فلسفته الأخلاقية

ويرى الكندى أن الإنسان ينال معارفه عن طريق الحواس والعقل : فالحواس هى الطريق التى توصل المحسوسات إليه فهي تدرك الجزئيات أو الماديات ، أما العقل فخاص بإدراك الكليات

(من أجناس وأنواع) أو المعقولات

وهو يقسم العقل قسمة رباعية كما يلي : —

(١) العقل الحقيقى ، أو جوهر الأشياء الروحية فى الكون ، أو النفس الإلهية ، أو الموجود الأول ، أوالسبب الأول

(٢) العقل الكامن فى النفس الإنسانية ، والاستعداد العقلى النفسى لها

(٣) العقل المستفاد ، وهو عادة النفس المكتسبة المقومة لها والتى ترشدها كما ترشد الكاتب صناعه الكتابة مثلا

(٤) العقل الفعال الذى يبرز الحقائق الكامنة فى النفس إلى الوجود الخارجى. والعقل المستفاد أو إبراز العقل الكامن فى النفس إلى عادة مكتسبة صادرٌ عن العقل الأول ؛ ولذا كانت كل التصورات العقلية التى هى أرقى مدركات الإنسان آتية إليه من الله تعالى ، أما العقل الفعال فهو من فعل الإنسان نفسه

ولما كانت فلسفة الكندى مطبوعة بطابع المعتزلة ومتأثرة بها رأى بعض حساده من الجهال مغمزا فوشوا به عند المتوكل وكان متسرعاً فنقم منه ولم يرع خدمته له ولأسلافه ونكبه فى حقوقه و كتبه

ويظن أنه عمر نحو ٧٠ سنة ، ولم يذكر مؤرخو العرب تاريخ ولادته ولا وفاته بالتدقيق ، ولم يذكروا أكثر من أنه من أهل القرن الثالث الهجرى ، وقال بعض الغربيين إن وفاته كانت سنة ٢٥٨ هـ

لم تدم مدرسة الكندى طويلا بعد موت زعيمها ، ولم يصل إلينا من تأليفه إلا النذر اليسير ، ومن المحتمل أن رسائل إخوان الصفا محتوية على شيء من كتاباته ، ولكنه من المتعذر علينا الآن تعيين مقدار ما اشتملت عليه من ذلك

ومن تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السَّرخسى عامل المعتضد ، وهو أشهر تلاميذه وأخلصهم ، ومنهم أبو معشر جعفر بن محمد البلخي ، وكان فى أول أمره من ألد أعداء الكندى ، ولكنه أصبح من تلاميذه المعجبين به

الفارابى

كان أبو النصر محمد بن محمد بن أُوزَلْغ فارسى الأصل من أهل فاراب من بلاد خراسان ولد فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ثم رحل إلى بغداد فتلقى العلم بها على عالم مسيحي

هو يوحنا بن جيلان . وقد أتقن العلوم الحكمية والرياضيات وبرع فيها ، وأخذ المنطق عن أبى بشر متى بن يونس

وقد أثرت صحبته له فى ذوقه وقيل أن الفارابى «كان يجتمع بأبى بكر بن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق » . وكان عالماً بقواعد الطب الكلية من غير أن يزاول أعمالها أو يحاول حل جزئياتها ، كما كان على إلمام باللغة العربية والفارسية والتركية ، وقيل إنه كان يعرف اليونانية والسريانية أيضاً

ولم يزل مقيما فى بغداد لتحصيل العلوم الفلسفية حتى وصل فيها إلى درجة فاق بها جميع أهل عصره ، وقد ألف بها معظم كتبه، ثم سافر إلى دمشق وأقام بها مدة قصيرة ، ثم رحل إلى مصر حيث أتم كتابه السياسة المدنية وهو كتاب المدنية الفاضلة ، وبعد ذلك عاد إلى حلب واتصل بسيف الدولة على بن حمدان صاحب المتنبى فأكرمه وقدّمه، ثم رحل فى صحبته إلى دمشق فأدركه أجله بها سنة ٣٣٩ هجرية فصلى عليه سيف الدولة فى نفر من خاصته

وقال ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء « إن الفارابى

كان ناطورا فى بستان بدمشق وكان دائم الاشتغال بالفلسفة ، وكان فقيراً يستضىء فى الليل بالقنديل الذى للحارس، ثم إنه عظم شأنه»

ولقد كان الفارابى هادئ الطبع زكى النفس كريم الأخلاق زاهداً مكتفياً بما يقوم بأوده مكباً على الفلسفة ، ولكنه كان مع زهده يميل بطبعه الى التمتع بالحلال والجمال الطبيعيين ؛ ولذلك كان لا يوجد الا عند المياه الجارية والأشجار الملتفة فينفرد فيها ويعلق التعاليق ؛ ولذلك جاء كثير من تأليفه فى رسائل خاصة ببعض هذه الموضوعات

وهو فى مقدمة الفلاسفة الإسلاميين الذين طالعوا كتب أفلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها وأجادوا فهمها : فإليه يرجع الفضل فى ضبط كتب أرسطو وتعيينها وتخليصها من غيرها قبل ترجمتها وشرحها ؛ ولذا سمى المعلم الثانى أو أرسطو العرب ، سئل مرة من أعلم ؟ أنت أم أرسطو ؟ فقال « لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه »

فهو كان أكبر فلاسفة الاسلام قبل ابن سينا ، وعن كتبه أخذ ابن سينا وبها انتفع

وكان زعيم فرقة المتكلمين وهى أكبر فرقة فلسفية فى عصره، كما كان أبو بكر الرازى زعيم فرق الفلاسفة الطبيعيين. والعلوم التى اشتغل بالتأليف فيها: المنطق، والطبيعيات، وماوراء الطبيعة، والأخلاق، والسياسيات. وتبلغ مصنفاته نحو ١٢٨ مؤلفاً يرجع فى معرفتها الى ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء، وابن النديم فى الفهرست

فلسفته: كانت فلسفته حلولية فكان يقول بالوحدة الإلهية، ويرى أن كل موجود فهو إما واجب الوجود وإما ممكن الوجود: فواجب الوجوب هو الله عز وجل وهو واحد لا يتعدد، موجود بطبيعته بغير علة حائز لأعلى درجات الكمال أزلى أبدى مكتف بذاته لا يتغير ولا يتبدل، وهو الكائن الأول، والعلة الأولى لكل الأشياء.

وأما ممكن الوجود فيستلزم فرض علة لوجوده، ولا يمكن أن تكون سلسلة العلل بغير نهاية فهى لابد تنتهى إلى الكائن الأول الذى تفيض عنه الموجودات كلها: فينبعث عنه الكائن

الثانى أو المخلوق الأول أو العقل الأول الذى يحرك الجرم السماوى المحيط أو السماء الأولى أو الفلك الأعلى ، وبعد العقل الأول تأتى الأرواح الثمانيـة المحركة لباقى الأجرام السماوية على الترتيب الآتى :

العقل الثانى وهو المحرك لـكرة الـكواكب الثابتة

والعقل الثالث وهو المحرك لـكرة زحل

والعقل الرابع وهو المحرك للمشترى

والعقل الخامس وهو المحرك للمريخ

والعقل السادس وهو المحرك للشمس

والعقل السابع وهو المحرك للزهرة

والعقل الثامن وهو المحرك لعطارد

والعقل التاسع وهو المحرك للقمر

وهذه هى العقول التسعة المحركة للأفلاك العلوية السماوية، وهى المعروفة بالملائكة السماوية ، وتـكون المرتبة الثانية فى الوجود

وبعد العقل التاسع يأتى العقل الفعال فى الإنسانية ، ويسمى بالروح القدسى ، ويجمع بين عالمى السماء والأرض ، وهو فى المرتبة

الثالثة للوجود، وفى المرتبة الرابعة النفس الإنسانية ، وتتعدد النفس الإنسانية والعقل الفعال بتعدد بنى آدم ، ويلى النفس الإنسانية فى المرتبة الهيولى والصورة : فيكونان المرتبتين الخامسة والسادسة للوجود ، وبهما يقفل باب المراتب الروحية الست المحركه للأجرام السماوية ، ومنها المراتب الثلاث الأولى ـ وهى الله ، والعقول التسعة والعقل الفعال فى الإنسانية ـ عقول مجردة محضة

أما المراتب الثلاث الباقية وإن كانت غير جرمية فلها اتصال بالأجسام .

أما العالم المادى فله مراتب ست أيضاً هى

(١) الأجرام السماوية (٢) الأركان الأربعة أو الأجسام الأولية الطبيعية وهى الماء والهواء والنار والتراب وما جانسها كالبخار واللهب (٣) المعادن (٤) النبات (٥) أجسام الحيوان (٦) أجسام الإنسان

وتجد آراء الفارابى مفصلة فى كتابه المدينة الفاضلة ، وعيون المسائل ، وغيرهما

ومن رأيه أن علم الأخلاق إنما يبحث فى القوانين الضرورية

للسلوك الإنساني ، وكان يوافق أرسطو في بعض الآراء الخلقية ، ويتفق مع أفلاطون في بعضها . وكان يصرح بأن الله تعالى منح الإنسان عقلا يميز الخبيث من الطيب ، فهو به يستطيع أن يتبين الخير والشر من الأفعال ، فهو بذلك كان مخالفاً لأهل السنة . والإنسان بهذا العقل له حرية الاختيار : فهو يفعل ما يمليه عليه عقله ؛ ولذا كان مسئولا عن أفعاله بفضل هذا العقل الذي امتاز به عن سائر الحيوان

وكان يرى أن السعادة هي الخير المطلوب لذاته ، وليست وسيلة يتوصل بها إلى الحصول على غيرها من الغايات : فليس وراءها شيء آخر يمكن أن يناله الانسان

ابن سينا

حياته : هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري ولد بقرية بالقرب من بخارى سنة ٢٧٠ هـ انتقل به أبوه إلى بخارى وهي يومئذ حافلة بالعلماء في زمن نوح بن منصور الساماني . وكان من صغره شديد الذكاء نادرة عصره ، حفظ القرآن وشيئاً كثيراً في الأدب قبل أن يبلغ العاشرة من عمره . وأخذ

يقرأ الفقه ويطالع كتب المنطق والهندسة والطب والفلسفة والطبيعة ،ولم يدرك السادسة عشرة من عمره حتى تعلمها ، ثم تفرغ للتوسع فيها مواصلا ليله بنهاره .

واتفق أن مرض الأمير نوح ، فذُكر له ابن سينا فاستقدمه إليه ، فشفاه الله على يديه ، فقربه إليه وفتح له خزانة كتبه ، وكانت نادرة المثال، فاطلع على ما بها من كتب ودرسها وانتفع بما فيها من الدقائق ، ووعى زبدتها ، وتم له ذلك وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وأخذ فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وارتفعت منزلته ، وتولى بعض مناصب الدولة، ثم مات والده وهو فى الثانية والعشرين، فتنقل فى بلاد خراسان وهو موضع الإعجاب ومصدر الاستفادة

وقد مرت به حوادث كثيرة مختلفة وقاسى من المحن والبلايا ما يقاسيه طلاب المعالى .

وكان شديد القوى كلها وكانت قوة الحب لديه أقوى وأغلب ، وقد أثر انهما كه فى إرضائها فى مزاجه وبنيته ، وكان من أسباب علته ، واشتداد وطأتها عليه . ولما رأى دنو أجله ، وعلم أن قوته

قد خارت ، وأنها لا تفي بدفع المرض أهمل معالجة نفسه حيث لا تنفع، ثم تاب إلى الله وتصدق بأثمن ما يملك على الفقراء ، وأعتق مماليكه ، وانقطع للعبادة فجعل يختم فى ثلاثة أيام ختمة، وأعد للقاء ربه عدته، وقضى وعمره سبع وخمسون سنة .

علمه وفلسفته : يعد ابن سينا أكبر أساتذة فلسفة أرسطو فى القرون الوسطى ؛ لأنه أخرجها ورتبها بنظام محكم ووسع نطاقها بما أدخله عليها من الأفلاطونية الحديثة ، وكانت شهرته فى الطب فوق شهرته فى الفلسفة بكثير ، أما الشهرستانى فيرى أنه جدير بأن يكون نموذجاً لفلاسفة الإسلام، وأن حجة الإسلام الغزالى لم يقصد بحملته على الفلاسفة فى كتاب تهافت الفلاسفة إلا ابن سينا ، وهذا يدل على عظم مكانته بين فلاسفة المسلمين .

وتكاد فلسفته تكون لاهوتية ، وقد قال كالفارابى فى نظرية الكائن بالضرورى والممكن ، ولكنه أضاف إليهما قسما ثالثاً فقسم الكائن ثلاثة أقسام : —

(١) ما كان ممكنا فقط وأدخل فيه كل ما يولد ويفنى ،

(٢) ما كان ممكنا بذاته واجبا بسبب خارج عنه كالعوالم

والأفلاك والعقول التى هى بذاتها ممكنة ، ولا تصير واجبة إلا باتصالها بالعلة الأولى .

(٣) ما كان واجباً بذاته وهو الله تعالى .

وقد عارضه ابن رشد فقال « إن ما كان واجباً بسبب خارج عنه لا يمكن أن يكون ممكنا بذاته إلا إذا هلك السبب الخارج ، وهذا مستحيل فيما فرضه ابن سينا ؛ لأن السبب الخارج هو الله تعالى ، وهو واجب الوجود ، وليس عرضة للهلاك .

وقد قال بأزلية العالم التى تختلف عن أزلية الله تعالى بأن لها سبباً خاصاً مرتبطاً بها ، وهذا السبب لا يقع فى الزمان ، أما الله تعالى فأزلى الوجود بذاته .

وكان يقول بامتداد إحاطة علم الله بالموجودات العامة وينسب إلى نفوس الأفلاك والدوائر العلم بالجزئيات وأن الله بواسطة تلك النفوس يتصل علمه بالموجودات كلها . وقد رأى أن لكل كلى وجوداً سابقاً فى علم الله تعالى ، ثم وجوداً فى الماديات ، ثم وجوداً ذهنياً من تلك الجزئيات .

وقد اجتهد فى مواضع عدة أن يلبس عقائد الدين لباساً عقلياً ، وحاول أن يوفق بين الفلسفة والدين وخصوصاً فى مبحث

النبوات والخوارق والقدرة الأزلية . فكانت الشرائع السماوية والقوانين الأدبية تشغل مكاناً فسيحاً فى فلسفته، ومع تساهله إكراماً للدين الإسلامى فإنه لم يحدث فى مجموع فلسفة أرسطو التى يظهر عدم اتفاقها مع الدين الحنيف تغيراً كبيرا

مصنفاته : إن فضل ابن سينا كبير فى نشر الفلسفة بين الناس بما صنفه من المؤلفات التى تربو على المائة، وأهمها كتاب القانون فى الطب أخذ فى وضعه بعد سن الثانية والعشرين حين مات والده وتنقل فى بلاد خراسان ، وهو المؤلف الذى خلد ذكره وأكسبه صيتاً بعيداً فى أوربة حيث بقى أساس العلوم الطبية وعمدة الطلاب فى الشرق والغرب مدة قرون متتالية .

ومنها كتاب الشفاء فى الفلسفة، وهو من موسوعات العلوم فى ثمانية عشر مجلداً وقد اختصره فى كتاب النجاة : وهو يشتمل على ثلاثة أقسام : المنطق، والطبيعيات ، والإلهيات ، وقد طبع كل من الشفاء ومختصره عدة مرات باللغة اللاتينية .

اخوان الصفاء

هم جماعة من فلاسفة العصر العباسى ألفوا فى بغداد جمعية سرية سموها « جمعية إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء » فى منتصف القرن الرابع الهجرى.

وكانت غايتهم من تأسيس جمعيتهم القيام بدراسة الفلسفة ومزاولة أبحاثها سراً ؛ لأن المشتغل بالفلسفة فى العصر العباسى كان متهما بالإلحاد والزندقة مرمياً بالكفر مما اضطر الفلاسفة إلى التستّر وكتمان أمرهم . ولم يعرف من أعضاء هذه الجمعية غير خمسة هم : أبو سليمان محمد بن معشر النسبي ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجابى ، وأبو احمد المهرجانى ؛ والعوفى ، وزيد ابن رفاعه ، وقد ذكر القفطى الأربعة الأول منهم :

وقد وضعوا لهم دستوراً يسيرون عليه اشتمل على شروط مجلس اجتماعاتهم ، والصفات التى ينبغى توافرها فيمن يريد الانضمام إليهم ، وبين مراتب أعضائهم ، والألقاب التى تعطى لكل منهم . قال القفطي فى أخبار الحكماء « وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة

والنصيحة فوضعوا مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » .

كانوا يجتمعون للمباحثة فى الفلسفة على اختلاف فروعها فيدرسون فلسفة اليونان ، وآراء الفرس ، وحكمة الهنود ، وأقوال فلاسفة الإسلام ، وكونوا من كل ذلك مذهبا خاصا بعد تعديله على مقتضى الشريعة الإسلامية ، فجاءت تعاليمهم مزيجا من أبحاث الأفلاطونية الحديثة ، والتصوف ، وآراء أرسطو فى الطبيعيات ؛ وفيثاغورث فى الرياضيات ، وقد دونوا بعد البحث الدقيق ، والنظر الطويل تعاليمهم فى اثنتين وخمسين رسالة سموها « رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء » وهى أول دائرة معارف ظهرت فى الوجود . وتشمل فلسفتهم النظر فى هذا العالم وكل ما احتواه : فقد تضمنت كل علم طبيعى ، ورياضى ، وفلسفى أو إلهى أو عقلى ، هذا إلى

بعض الآراء التى لم يوفق أهل هذا العصر إلى أحسن منها .

وقد كان لانتشار رسائلهم أثر كبير فى رقى العقول وتقدم العلوم . وكان المعتزلة ومن سلك مسلكهم يتناقلونها ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً حتى دخلت بلاد الأندلس على يد الحكم عمر بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى بعد مائة سنة من تدوينها ، وما لبثت أن انتشرت هناك حتى تداولها أصحاب العقول البحاثة ، وأخذوا فى درسها وتدبرها ، وكانت سبباً فى انتشار الفلسفة ببلاد الأندلس كما تقدم .

وقد ترجمت إلى لغات : منها اللاتينية والألمانية ، ولها قيمة عظيمة فى أوربة .

ومن مبادئهم أن العالم إنسان كبير ، والإنسان عالم صغير ، فالعالم هو السماء والأرض وما بينهما من الخلائق أجمعين ، وهو جسم واحد بجميع أفلاكه وأطباق سمواته ، وأركان أمهاته ومولداته وله نفس واحدة سارية فى جميع جسمه ، سريان نفس الإنسان الواحد فى جميع أجزاء جسده ؛ وهذه نظرية قال بها فلاسفة اليونان ، وأشار إليها ابن سينا فى قوله « إن الإنسان انطوى فيه العالم الأكبر »

وتزعم أنك جسم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

واتخذها هربرت سبنسر أساساً لبحثه فى علم الاجتماع

وقالوا فى شرح معنى القيامة مايلى : « إنما يدوم دوران الفلك مادامت النفس الكلية مربوطة به فإذا فارقته قامت قيامته الكبرى.... فإذا فارقت النفس الجسد قامت قيامتها ، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله [من مات فقد قامت قيامته] ، وإنما أراد قيام النفس لا الجسد ، لأن الجسد لا يقوم عند الموت ، بل يقع وقوعا لا يقوم بعده إلى أن ترد إليه النفس ثانية » إلى أن قالوا « واعلم بأن النفس إذا فارقت هذا الهيكل فليس يبقى معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلا ما استفادت من المعارف الربانية ، والأخلاق الجميلة الملكية ، والأعمال الصالحة الزكية المرضية . . . . وكلما رأت تلك الصورة فرحت بها وامتلأت سروراً وذلك هو ثوابها ونعيمها . . . وإذا كانت أخلاقها سيئة ، وأعمالها فاسدة . . . فكلما لاحظت ذاتها رأت مايسوءها ، وتريد الفرار منه ، وأين المفر لها من ذاتها »[١]

وجاء فى الرسالة السابعة من الجزء الثالث ماملخصه

---

(١) رسائل اخوان الصفاء

واعلم أن بعث الأجساد من القبور إنما يكون إذا ردت إليها تلك النفوس والأرواح التى كانت متعلقة بها وقتا من الزمان فتنتعش تلك الأجساد وتتحرك ، وتحس ثم تحشر وتحاسب وتجازى ؛ لأن الغرض من البعث هو المجازاة . . . وردّ النفوس الناجية إلى الأجسام الفانية ، ربما يكون موتالها فى الجهالة واستغراقا فى ظلمات الأجسام . فأما بعث النفوس وقيام الأرواح فهو اليقظة من رقدة الجهالة ، والحياة بروح المعارف ، والخروج من ظلمات عالم الأجسام الطبيعية ، والترقى إلى عالم الأرواح ، والرجوع إلى عالمها الروحانى ، ومحلها النورانى ، ودارها الحيوانى الذى أشار اليه عز وجل بقوله « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وكانوا يذهبون إلى أنّ « أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات : —

إحداهما من جهة اختلاف تركيب أبدانهم ومزاج أخلاطها

والثانية من جهة تُرَب بلادهم واختلاف أهويتها والأزمان التى تنشأ فيها

والثالثة من جهة نشوئهم على عادات آباءهم من سنن دياناتهم ، وعلى عادات من يربيهم ويؤدبهم

والرابعة من جهة موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليدهم ومساقط نطفهم ، وهي الأصل وباقيها فرع عليها » وقد شرحوا ذلك كله فى الرسالة التاسعة من القسم الأول من رسائلهم

ولم يغب عنهم تأثير الموسيقى فى تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق : فهى ترق القلوب ، وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب ، وتصلح الضمائر ، وتدعو إلى الشجاعة والإقدام « وأما علة تحريمها فى بعض الشرائع فهو من أجل استعمال الناس لها على غير السبيل التى استعملها الحكماء بل على سبيل اللهو والترغيب فى لذة شهوات الدنيا والغرور بأمانيها »

وجاء فى الرسالة التاسعة من الجزء الأول ماملخصه :

واعلم ياأخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع : فمنها مرتبة الأنفس الإنسانية ، ومنها ماهى فوقها ، ومنها ماهى دونها : فالتى دونها سبع مراتب ، والتى فوقها سبع أيضا ، وجملتها خمس عشرة مرتبة ، والمعلوم من هذه المراتب التى ذكرناها عند العلماء ، خمس : منها اثنتان فوق رتبة الإنسانية ، وهى مرتبة النفوس الحكمية الملكية ، ومرتبة النفوس النبوية القدسية .

واثنتان دونها : وهى مرتبة النفس النباتية، والنفس الحيوانية، .... أما مرتبة النفس الإنسانية ، فهى التى ذكرها الله بقوله : [لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم] وأما مرتبة النفوس الحكمية، فقد أشار إليها بقوله : [ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما] وقال أيضا [أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس وكمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها] يعنى الإنسان أحيينا نفسه بنور الهداية ، وهذه هى مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراسخين ، وأما مرتبة النفوس النبوية، فإليها أشار بقوله جل ثناؤه [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات]

وأما المراتب التى دون النباتية ، والتى فوق القدسية فبعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الإلهية ، فكيف على غيرهم ؟

ومن الأخلاق والقوى ماهى منسوبة إلى النفس النباتية الشهوانية ، كشهوة الغذاء ، ومنها ماهى منسوبة إلى الحيوانية الغضبيه ، كشهوة الرياسة ، ومنها ماهى منسوبة الى النفس الإنسانية الناطقة ، كشهوة العلوم والمعارف ، ومنها ماهى منسوبة إلى العاقلة الحكمية ، ومنها ماهي منسوبة إلى الناموسية القدسية

كشهوة القرب إلى الله ، والزلفى لديه وقبول الفيض منه وإفاضته على من دونها من أبناء جنسها . هذا وكل هذه النفوس تشترك فى شهوة البقاء على أتم الحالات وأكمل الغايات ، وكراهية الفناء ، والنقص عن الحال الأكمل والأفضل .

وقد ظن بعض الباحثين أن رسائل إخوان الصفاء من وضع دعاة الباطنية ، واستدلوا على ذلك اشتملت عليه من المسائل الكثيرة التى يتبين من خلالها التشكيك فى الدين ، وتخريج آى القرآن الشريف ، والسنة الحنيفة على غير حقيقتهما مما يوافق مبادئ الباطنية .

الغزالى

ولد أبو حامد الغزالى بطوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هجرية ودرس العلوم فى بلده ، ثم رحل فى طلب العلم إلى نيسابور ، وهناك تلقى علم الكلام على إمام الحرمين ، فأتقنه وبرز فيه على أقرانه ، ولما مات أستاذه خرج من نيسابور الى العسكر ، والتقى هناك بنظام الدولة وزير السلطان ملك شاه السلجوقى فأكرمه وسهل له سبل المعيشة ، ووكل إليه إدارة

المدرسة النظامية ، وهى الجامعة الشهيرة التى أسسها نحو سنة ٤٦٠هـ وكان عمر الغزالى إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة ، وبعد سنين قليلة تركها وسافر الى مكة لأداء فريضة الحج ، وبعد جولة فى دمشق وبيت المقدس والإسكندرية عاد إلى طوس وانقطع إلى حياة الفكر وعاش عيشة المتصوفين وأكب على التأليف وكانت غايته منه تقرير فضل الإسلام على غيره من الأديان وعلى الفلسفة ؛ ولذا سمى حجة الإسلام وزين الدين، ثم هجر التأليف، وعاد إلى إدارة المدرسة النظامية للتدريس بها ، وما لبث أن غادرها طالباً الحياة الروحية ، وأسس ملجأ للصوفية ، وقضى بقية أيامه فى العبادة والتأمل حتى لقى ربه سنة ٥٠٥ هجرية .

وهو يعد من أعلام الفكر العربى الإسلامى ، ومن أئمة أهل البحث والنظر ، ومن أكابر متكلمى الأشاعرة وفقهاء الشافعية ويؤخذ مما قاله فى كتابه [المضنون به على غير أهله] أنه كان منذ صغره فى تعطش إلى إدراك الحقائق ، وأن البحث وراء الحقيقة كان غريزة فطرية فيه ، وأنه قاسى كثيراً فى استخلاص الحق، كما

أنه ازدرى الفلسفة وارتضى التصوف، وهذا هو مفتاح حياته العقلية. ولقد ظل طول حياته يحاول كشف أسرار كل طائفة بحرية مطلقة لافرق فى ذلك بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع: فجمع فى بحثه بين درس الفيلسوف ليقف على كنه فلسفته، والمتكلم ليطلع على غاية كلامه ومجادلته، والصوفى ليعثر على سر صفوته، والزنديق والملحد ليتجسس وراءه لينبه على أسباب جرأته وزندقته.

وكان يقول بأنه لاقيمة لغير اليقين، واقتنع أولا بأن اليقين ينحصر فى الحسيات والضروريات، ثم رأى بالتجربة والمشاهدة أن الحس ليس أهلا لأن يوثق به؛ فولى وجهه شطر العقليات التى تنتهى بالأوليات. ولكنه رأى بعد ذلك أنه لايبعد أن يكون غير أهل للثقة به أيضا، وأنه لايبعد أن تكون هناك حالة فوق العقل تكون نسبة العقل اليها كنسبة الحس إلى العقل: وقد تكون هى حالة الصوفية. «فالصوفية يستندون فيما يذهبون إليه على الكشف والعيان، لا النظر والبرهان: فهم بتوجههم إلى جناب الحق تعالى والتفات قلوبهم عن جميع التعلقات الكونية، ومثابرتهم على ذلك بدون تقسيم خاطر ولا تشتيت عزيمة، من الله عز وجل عليهم بنور

كاشف يريهم الأشياء كما هى، ونسبة العقل إلى هذا النور كنسبة الوهم إلى العقل ، فكما يمكن العقل الحكم على مالا يدركه الوهم كذلك يستطيع ذلك النور الكاشف أن يحكم على مالا يصل العقل إلى إدراكه »

وقال ابن رشد : « فالصوفية يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شىء يلقى فى النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب ، واستدلوا على ذلك بظاهر بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »

ثم رد عليهم بقوله « إن سلمنا وجود هذه الطريقة فأنها ليست عامة للناس بما هم ناس ولو كانت هـذه الطريقة هى المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ، ولـكان وجودها بالناس عبثا ، والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار ، وتنبيه على طرق النظر . نعم لسنا ننكر أن إماتة الشهوات شرط فى صحة النظر كما أن الصحة شرط فى ذلك أيضا »

لذلك أقبل الغزالى على الصوفية بهمته ، وكان له ميل شديد فطرى للتصوف ، فقرأ كتب المتصوفين وحصل كل مايمكن تحصيله من طريقهم إلى أن ظهر له أن أخص خواصهم لايمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فالمتصوفون أرباب أحوال لا أصحاب أقوال . وظهر له أن لامطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله هو قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال الى الله تعالى بهمة لاتعرف الكلال؛ ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل . وقد علم علم اليقين أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

وكانت فلسفته دينية تصوفية على حسب ماجاء فى الشريعة الإسلامية فلا يسلم بقدم العالم ، ولا بالانبثاق الفلكى الذى قال به الفارابى وابن سينا. وكان يرى أن الحقائق العلمية موجودة فى النفس بالقوة

قال فى الرسالة اللدنية « إن العلوم مركوزة فى أصل النفس بالقوة كالبذر فى الأرض، والجوهر فى قعر البحر أوفى قلب المعدن، وما التعلم إلا طلب خروج ذلك الشىء من القوة إلى الفعل » ثم قال فى موضع آخر منها « وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها، وإخراج ما فى ضميرها إلى الفعل »

وأما آراؤه الأخلاقية فهى مزيج من الشريعة والصوفية، وهو يعد خير من تكلم فى الصوفية بطريقة غير مشوبة بنحل غلاة الصوفية التى خرجوا عن مألوف العقل الإنسانى .

مؤلفاته

مؤلفات الإمام الغزالى كثيرة جداً مشهورة متداولة فى العالم: وأشهرها كتابه الخالد الذكر « إحياء علوم الدين » وهو كتاب عظيم جمع بين الفلسفة والأخلاق والدين وفيه إحياء لأثمن آثار السلف الصالح ويعد أفضل كتب التصوف والأخلاق التى ينبت حكمة القرآن والشريعة ، ومنها كتاب « مقاصد الفلاسفة » وفيه ملخص للعلوم الفلسفية ، شرح فيه المؤلف علم المنطق وما وراء الطبيعة و الطبيعيات ولم يبتعد فى شرحه عن مبادئ أرسطو التى

شرحها الفارابى وابن سينا . وقد قصد من تأليفه — كما قال فى مقدمته — تقرير مبادىء الفلاسفة استعدادا لهدمها ؛ ولذلك ألف بعده كتاب « تهافت الفلاسفة » وغايته منه نقض تعاليم الفلاسفة بنقد عام يظهر ما فيها من التناقض، ويوضح ما بها من مخالفة للعقل : فأظهر فيه تناقض الفلاسفة فى عشرين مسألة تناولت جميع مشاكل العلوم الإلهية والطبيعية قديمًا وحديثًا عند فرق المسلمين وغيرهم من أصحاب العقائد . ومنها ميزان العمل ، ومعيار العلوم ، ومشكاة الأنوار، والمنقذ من الضلال ، والوسيط فى الفقة ، وكتاب « أيها الولد » فى الأخلاق وغيرها .

ومعظم كتبه مترجم إلى اللغة اللاتينية ، وبعضها منقول إلى اللغة العبرية .

ابن رشد

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ من أسرة كبيرة بالأندلس، تولى هو وأبوه وجده قضاء قرطبة، وقد ورث عن جده كثيراً من مواهبه الفطرية ، وقد عنى بالعلم من صغره وكان ذكيًا قوى النفس خالط أفضل أهل عصره وأعلمهم.

درس الفقه وعلم الكلام ، ورأى فى نفسه ارتياحا إلى الفلسفة فطلبها على ابن باجه الفيلسوف الأندلسي المشهور فبرع فيها وحاز شهرة عظيمة فى الفلسفة والرياضة والطب. ومن كلامه المأثور « من اشتغل بعلم التشريح ازداد بالله تعالى إيمانا» وكان مولعا بالفنون والآداب فقرأ شعر الجاهلية والإسلام : وحفظ كثيراً من قصائد كبار الشعراء .

وقد تقلب فى عدة وظائف ، ثم عين قاضى قضاة قرطبة بعد موت والده فحمدت سيرته ، ونال حظوة الخليفة يعقوب المنصور بالله أمير الموحدين بمراكش فقربه ورفع الكلفة بينهما، ولم يستغل ابن رشد حظوته هذه لمصلحة تعود عليه، وإنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة والاندلسيين عامة ، وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحا .

ولكن أعداءه دسوا عليه عند الخليفة حتى حولوه عنه فانصرف عن الحكمة والحكماء إلى التصوف والأولياء ، ثم اغتنموا هذه الفرصة ونسبوا إليه مسائل خرجوها أسوأ تخريج مما أوغر صدر الخليفة وأثار غضبه ، فأمر بالتشهير بابن رشد وأصحابه

وتعذيبهم ونفيهم ، ولم يسمح لأحد منهم بالدفاع عن نفسه وحرم على الناس الاشتغال بالفلسفة، وأمر باحراق كتبها إلا ما كان منها فى الطب والرياضة . ولم تتجاوز مدة العقوبة سنة حيث شهد جماعة من أعيان إشبيلية بأن ابن رشد على غير مانسب إليه ، فرضى المنصور عنه وعن أصحابه وشملهم بعفوه ، واستدعاه إلى مراكش فحضر اليها ومرض بها مرضه الأخير ، ثم توفى سنة ٥٩٥ هـ بعد أن عمر خمساً وسبعين سنة هلالية ، وبموته وموت أصحابه قضت الحكمة فى بلاد الأندلس كما تقدم .

علمه وآراؤه الفلسفية والأخلاقية والسياسية

كان ابن رشد يرى أن الاشتغال بالفلسفة والمنطق يؤدى إلى معرفة الله تعالى ، وان الشرع لذلك دعا إليه ، وهذا يتطلب النظر فى كتب القدماء للوقوف على ما قالوه : « فما كان منه موافقاً الحق قبلناه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه » .

لذلك أكب على دراسة الفلسفة، وأقبل على كتب الأقدمين واختص منهم أرسطو بعنايته التامة ، وقد استطاع ، بما منح من

ذكاء نادر ، وعقل راجح ، ومقدرة فى النقد فائقة ، أن يقف على أسرار فلسفته ، ويميز الدخيل فيها والأصيل ، ثم شرحها بعد ذلك شرحاً استحق به أن يعد من كبار فلاسفة العالم. قال بعض فلاسفة أوروبة المحدثين : « ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة ثاقبة ففسرها وشرح غامضها » .

ولما كان بعض آراء أرسطو يخالف تعاليم الدين الإسلامى اضطر ابن رشد كغيره من فلاسفة الإسلام إلى أن يدخل عليها شيئاً من الأفلاطونية الحديثة كنظرية الانبثاق الفلكى : ومؤداها أن جميع الكائنات صدرت عن الله تعالى بطريق الفيض الإلهى كما تقدم ، وذلك فراراً من القول باشتراك القوة والمادة فى خلق العالم وهو المذهب الثنوى الذى لا يتفق مع التوحيد الإسلامى .

وكان ابن رشد يقول بنظرية التعليل وأن المسببات مترتبة على الأسباب فى هذا العالم ؛ لأنه إن أمكن وجود المسببات من غير أسبابها كما يمكن أن توجد بأسبابها كان وجود الأسباب عبثاً ولا تكون ثمت حكمة فى إيجادها ، وحينئذ لا نستطيع أن نرد

على من قال بعدم وجود صانع وأن جميع مافى الكون إنما هو عن محض اتفاق ، فيترتب على انكار ترتيب المسببات على الأسباب جحد الصانع الحكيم الذى أتقن صنع كل شىء بترتيب محكم ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن ولا أتم منه ؛ فالترتيب والنظام وبناء المسببات على أسبابها كلها تدل على أن العالم صدر عن علم وحكمة ، لا عن اتفاق قال تعالى « صنع الله الذى أتقن كل شىء » وقال جلت قدرته « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ولذلك كان يرى أن قول علماء الكلام بأن الله تعالى قادر على الجمع بين المتناقضات ، وأنه يدير الكون بحرية مطلقة عن كل قيد وشرط ، وأنه يريد الخير لمجرد إرادته لا لسبب سابق لها يترتب عليه قلب نظام الكون ونقض مذهب العدل الإلهى . أما الذى دعا علماء الكلام إلى هذا الرأى فهو الفرار من القول بأن هناك أسبابا فاعلة غيره تعالى ، ولكنهم نسوا أن الذى خلق الأسباب وجعلها مؤثرة هو الله تعالى فلا فاعل فى الحقيقة إلا هو جلت قدرته : فهو الحاكم الأعلى الذى يصدر عنه كل شىء

فى الكون . غير إن جزئيات هذه الحوادث وتفاصيلها لا تصدر عنه مباشرة ولا يتحتم علمه بها : فحكم الكون فى الحقيقة يشبه حكم المدينة .

وأما مسألة قدم العالم وحدوثه فحاصل ما قاله فيها أن الخلاف بين الأشاعرة والحكماء يكاد يكون لفظياً وذلك أن أصناف الموجودات ثلاثة :

(١) موجود وجد من مادة وعن سبب فاعل والزمان متقدم على وجوده : وهذا هو الأجسام المدركة بالحس ، وقد اتفقوا على تسمية هذا محدثاً

(٢) ويقابل هذا موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان ويدرك بالبرهان : وهو الله تعالى ، وقد اتفقوا على تسميته قديماً

(٣) وبين هذين الطرفين موجود اتفق الكل على أنه لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ولكنه وجد عن فاعل : وهو العالم بأسره وهذا الموجود فيه شبه من كل من القديم والمحدث ، فمن غلب ما فيه من شبه القديم سماه قديماً ، ومن غلب ما فيه من شبه المحدث

سماه محدثا ، وهو فى الحقيقة ليس قديماً حقيقياً ولا محدثا حقيقيا. فأنت ترى أن المذاهب ليست متباعدة كل البعد حتى يكفر أحد الفريقين الآخر.

وكان يرى أن الإنسان ليس حراً على الإطلاق: فحريته محدودة بالأحوال الخارجية تابعة لقوانين طبيعية « فالأفعال المنسوبة إلينا يتم فعلها بإرادتنا ، وموافقة الأفعال التى من خارج لها وهى المعبر عنها بقدر الله ، وهذه الأسباب التى سخرها الله من خارج ليست هى متممة للأفعال التى نروم فعلها أو عائقة عنها فقط ، بل وهى السبب فى أن نريد أحد المتقابلين » فإن الإرادة نزوع يحدث لأمور خارجية تدفع إلى القيام بالعمل أو تحاميه .

وكان يرى أن الإسلام أكمل نظام قوى وأصلح للشعوب ، وقد استحسن تطبيق مبادئ جمهورية أفلاطون على الأنظمة الاجتماعية فأشار بوضع السلطة فى أيدى الشيوخ وقال إن الحكومة الكاملة لا تحتاج إلى قاض أو طبيب احتياجها إلى جيش يحمى أفرادها .

وبما أن المرأة تقل عن الرجل فى الدرجة لا فى الطبيعة ؛ ففى

استطاعتها ممارسة أعمال الرجل جميعها لكن بدرجة أقل من درجة الرجل، وقد تفوقه فى بعض الفنون كالموسيقى ؛ لهذا كان يقول بتحريرها وإشراكها فى أعمال المجتمع، ولا يرى بأساً من حكمها الجمهورية ثم قال إن حالتنا الاجتماعية لا تؤهلنا للإحاطة بكل ما يعود علينا من منافع المرأة، وما ذلك إلا لأن حال العبودية التى أنشأنا عليها نساءنا أتلفت مواهبهن العظمى ، وقضت على اقتدارهن العقلى .

وكان أقل الفلاسفة تصوفا وأكثرهم اتباعا للعقل واقتفاء لأثر الحقائق ، وكان يقول بأن الاتصال بالله ممكن بالعلم دون سواه، فاذا بلغ العقل البشرى أعلى درجات السمو الفكرى واستطاع النظر إلى الحقيقة مباشرة وبغير حجاب ، أمكنه الاتصال بالله تعالى، وهذه هى أرقى درجات السعادة . وكثير من الحكماء وصلوا إليها بعد طول البحث والتعمق فى العقليات وذاقوا حلاوتها عند الموت . وهذا بلا ريب نوع من التصوف العقلى جعله ابن رشد بديلا من التصوف الروحانى الذى قال به الغزالى ، ومر بك رأى ابن رشد فيه .

مؤلفاته

يظهر أن ابن رشد لم يشتغل بالتأليف قبل السادسة والثلاثين من عمره ؛ لأن الاستعداد فى الطب والفقه والفلسفة يحتاج إلى أعوام طويلة ، والعالم يحتاج قبل التأليف إلى التمحيص والتحقيق.

وقد ألف كتبا كثيرة فى الطب والفلسفة والفقه وعلم الكلام منها كتاب « الكليات » فى الطب اقتصر فيه على القول على معالجة جميع أصناف الأمراض على وجه الجملة ، ولما ألفه سأل صديقه أبا مروان بن زهر أن يضع كتابا فى الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل فى صناعة الطب فألف كتابه الملقب بالتيسير، ومنها كتاب « تهافت التهافت » رد به على كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، وكتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتاب « الكشف عن مناهج الأدلة » ، وكتاب « التفريق بين المشائين والمتكلمين » وغيرها .

وقد ترجمت معظم كتبه إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وظلت زمنا طويلا موضع ثقة الطلاب فى أوروبة عليها يعتمدون ، واليها يرجعون . وكان الفضل فى نقلها ونشرها لتلميذه موسى بن ميمون وأصدقائه وتلاميذهم

أثر فلسفته بأوروبة

لما انتشرت فلسفة ابن رشد بأوروبة خرج على الكنيسة بعض العلماء المفكرين وخالفوا تعاليمها ؛ فتعقبتهم الكنيسة هم وتلاميذهم وعاقبتهم بالإحراق ، وحرمت على الناس دراسة الفلسفة الأرسطية والشروح الرشدية . وعلى الرغم من كل مالاقاه المشتغلون بالفلسفة من اضطهاد وتعذيب قد ذاعت تعاليم ابن رشد وانتشرت مذاهبه بأوروبة على ما بها من مخالفة للدين المسيحى ، وكانت من أهم عوامل النهضة الحديثة بها كما سيأتى . وكثير من فلاسفتها استفاد من كتبه وحكمته ، وأثنى عليها ثناء كبيراً . ولقد قال أحد الذين عذبوا بالإحراق فى سبيل ابن رشد « إن أعلم العلماء أرسطو وشارحه ابن رشد ، وهما أقرب إلى الحقيقة ، بهما اهتديت وبفضلهما شاهدت النور الذى كنت عاجزا عن رؤيته »

عصر النهضة

كانت النهضة حركة فكرية واسعة النطاق بعيدة الغاية ، شملت معظم العالم الأوروبى ، وكان لها آثار عظيمة فى مناحى الحياة المختلفة ومن الصعب تحديد مبدأ زمنى لهذه النهضة ، لأن الحركات

العامة تحصل تدريجاً وتحتاج إلى زمن طويل؛ ومن الخطأ الذى وقع فيه بعض المؤرخين اعتبار سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣ م المبدأ الحقيق للنهضة، لأن يقظة العقل لا تحصل فجأة، ولا بد لها من مقدمات وعوامل قد لا يظهر أثرها إلا بعد مضى عشرات السنين .

والواقع أن بعض أسباب النهضة سابق فى الزمن لسقوط عاصمة الدولة الرومانية الشرقية فى يد الأتراك ؛ فلقد كان من بين هذه الأسباب :—

(١) اتصال الفكر الأوروبى بالحضارة العربية فى بلاد الأندلس ؛ فان العرب لما فتحوا هذه البلاد وثبتت دعائم ملكهم فيها أسسوا كثيراً من المعاهد العلمية، فكان لهم مدارس عالية فى قرطبة وطليطلة واشبيلية وغرناطة وغيرها وبقيت هذه المعاهد مدة طويلة عامرة بالأعلام من علماء الأسلام، وسارع اليها الطلبة على اختلاف مواطنهم ونزعاتهم الدينيه، وأخذوا العلم عن أساتذتها وعنوا بدراسة الفلسفة الاغريقية والالهيات، وترجموا كثيراً من الكتب العربية الى اللاتينية منها كتاب الحاوى لابن زكريا

الرازى وكتاب الكليات لابن رشد وكتاب العلوم الطبيعية وأقسام الفلسفة للفارابى وكتاب ابن سينا فى علم النفس والقانون فى الطب وغيرها .

ولم يمض منتصف القرن الثانى عشر حتى سرى فى العالم الأوروبى روح جديد . يقول جورجى زيدان فى كتابه تاريخ التمدن الاسلامى « وكان الحكم بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ولكنهم لم ينبغوا فيها إلا بعد مطالعة تلك الرسائل (رسائل إخوان الصفاء) فنبغ أبو بكر بن باجه الفيلسوف الأندلسى الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ . ويعرف بابن الصائغ، ومن تلاميذه القاضى أبو الوليد بن رشد الفيلسوف القرطبى المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ونبغ أيضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد ألفوا المؤلفات الضافية فى فروع الفلسفة مما اتخذه الإفرنج قاعدة لفلسفتهم فى أوائل نهضتهم » .

(٢) تأسيس الجامعات فى أوربا : فلقد أخذ العالم الأوروبى عن العرب نظام الجامعات ومناهجها التى شملت الفلسفة والآلهيات حتى لقد أسس فى قرنين من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٤٠٠م مايقرب

من أربعين جامعة أهمها كمبردج وا كسفرد وباريس ونابلى وبراج وفينا وهيدلبرج . حقاً كان فى أوربا جامعات قبل هذا التاريخ، ولكن مناهجها كانت مقصورة على الفنون السبعة الحرة يقول ديفدسن « إنا إذا وازنا بين مناهج المعاهد الإسلامية والمعاهد الأوربية القديمة وجدنا مناهج الثانية لا تزيد على غرفة من بحار الأولى » وقد سارع الطلبة إلى هذه الجامعات لتلقى العلم حتى غصت بهم فقد قيل أن عدد الطلبة فى جامعة باريس فى نحو سنة ١٣٠٠ م . أربى على ثلاثين ألفاً. وقد ظهر أثر هذه المعاهد جلياً فى شغف الناس بالحرية الفكرية وإكبابهم على دراسة الفلسفة والأدب الأغريقى ، وممن أنجبتهم هذه النهضة دانتى وبترارك وبتشوسر وروجر بيكن وغيرهم .

(٣) الحروب الصليبية : أجمع رجال الدين أمرهم ، وأرادوا الإستيلاء على بيت المقدس ، واسترداد البلاد المقدسة من يد المسلمين فاستحثوا الناس باسم المسيحية، وأثاروا فيهم الحمية الدينية، ثم ساقوهم إلى بلاد المشرق سوق الأنعام ، فنال منهم الجوع ، وفتكت بهم الأمراض، وحصدهم الموت ، ولقد كان لهذه الحروب

التى اشتعلت زمناطويلا أثر محمود فى خلق حياة فكرية جديدة فى العالم الأوربى لأنها مزقت الحجب التى حالت بين المشرق والمغرب، وكانت دروساً نافعة تعلم منها الأوربى أن الشرقى ليس وثنياً ولا وحشاً ضاريا يهيم على وجهه فى القفار، يتلمس رزقه، وإنما هو رجل شجاعة ومروءة، يذود عن وطنه، ويدافع عن عرينه، ويعامل أعداءه بالحسنى إذا وقعوا فى يده، ويشمل المسكين بعطفه، ويواسى المحتاج، وهو فوق هذا يتمتع بنظام من الحكم، يتجلى فيه الإخاء وطيب المعاملة، ويحترم حقوق الأفراد، ويعتبر الحرية الشخصية حقاً مقدساً لكل إنسان — هذا إلى نوع من الحضارة لم يكن جمهور الناس يحلمون به قبل أن يروه. ونتج عن هذه الأسباب تبرم شديد من نظام الإقطاعيات وسيطرة الكنيسة المطلقة يقول دريبر فى كتابه النشأة الفكرية فى أوربا مامعناه « لقد أدرك الصليبيون أن من أوصاف الشرقى الشجاعة النادرة، والنبل فى المعاملة، وسمو الفكر، وسعة العلم، وحدة الذكاء؛ فلما رجعوا إلى بلادهم، حدثوا قومهم عما وجدوه، ونشروا بينهم فضائل الشرق وأهله، وكان لذلك أثر جلى فى نهضة العالم الأوربى فيما بعد».

(٤) انتشار التجارة وقيام الصناعات: اشتدت حاجة الناس أثناء الحروب الصليبية إلى السفن ووسائل النقل، ورغب الموسرون فى اقتناء الأحجار الكريمة وأنواع الحرير والروائح والعقاقير والتوابل، وجلبها من الشرق، وقد كان هذا باعثاً على إحياء الصناعة فى أوربا؛ لأن العالم الأوربى فكر فيما صنعه، وإرساله إلى بلاد الشرق نظير البضائع المجلوبة منه، ونتج عن ذلك تسهيل وسائل النقل، وتمهيد الطرق، وازدياد المعلومات الجغرافية، ونشاط الملاحة، واتساع دائرة الصناعة، وتأسيس عدد من المدن العظيمة؛ لأن القرويين الذين كانوا يخدمون النبلاء، هجروا مساكنهم فى القرى، وطرقوا باباً آخر من أبواب الحياة، هو باب الصناعة. وكان لهذا كله تأثير فى الحالة العقلية؛ لأنه وسع مجال الفكر، وأرشد الناس إلى طرق جديدة للعمل والحياة.

(٥) سقوط القسطنطينية: فى سنة ١٤٥٣ م استولى الأتراك على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وكانت حافلة برجالات الأدب الأغريقى، ولما خاف هؤلاء من معاملة الأتراك لهم، هجروا مواطنهم، وتفرقوا فى البلاد، يتلمسون الرزق، وذهب نفر

منهم إلى إيطاليا ، وهى معقل الديانة المسيحية ، ومبعث الحياة الجديدة ، ومجال التنافس بين الأمراء والمدائن ، ومواطن الآداب اللاتينية من قديم — فحلا لهم المقام فيها ، وشجعهم النبلاء على نشر الآداب الإغريقية ، بعد أن غمروهم بالنعم وقربوهم من مجالسهم ، وأحلوهم فى المنزلة الأولى ، فقام هؤلاء العلماء بإلقاء المحاضرات فى الأدب القديم ، وأحيوا المذاهب الفلسفية ، فذاق الناس حلاوتها وشغفوا بالحرية الفكرية وطلبوا المزيد من علوم الأوائل ، واندفعوا فى تأسيس المعاهد فى أنحاء إيطاليا ، فكان فى فلورنسا معهد يعرف بمعهد أفلاطون ، يقصده الذين يميلون إلى فلسفته ، وتشيع نفر لأرسطو ، وعملوا على نشر مبادئه : وعلى الإجمال لم يبق مذهب من مذاهب الفلسفة القديمة إلا كان له أتباع يستمسكون به ويبينون محاسنه وينشرونه بين الناس.

(٦) بقى كثير من عوامل النهضة كاختراع البارود والبوصلة البحرية والطباعة والكشف الجغرافى ، ولولا أننا نخشى الإطالة لتتبعنا تأثير هذه العوامل فى النهضة الأوربية .

تضافرت هذه العوامل واجتمع بعضها إلى بعض وزادت

قوتها فأحدثت ثورة فكرية ترمى إلى تحرير العقل من تلك القيود التى رسف فيها زمنا .

الإصلاح الدينى

عبرت النهضة جبال الألب ، بعد أن ذهبت جدتها وفقدت من قوتها المعنوية ، فاتجهت اتجاهاً جديداً ، وعنيت الشعوب الجرمانية بدراسة الآداب المسيحية ، وتاريخ الكنيسة وآبائها الأولين ، رغبة فى الإصلاح الاجتماعى ، ورفع المستوى الخلقى والدينى ، ومحو عار الأمية عن الجمهور .

اكتسبت الكنيسة تدريجاً سيطرة تامة على نحو ما بينا من قبل ، وخضع الناس لها ، فتحكمت فى عقولهم ، وسخرتهم لإرادتها ، وحددت لهم طريق العمل ، وحظرت عليهم النظر فى مظاهر الكون ، والتأمل فى أحداثه ، وقد ساعدها على بسط نفوذها مزاج تلك الجماعات المتبربرة ، التى اندفعت إلى جنوب أوربا ، واستولت على رومة ، فإنهم كانوا متدينين بفطرتهم — هذا إلى قدمها ، وجلال مظهرها ، وعجيب نظامها ، والخدمات التى أدتها للجماهير فى أيامها الأولى . كل أولئك ملأ قلوب الناس

رهبة منها واحتراماً لرجالها بلغ حد التقديس : فكانوا يدينون بأنها الأمينة على الوحى والواسطة بين الله وبينهم ، والوصى على شريعة السيد المسيح عليه السلام فأسلسوا لها قيادهم ، وأطاعوها طاعة عمياء ، وامتد سلطان البابا فى كل جهة من أوربا ، حتى كان كل سلطان مستمدا منه ، وراجعاً اليه ، وباسمه كانت تتوج الملوك ، وتثل العروش . وجرى العمل على هذا قروناً تمتعت فيها الكنيسة باستقلال مطلق ، ودان العالم الأوربى لها ، ووقف الناس عليها الضياع العامرة ، وتنافسوا فى خدمة أهلها ، وتمنوا رضاهم بكل الوسائل .

جر هذا إلى طغيان البابا وأعوانه ، فقد ادعى أنه وحده صاحب الحق المطلق ، فى التصرف فى أملاك الكنيسة ببيع أو شراء ، وجعل لأعوانه امتيازاً أخرجهم به من سلطة الملوك ، والنظم المدنية ، ففتح بذلك باباً واسعاً من أبواب الفساد والإجرام ؛ فقد كان السارق أو القاتل إذا قبض عليه ، وسيق للمحاكمة ، يدعى أنه من رجال الدين فينجو من يد القضاء المدنى ، ويخرج من سلطانه. تعدى هذا الامتياز فيما بعد رجال الدين وشمل غيرهم من الميسورين

الذين أمدوا الكنيسة بمالهم وأغدقوا عليها كثيراً من النعم .

استبدت الكنيسة بالناس وأرهقتهم بأنواع من المظالم؛ ففرضت عليهم الضرائب الثقيلة ، وطمعت فى احتكار المنافع العامة ، والاستكثار من الضياع والعقار، وأدى ذلك إلى انغماس القساوسة فى ألوان الترف وأنواع النعيم ، فأسرفوا فى الانفاق ، وتنافسوا فى اللذات المحرمة ، وانتشر بينهم البغاء ، واتخذوا الغلمان والجوارى ، وباعوا الوظائف الكنسية ، وآثروا بها الأغنياء ، وحرموا أصحاب الكفايات ، وشجعوا أهل الغنى واليسار على الخنا والفجور ، ببيعهم صكوك الغفران ، وتوزيعهم رحمة الله ، كما كانوا يزعمون . يقول بعض المؤرخين « خضعت الكنيسة لحكم الشيطان ، وكان رجال الدين من أعوانه . إن الذئب يتنكر للأوز ، ويتودد إليه ، حتى يجتمع حوله ويطمئن إليه ، فإذا فعل ، سارع إلى افتراسه والتهامه — وكذلك رجال الدين ، يعظون ، ويرتلون الأناشيد ، ليخدعوا الناس ، ويضلوهم عن سواء السبيل ، ويقودوهم إلى مواطن الهلكة » ويقول آخر « أهملت عبادة الله ، وصارت الكنائس بؤرة للفسق والفجور ،

والأديرة مرتعا للبغايا ، وكثرت المظالم، وغاضت تقوى الله من القلوب، وبيعت المناصب المقدسة، وكره الناس دينهم ، لما شاهدوه من مساوى زعمائه »

وقد حاول كثير من الغيورين على سمعة الكنيسة، أن يصلحوا ما فسد من شأنها، ويعالجوا مخازيها، ولكن الداء كان قد وصل إلى الصميم ، وسرى فى كل ناحية ، فذهبت الجهود هباء، ولم يكن للناس بد من أن يجمعوا كلمتهم، ويقوى بعضهم عزائم بعض، حتى يدفعوا عن أنفسهم هذه المساوئ ، ويتخلصوا من ذلك الأسر الذى ضرب عليهم باسم الدين، وقامت حرب شعواء بين الجامدين أصحاب المطامع ، وبين محبى الأصلاح الذين تعرضوا لنقد التقاليد الكنسية، وأبانوا ما اشتملت عليه من خطأ ، وابتدأ مارتن لوثر هجماته المشهورة ضد مذهب الغفران ، وأعلن فى غير تردد ولا هوادة، أن الكنيسة لا تستطيع غفران الذنوب الشرعية، وغاية ما تقدر على عمله عفوها عن الخارجين على قوانينها الوضعية؛ أما غفران الآثام فبيد الله وحده، يمنّ به على عباده التوابين ، الذين حسنت حالهم .

وقد شاعت مبادئه بين الناس ، وصادفت هوى فى نفوسهم ، وتمكنت من قلوبهم ، فأخذوا بها ، وعملوا على نشرها ، ونبذوا سلطان الكنيسة ، وخلعوا عن عاتقهم نير الاستعباد البابوى ، واحتكموا إلى الكتاب المقدس ، وأباحوا لكل واحد حرية الفكر ، والاستقلال فى فهم الأحكام من كتاب الله .

وقد سرى الخلاف من هذه المسئلة إلى كثير غيرها ، كحرية الإرادة والاختيار ، والقضاء والقدر ، حتى انصدع بناء الكنيسة ، فتشعبت شعباً ، وزال ذلك الشبح المخيف ، الذى طالما ملأ الأفئدة رعباً ، وسلب الإنسان أعز شىء لديه ، وهو الحرية .

الفلسفة الحديثة

مذاهبها ومميزاتها

قبل أن نتكلم عن رجال الفلسفة الحديثة ، يجب أن ننظر فى اتجاه مذاهبها ومميزاتها ، نظرة إجمالية ، ترينا كيف كان الانتقال والتدرج من القديم إلى الجديد .

لما استيقظ العقل من رقدته ، ورأى ما فى هذا العالم من جمال ،

وشعر الإنسان بشخصيته ، وأن له كرامة من واجبه المحافظة عليها ، وحقاً طبيعياً يستمسك به ، لم يجد بداً من أن يفر من سلطان الكنيسة ، وأن يستمتع بحريته كاملة : فأخذ ينقد العقائد الدينية ، والتقاليد الاجتماعية ، وأساليب السياسة ونظام الحكومة ، وكان فى الجملة معتدلا ، لأنه استطاع أن يوفق بين الحرية والقانون ، ولم يذهب إلى ماذهب اليه السفسطائيون قديما ، من الفوضى الفكرية ، وتقويض دعائم الحياة الاجتماعية ، ونقضها من أساسها ، وعدم الاعتداد بالروابط الخلقية والدينية .

حاول الإنسان أن يعرف نفسه ، والعالم الذى يعيش فيه ، حتى يتسع له مجال الحياة ، وتظهر له أسرارها ، فاشتغل بأمرين بينهما شديد اتصال : أما أولهما فدراسة مظاهر الطبيعة ، وفهم أحداثها ، وأما ثانيهما ففهم الحياة الروحية والمدنية للإنسان ، وقد وصل فى كليهما إلى نتائج قيمة ، قد يناقض بعضها بعضاً ، وعنى رجال الفلسفة بالتوفيق بين نتائج البحث فى هذين الموضوعين — الطبيعة والإنسان — ولا يزال التوفيق بينهما من أهم ما يشغل عقول المفكرين فى الوقت الحاضر .

كان من أخص صفات الفلسفة الحديثة اعتمادها على العقل المطلق، لعلمها أن التقدم لا يكون، إلا إذا كان لكل فرد تمام الحرية في الافتنان، وطرق أبواب البحث المختلفة، وفرض الفروض العلمية، ما دام له هداية من ذوق سليم، ومنطق خالص وظهر أثر ذلك واضحاً في العلوم الطبيعية؛ فإن العلماء اهتموا بكشف ما غمض من أسرار العالم، وتشعبت بهم سبل البحث، وقاموا بتجارب نافعة واسعة النطاق، عادت على الإنسانية جمعاء بالخير العميم

أما في دائرة الحياة الإنسانية فقد بعثت الفلسفة الحديثة في كل فرد يعتد بشخصيته، ويستمسك بحقوقه الطبيعية، الرغبة الأكيدة في الاستقلال الفكري، وعدم الانصياع لسلطان العقائد، وتقاليد السياسة والملك، واعتبرت العقل وحده حكماً فاصلا لا يرد له قول. وعلى هذا النحو ظهر مذهب العقليين، أو الحرية الفكرية، المعروف في تاريخ الفلسفة.

أوغل الناس في هذا المذهب تدريجاً، واستباح كل واحد

لنفسه ، أن يهيم في أودية النظر ، ويجعل العقل رائده الأمين في كل شيء ، حتى ماوراء الطبيعة ، وأن يفصل في جميع المسائل التي تعرض له ، من غير أن يتناولها بالدروس من جهاتها المتعددة معتمداً على مجرد المنطق ، فلم يعتد بوحي ، ولم يأخذ بقول رسول ، ولم يعوّل على مايتوارد على الإنسان من ضروب المشاعر ، وأهمل الجانب الوجداني من الحياة ، مع عظيم منزلته ، ونسي الناس ربهم ، وانقطعت صلتهم به ، أو كادت ، واتخذوا من العقل إلهاً جديداً يخضعون لسلطانه .

حقاً إن التاريخ يعيد نفسه ، فإن العقل بعد أن تناول كل شيء في الوجود ، ونقد التقاليد القديمة ، والعقائد البالية ، وخاص من أسر الكنيسة ، وسلطان العادات الموروثة ، انتبه إلى نفسه ، ليرى كيف يتأثر بالمحسات الخارجية ، وكيف يصل العلم إليه ، وعلى أي أساس يعتمد في استنباط المبادئ المتعلقة بما وراء الطبيعة . ومن هنا ندرك أن اتجاه الفلسفة قد تغير ، وصار موضوع البحث نظرية المعرفة ، ونشأ عن ذلك أن الحرية الفكرية الذي اعتد الناس بها زمناً ، أصبحت مجالا للبحث والمناظرة ، فذهب نفر

من العلماء ، إلى أن القوانين العامة البديهية ، التى اعتمد عليها العقليون ، لا وجود لها ، وإلى أن المعرفة غير ممكنة .

وعلى هذا الأساس قام مذهب فلسفى ، يعرف بالمذهب الارتيابى : وهو يقوم على الشك فى كل شىء ، ويصرح بأنا لا نستطيع العلم بحقائق الأشياء ، يقول باسكال « كل ما أراه فى الطبيعة موضوع شك وقلق لو كنت لا أرى شيئاً يدل على وجود خالق ، لكنت أنكر وجوده ، ولو شاهدت آيات خالق فى كل شىء ، لاسترحت بالإيمان ، ولكن ما أراه هو أكثر مما أستطيع إنكاره ، وهو أقل مما يقنعنى ، فأنا فى حالة تستوجب الشفقة » ، ويقول : « الإنسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لا يزول إلا بالعناية الربانية ، وليس هناك شىء يبين له الحقيقة ، بل كل شىء يغره . العقل والحواس أصلان للحقائق ، ولكنهما لا يحوزان الخلوص والصراحة ويغر كل منهما الثانى ، فتغر الحواس العقل بالظواهر الباطلة ، ويخون العقل الحواس وينتقم منها ، ثم العواطف تكدر الحواس ، وتؤثر فيها تأثيرات باطلة ، والكل يتنافس فى الكذب والغش »

على الرغم من هذا الشك المدمر ، الذى يهدم نفسه بنفسه استمر الفلاسفة يبحثون فى كنه العلم وأصله ، وكيف يكتسب ، ومعيار الصحة والخطأ فيه ، وعلاقته بالمحسات ، واختلفوا فى نتائج أبحاثهم ، فنهم من ذهب إلى أننا نعلم الأشياء على ما هى عليه بواسطة الإحساس الذى تثيره الأشياء فى القوى الحاسة ، سواء فى ذلك الظاهر منها والباطن . فجميع المدركات التى فى النفس وصلت إليها عن طريق الحواس ، ويعرف هذا المذهب باسم المذهب التجريبى ومن زعمائه لوك الانجليزى ، الذى يرى أن العقل كالصحيفة البيضاء تخط فيها التجارب ، التى تجد طريقها إليها

ومنهم من ذهب إلى أن هناك نوعا من العلم ، لا يتوقف على اتصال الحواس بالأشياء الخارجية ؛ وذلك كعلمنا بالقوانين الضرورية للفكر ، المعروفة بالبديهيات ، نحو حكمنا باستحالة وجود الشيء الواحد فى مكانين معاً ، فى وقت واحد ، وباستحالة الجمع بين النقيضين ، وكإدراكنا أن لكل حادث سبباً ، وأن العلة تتقدم المعلول فى الوجود ، والدليل على أن هذه لا دخل للتجارب فيها عمومها وضروريتها ، وما يستفاد عن طريق الحواس ليس كذلك

ويعرف هذا المذهب باسم المذهب الذهنى ، ومن رجاله كَانْتُ الألمانى إذ يقول « هناك نوع من العلم ، لا يقوم على التجارب وبه تتسع دائرة المعرفة ، وذلك كالمدركات الذهنية التى لا مدلول لها فى الخارج ؛ فان العقل يجد فيها مجالا واسعاً للتأمل والفكر . ومن ذا الذى يرضى بإهمال التفكير فى المسائل التى يثيرها العقل الخالص كالاله والحرية وخلود النفس » .

هذه أهم مذاهب الفلسفة الحديثة : فأما مميزاتها فإنها تمتاز عما يأتى :

(١) أنها تستند إلى العقل ، وتعتمد فى أحكامها على التجارب والبحث فى حقائق الأشياء بحثاً مستقلا ، وترفض الخضوع لسلطان الدين ، ولا تأخذ بالعقائد والتقاليد البالية .

(٢) اتصالها بسائر العلوم ، وتأثرها بنظرياتها ، وأخذها بنتائج أبحاثها . والدليل على ذلك ، أن رجال الفلسفة الحديثة كانوا على بينة ببعض فروع العلم ، فكان ديكارت من أساطين الرياضة ، وله فى الهندسة قدم راسخة ، وكان ليبنتز من علماء الجولوجيا والطبيعة

والكيمياء والرياضة ، وكان هيوم فى طليعة رجال التاريخ ، ولوك وولیم جيمس من زعماء علم النفس . وقل أن تجد واحد من رجالات الفلسفة الحديثة إلا وله القدح المعلى فى علم أو أكثر.

(٣) أنها تعتمد على الطريقة الاستقرائية ، فتجمع الأمثلة ، وتدرسها ، وتلاحظها ملاحظة دقيقة ، وتوازن بينها ، وتعرف وجوه الشبه والخلاف فيها ، حتى تصل إلى القانون العام ، والقضية العلمية. وهذا بخلاف ما كانت عليه أيام العصور الوسطى فإنها كانت تأخذ بقضايا مسلم بصحتها ، وتحاول أن تندرج مظاهر العالم ، وأحداث الطبيعة تحتها ، وكانت هذه القضايا مستمدة من التوراة والإنجيل وكتب السالفين.

ولهذا اكتسبت الطريقة الاستنباطية مكانة عالية ، وعني العلماء بشرح أصولها ، وبيان مراحلها ، وكان أسبقهم إلى ذلك فرنسيس بيكون ، وهانحن أولاء نذكر شيئاً عن حياته ، وآرائه الفلسفية .

فرنسيس بيكون

في سنة ١٥٦١ م ولد فرنسيس بيكون، بمدينة لندن، قبل أن يولد شاعر الإنجليز، شيكسبير، بثلاث سنين. وكان أبوه من زعماء السياسة، ومن الذين تعتمد عليهم الملكة اليصابات، في تدبير شئون الملك، أما أمه فكانت من خيرة النساء، وأوفرهن علماً؛ فقد حذقت اللغتين، اللاتينية والإغريقية، وحررت كثيراً من الرسائل، وترجمت بعض الكتب.

تعلم فرنسيس بيكون المبادئ الأولى في بيت أبيه، ولما تجاوز الثانية عشرة من العمر بقليل، أدخله أبوه إحدى كليات جامعة كمبردج؛ فأقام بها ثلاث سنين مع أخيه، أنطوني، وانقطع للدرس والتحصيل، ثم سئمت نفسه الوثابة المقام بتلك الجامعة القديمة، وانصرفت همته عن دراسة الفلسفة — فلسفة أرسطو — الجافة، لقلة غنائها، واعتقاده أنها لا تفيد سوى المهارة في الحوار، والثرثرة الكاذبة، ورغب في صناعة المحاماة، وبدأ يستعد لها، ولكن أباه أرسله إلى فرنسا، تحت رعاية الوزير الإنجليزي، ممثل الملكة لدى البلاط الفرنسي، حتى تكمل تربيته، وتتسع

تجاربه ، فأقام فى فرنسا ثلاث سنين ، جاب فى خلالها أنحاء هذه المملكة ، ثم رجع إلى بلاده ، لما مات والده فجأة ، فى فبراير سنة ١٥٧٩ م .

شعر بيكون ، بعد موت أبيه ، بحاجة إلى المال ، وتطلعت نفسه إلى وظيفة ، تدرّ عليه الخير ، فاتصل ببعض ذوى الجاه ، علّه يحقق أمنيته ، ولكن لم يظفر بطائل ، فاستولى عليه اليأس حينا ، ثم طرق باب السياسة فكان عضوا فى البرلمان ، واشترك فى كثير من المناقشات ، واختير فى عدة لجان أظهر فيها قدرة نادرة حتى اشتهر اسمه وذاع صيته ، واتصل بإسكس ، ناصح الملكة ، ومستشارها الأمين ، وحسنت صلته به ، فرجا الخير من ناحيته ؛ ورغب إسكس فى مساعدته ، فأبت عليه الملكة ذلك ، لأن بيكون أثار غضبها ببعض ما كان يلقى من خطب فى مجلس النواب ، وأراد إسكس أن يعوض عليه بعض مافاته ، فوهب له ضيعة من ضياعه ، ومع هذا نسى بيكون ما كان لإسكس من منن عليه ، وسرعان ما انقلب عليه لما عبس له الحظ وغضبت عليه الملكة ، فكان من أشد الناس اتهاما له ، رجاء أن ينال حظوة لديها .

ماتت الملكة وخطر لبيكون أن يعتزل السياسة وينقطع للتأليف وكتابة المقالات ، ولكن جلوس جيمس الأول على العرش جدد فى نفسه الأمل فى الظهور ، فلم يدع وسيلة إلا فكر فيها ، ولا رجلا من ذوى الجاه إلا تقرب منه وتملقه ، وما زال يجد ويكدح ، والطمع يحدوه ؛ حتى سطع نجمه وشغل وظائف كبيرة من وظائف الدولة ، ويظهر أنه قد تورط فى أمور كثيرة ، عرفت عنه فيما بعد ، فاتهم بالرشوة وغيرها ، وثبتت إدانته ، وحكم عليه بالحبس ، وغرامة مالية عظيمة والطرد من حاشية الملك ، وسعى بعض أصحابه سعيهم ، واستصدروا من الملك العفو عنه .

وفى مارس سنة ١٦٢٦ كان بيكون يحشو فرخة بقطع من البرَد ، ليرى ماذا يحصل ، فأصابه برد شديد ، لم يمهله إلا أياماً ، ثم قضى على حياته ، وانتهت بموته حياة جامعة بين الذكاء النادر ، والخلق الذميم .

فلسفة بيكون

يعتبر بيكون حلقة الاتصال بين القديم والحديث ؛ فقد تعرض لنقد الفلسفة المدرسية التى كانت شائعة فى العصور

الوسطى وأبان خطأها فى الاعتماد على الطريقة القياسية ، وأسهب فى مزايا الطريقة الاستنباطية ، واعتبرها أساساً للعلم الصحيح ، وساعده على نشر أفكاره ورواج مذهبه ما كان له من منزلة بين الناس .

رأى بيكون أن الفلسفة قد ركدت ريحها ، واعتراها الجمود ، فى حين أن الفنون الآلية كانت تنمو وتتكامل وتزداد قوة ونشاطاً على ممر الزمن ، ثم أجهد نفسه فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى هذه الحال ، وأدرك أن انحطاط الفلسفة راجع إلى عدة عوامل : منها الروح الأدبية التى خلقتها النهضة ، فجعلت الناس يهتمون بالكلمات والأساليب ويعنون بدراسة بلاغتها وحسن بيانها ، ويهملون المعانى التى تؤديها الجمل والعبارات ؛ ومنها أثر رجال المدرسة فى الفلسفة ؛ لأنهم خرجوا بها عن موضوعها ، واعتمدوا فيها على الثرثرة الكاذبة ، وذلاقة اللسان والمناقشات الخيالية التى لا ترمى إلى غاية ؛ ومنها اختلاط الدين بالفلسفة واعتماد الناس فى أحكامهم على الأدلة النقلية ، وأخذهم بأقوال السالفين من غير نظر فى صحتها أو خطئها ؛ ومنها تعصب الناس ، وتمسكهم

بالعادات القديمة والعقائد المتوارثة وتصديقهم فى الخرافات الشائعة والحكايات المتناقلة وفى المعجزات والسحر ونحوه ؛ ومنها عدم التثبت فى دراسة الأمثلة ، والطفرة فى الوصول إلى النتائج .

الغرض من الفلسفة

يرى بيكون أن الغرض من الفلسفة أن تقدم أجل خدمة للفرد والجماعة ، وأن تساعد الإنسان على العلم بجميع الكائنات ، حتى يملك زمامها ، ويكون صاحب السلطان عليها ، كما كان فى بدء الخليقة ، ويظهر ذلك بجلاء لكل من قرأ ما كتب بيكون فى (The New Atlantis) ، حيث يتخيل جزيرة فى وسط البحر ، منقطعة الصلة ببقية المعمورة ، وصل سكانها إلى ذروة المدنية والسعادة ؛ لأنهم استعملوا عقولهم فى كشف ما غمض من أسرار الطبيعة ، ووصلوا إلى كثير من النظريات ، وفقوا للانتفاع بها فى استحداث المبتدعات التى تقدرهم على تسخير البيئة الطبيعية لارادتهم . يتصور بيكون فى تلك الجزيرة جمعية علمية ، يسميها بيت سليمان ، ويرخى العنان لخياله ، ويعد من مبتدعاتها المسرة

(التلفون) والطيارة والغواصة وإيجاد الحركة الدائمة .

ومادامت الفلسفة هى العلم المستمد من الواقع ، فإنه يرى أن جميع المسائل النظرية التى تبحث فى ذات الله وحقيقته ، وغايته من خلق هذا العالم ، والإنسان ومصيره ، يجب أن تخرج عن دائرة البحث العقلى الصرف ، وتدخل فى حدود التصديق والإيمان . ومن هنا نعلم أن بيكون يريد أن يحرر الفكر ، ويخرج الفلسفة من سلطان الدين حتى تؤدى إلى الغرض المقصود منها .

يقول بيكون : « كما أن الماء ينزل بعضه من السماء ، وينبع بعضه من الأرض كذلك علم الإنسان ، يستفاد بعضه بالعقل والبعض الآخر بالوحى الإلهى » فالإلهيات عمادها كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وليس للعقل مجال فى تعرف ذات الله أو صفاته ، فإن العقل كالشمس ، إذا أشرقت ، وانبعث نورها فى الأرجاء ، كشفت لنا حقائق العالم الأرضى ، وحجبت عنا العالم السماوى ، وكذلك العقل يكشف عن حقائق الأشياء الطبيعية ، ويحجب الأسرار الإلهية » هذا والمتتبع لكلام بيكون يدرك أن غرضه أن يفصل بين الدين

والفلسفة ، حتى يستقل كل منهما بوظيفته ، فليس للكتب المقدسة دخل فى الفلسفة ، ولا للفلسفة دخل فى عقائد الدين .

بيكون والطريقة الاستقرائية

يبالغ بعض الكتاب فى تقدير بيكون ، حتى يزعم القارئ أنه فى صف العلماء الذين وفقوا إلى ابتداع نظم فلسفية ، وإلى ابتكار طريقة جديدة فى البحث ، والواقع أن شهرته لا تقوم على ما كان له من أصالة فى الرأى وافتنان فى الفكر ، فإنا لو تتبعنا ما كتب لم نجد فيه جديداً ؛ لأن الطريقة الاستقرائية ، التى تقرن باسمه فى الكثير الغالب يرجع عهدها إلى أرسطو ، واضع علم المنطق؛ وغاية الأمر أن الناس أهملوا هذه الطريقة ، فى إبان العصور الوسطى ، واكتفوا بالطريقة القياسية فى الاستدلال ، لاعتمادهم على قضايا مسلمة الصحة لورودها فى ثنايا الكتاب المقدس ، وأخذهم بآراء السالفين . وقد استطاع بيكون ، بما كان له من جاه ، وأسلوب ممتع ، أن يلفت نظر الناس إلى مكانة الطريقة الاستقرائية فى التقدم الفكرى .

أدرك بيكون أن العلة فى تأخر العلم احتياجه إلى طريقة

منظمة للبحث ؛ حتى تؤدى إلى كشف الحقائق ؛ وإماطة اللثام عما غمض من أسرار العالم، ورأى أن أساس هذه الطريقة أن يتجرد الإنسان عن عقائده وآرائه الخاصة ، ويطرق باب البحث مستقلا ، ويتلمس الحكمة أنى وجدها ؛ ويتذرع بجميل الصبر وطول الأناة حتى يأمن العثار. يقول: « من الضروى أن نترك النظريات والآراء والأفكار العامة جانباً ؛ حتى يمحى أثرها ويبدأ العقل دراسة المسائل من جديد ؛ ويراها واضحة جلية ويقف على حقيقتها . وهذا وحده هو الطريق الذى يوصلنا إلى حقائق عالم الطبيعة . »

بعد التجرد عن القديم وجلاء مرآة العقل مما أصابها من صدأ، ينصح لنا بيكون أن نجد فى جمع الأمثلة الخاصة ونستكثر منها ونتناولها بالبحث والنظر ؛ وأن نسير نحو استنباط القانون الذى يجمع شملها ، ويلم متفرقها مع التؤدة والروية؛ فإن الطفرة قد تصل بنا إلى الهاوية . ولكن بيكون يحتم علينا عدم الاكتفاء بدراسة الأمثلة المتشابهة، ويرشدنا إلى دراسة الشواذ من الأمور الجوهرية فى الوصول إلى قانون عام موثوق به ، يقول : « إن الاستنباط الذى يقوم على استقراء أمثلة من طراز واحد لا يعتد به، وإنما هو ضرب من التخمين ، وما الذى يدلنا على استقصاء البحث وعموم القانون

وقد يكون هناك أمثلة لا تشترك مع البقية فى الخصائص، وهذه لا بد من دراستها ؟ » ويقصد بيكون من قوله هذا أن يكون الاستقراء واسع النطاق شاملا لعدد كبير من المسائل الجزئية المماثلة وغير المماثلة، حتى يجوز لنا اعتبار القانون عاماً جامعاً .

ويرى بيكون أن نتبع الدقة فى دراسة الأمثلة ، و نتناولها مفردة ومركبة، وأن نستعين بالتجارب كلما وجدنا إليها سبيلا، وأن نسير فى البحث على مهل ، فان الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

هذه هى الطريقة الاستقرائية كما أدركها بيكون ، ولو أنك تأملتها قليلا لوجدت أنها بطيئة لا تساعدنا على التقدم العلمى السريع ، إذ ليس فيها مجال واسع للخيال الذى يثب نحو الغرض العلمى. على أن أصدق نقد يوجه إلى هذه الطريقة ما قاله بيكون فيها؛ فقد ذكر أنها لا تدع مجالا لحدة الذكاء وسعة الحيلة ، وإنما أساسها الثبات وطول المرانة — يضاف إلى هذا أنه بالغ فى مدح الطريقة الاستقرائية حتى لم يبق فائدة للطريقة القياسية مع شديد حاجتنا إليها وضرورتها فى حياتنا الفكرية .

تومس هبز Hobbes

فى ابريل سنة ١٥٨٨ م ولد تومس هبز الفيلسوف الإنجليزى، ثم أرسله عمه إلى مدرسة فى مسقط رأسه، فبقى بها أربع سنين، ثم تنقل فى مدارس مختلفة تعلم فيها مبادئ اللغة اللاتينية والإغريقية وأظهر فيهما نوعاً من المهارة والقدرة على الترجمة.

ولما بلغ الخامسة عشرة ذهب إلى جامعة أكسفورد فتلقى المنطق ودرس الفلسفة على نحو ما كان شائعاً فى العصور الوسطى، ولكنه لم يهتم بهذا النوع من الدراسة، واتجه إلى دراسة الأدلة الرياضية واقتنع بصحتها وآثر اتباعها على الأشكال المنطقية المتنوعة وبقى فى الجامعة نحو خمس سنين حصل فى نهايتها على الدرجة.

وفى سنة ١٦٠٨ م ترك الجامعة وعمره لا يتجاوز العشرين، واتصل بأسرة من أعرق الأسر الإنجليزية ليكون مربيا خاصاً لبعض أبنائها، وأتيح له أن يزور فرنسا وايطاليا عدة مرات وأن يتعلم الفرنسية والإيطالية ويتصل برجال العلم المشهورين أمثال جليلو وكبلر وهارفى وبيكون، وخطر له أن يكب على دراسة المؤلفات الإغريقية واللاتينية حتى يسهل عليه الاتصال بزعماء

الفكر واشتغل بترجمة بعض مؤلفات ثيوسيديدز ، ولكنه لم يظهر إلا فى سنة ١٦٢٨ م .

بعد هذا عنَّ له أن يشتغل ببعض المباحث الفلسفية ، فدرس أقليدس وأعجب بطريق الإقناع المتبع فى الرياضيات، وشاء أن يقلده فى بعض المباحث الأخرى كالطبيعيات والاجتماعيات .

فلسفته

يرى هبز أن الفلسفة هى إدراك الارتباط بين الأسباب ومسبباتها، وانتقال الفكر من العلة إلى المعلول، وردّ المظاهر إلى عللها الأولى التى نشأت عنها . ويذهب إلى أن الأساس العام الذى تقوم عليه الحياة الفردية والاجتماعية ، والوجود الروحى والمادي هو الحركة؛ وعلى هذا الأساس يحاول أن يفسر حياة الفرد والجماعة ، فكلاهما مجموعة حركات مؤتلفة ، وإليه يرد جميع مظاهر العالم المادى. والحياة العقلية ، فان الشعور يرجع إلى تأثير البواعث المختلفة فى فى الأعصاب وقبول الحواس للتغير والانفعال ، وأثارة حركة فى المجموع العصبي يتبعها الإدراك والعلم بحقائق الأشياء ، فليس

فى النفس مدرك إلا وصل إليها عن طريق الحواس إما دفعة واحدة أو قليلا قليلا ، فمصدر المعرفة الإدراك الحسى .

وقد جعل هبز موضوع الفلسفة الأجسام وما يتوارد عليها من الحركات، ثم قسمها قسمين : طبيعية، ومدنية؛ نظراً لأن الأجسام لا تخلو من أن تكون ناشئة من تركيب الطبيعة وصنعها ، والبحث فيها يسمى فلسفة طبيعية ؛ أو من اتفاق بنى الإنسان وإرادتهم كالمدن والدول، والبحث فيها يسمى فلسفة مدنية. ثم الفلسفة المدنية قسمان : علم الأخلاق وعلم السياسة ؛ لأن معرفة النظام المدنى الذى يخضع له شعب أو جماعة يدعونا إلى دراسة الميول المختلفة فى الإنسان باعتبار أنها دافع إلى عمله وتصرفه فى المجموع المدنى؛ ومن هنا شملت الفلسفة المباحث الثلاثة الجسم والإنسان والدولة .

إن شهرة هبز لا ترجع إلى مذهبه فى الفلسفة الطبيعية ، ولا إلى نظريته فى الحياة العقلية وأساسها ، وكيف تنشأ ، وإنما ترجع إلى بحثه فى الإنسان ، وضرورة اجتماعه بغيره وخضوعه لحكومة منظمة ، تقوم على مصالحه ، وتحميه من كل اعتداء ، وتفسح له فى مجال الارتقاء، وتقدره على الاستكثار من مرافق المدنية.

يحدثنا هبز أن الباعث للانسان على أى عمل هو محبته لنفسه ، وإرادة الخير لها ، ورغبته الأكيدة فى استبقائها ، والمحافظة عليها ، وحمايتها من كل أذى ، فهو أنانى بطبعه ، ثم يرجع بنا إلى الإنسان الأول ، ويصوره لنا وقد خضع لشهواته وطمع فى الحصول على ما فى يد غيره ، ويرتب على هذا أن يطغى القوى على الضعيف ، ليسلبه طعامه ، وما يتمتع به من نعمة الحياة ، ويستأثر بالمنافع المشتركة المتنازعة دونه ، فتقوم الحرب على قدم وساق ، ويعم الخوف ، ويقف الموت للناس بالمرصاد . ومن البين « أن حياة كهذه لا محل للصناعة والزراعة والتجارة والملاحة فيها ، وكذلك لن نجد فيها مجالا لتعلية البناء ؛ ولا لوسائل النقل ولا للعلوم والآداب والمهن المختلفة ؛ وبالاختصار لن تقوم حياة اجتماعية على هذا الأساس ؛ بل يعيش الإنسان بمعزل عن البقية ، يجرى فى أثره البؤس والشقاء ، ويتبعه شبح الموت ، فى أى مكان نزل . »

ولما وجد الناس هذه الحياة غير محتملة ، وفيها مضرة شاملة ، اتفقوا فيما بينهم ، وأجمعوا أمرهم على أن يتنازل كل واحد منهم عن حقه الطبيعى — وهو ما يتمتع به كل شخص من تمام الحرية

فى استعمال جميع الوسائل للدفاع عن حياته ، بالطريق التى يرضاها — ويكلوا الفصل فى شئونهم إلى واحد — أو جماعة — يختار من بينهم ليحافظ على مصالحهم ويقف كل واحد عند حده « والطريق لإقامة حكومة عامة ، تصد عنهم غارات الأجانب وتدفع عن بعضهم أذى بعض ، حتى يوجهوا جهودهم إلى الصناعة والزراعة ويعيشوا عيشة راضية أن يمنحوا واحداً — أو جماعة — منهم كل ماأوتوا من بطش وقوة حتى يجمع شملهم ويضم صفوفهم ويتفق معهم على الخضوع لإرادة موحدة . »

وهذا الشخص — أو الجماعة — الذين رضوا بالخضوع له ، هو الحاكم صاحب السيادة « وللحصول على حق الحكم طريقان : أولهما القوة المادية كما يحصل عند مايجعل الرجل أولاده خاضعين لحكمه . فإن فى قدرته إهلاكهم إذا رفضوا طاعته ، أو عندما ينتصر الإنسان على أعدائه فى الحرب فيمتلك رقابهم ثم يفك أسرهم بشرط أن يطيعوه . وثانيهما اتفاق الناس فيما بينهم ، على الخضوع لواحد — أو جماعة — منهم بمحض اختيارهم واثقين بأنه سيدفع عنهم كل أذى . »

ومادام الشخص قد تنازل عن حقه فى أن يتولى شئون نفسه بنفسه ورضى بأن يضع زمامه فى يد غيره ويجعل له تمام السلطان عليه على شرط أن يفعل كل واحد ذلك فكأن بين الناس عقداً اجتماعياً يجب على كل من اشترك فيه المحافظة عليه .

يفرع هبز على هذه النظرية عدة نتائج : منها أن صاحب السيادة مطلق فى تصرفه ، وفى يده وحده السلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية ، وعلى الناس جميعاً أن يطيعوه ، ولا يجوز لأحد الخروج على سلطانه ، إلا فى حالة واحدة لا تتفق مع الغرض الأسمى من التعاقد ، وذلك كأن يأمره أن يقتل نفسه ، أو يصيبها بسوء أو يكف عن درء الخطر عنها . وأنت عليم بأن التعاقد إنما حصل لحماية النفس . ومنها أن صاحب السيادة هو الذى يحدد لرعيته طريق العمل ، بما يضع من القوانين ، ويصدر من الأوامر والنواهى ، ويبين الطيب والخبيث ، والخير والشر من الأعمال . وعلى الجملة يعين الفاضل والمرذول من الأخلاق ، ويكون معياراً خلقياً ، وفيصلا لا يرد له حكم ، وليس لأحد أيا كان أن يحيد قيد شعرة عن المسلك الذى يرتضيه الحاكم ، فأن فى حياده إخلالا

بالتعاقد ، ورجوعا عنه يعرض الناكث إلى الخطر الذى قامت الجماعة لدرئه .

أما من جهة الدين فإن صاحب السيادة هو الذى يمليه على الناس إملاء ؛ ولذلك يجب عدم الفصل بين السلطتين السياسية والدينية . والاتحاد فى الشعائر وضروب العبادات والإيمان بالقواعد التى تقررها الكنيسة المعتبرة فى الدولة من الأمور الضرورية التى يقتضيها النظام المدنى .

هذه هى فلسفة هبز الاجتماعية ، وقد اهتم الناس بآرائه . وتناولوها بالدرس والنقد ، وأخذوا عليه أنه لم يفهم الطبائع البشرية حق الفهم ، وجعل الناس خاضعين لغريزة واحدة فيهم : هى محبة النفس ، وأهمل سائر الميول الفطرية ، وأنه لم يقيد صاحب السلطان بقيد مع أنه واحد من الأفراد يقيده العقد كما يقيد البقية .

رنى ديكارت

فى مارس سنة ١٥٩٦م ولد ديكارت فى مدينة لاهاى Lahaye من أعمال فرنسا وكان أهله من ذوى الغنى واليسار ولما ترعرع دخل مدرسة اليسوعيين فى « لافلاش » وكانت واسعة الشهرة

بعيدة الصيت فى العالم الأوربى فأكب على الدرس والتحصيل، ورغب فى الاستفادة من أساتذته، وأقام فى هذه المدرسة مدة، ثم قصد باريس ومال إلى دراسة العلوم الرياضية ووجد فيها حاجة نفسه وأعجب بأسلوبها ووضوح أدلتها وصدق اليقين الذى تهدى إليه، وقد جمع بين دراسة العلوم الرياضية والقانون وأظهر نبوغاً نادراً فى كليهما، ونال إجازة الحقوق وعمره لا يزيد على عشرين سنة.

تطوع ديكارت بالانتظام فى سلك الجندية، ودعته الحرب إلى ألمانيا، فذهب إليها وحضر المعامع مراراً، وبقى فى الجيش أربع سنوات اتسعت فيها تجاربه، وأتيحت له فرص نادرة، لرؤية كثير من المشاهد والاختلاط بصنوف من الناس، ثم ترك الجندية، وآثر العزلة والاشتغال بالعلم واتخذ هولاندا مقراً يتمتع فيه بالهدوء والسكينة، فأقام هناك عشرين عاماً تمكن فى أثنائها من التفكير والروية ووضع آرائه الفلسفية التى نجملها بعد.

ولما ذاعت شهرته كتبت إليه كرستينا ملكة السويد تدعوه إليها فلبى طلبها، وتولى تعليمها، ثم أدركته المنية فى فبراير سنة ١٦٥٠ م.

فلسفته

إن مؤرخى الفلسفة متفقون على أن ديكارت هو الذى وضع أساس الفلسفة الحديثة ؛ لأنه رفض جميع الأساليب الفكرية القديمة، واعتمد على نفسه، واستقل بوضع طريقة جديدة تقوم على دعامة من صدق اليقين، وجعل مقياس الحقائق وضوحها وجلاءها وظهورها أمام مرآة العقل .

وبقى ديكارت سنين طوالا ، وللحيرة سلطان عليه ، فلا يدرى أى حرفة يحترف ، وأخيراً صمم على طلب العلم الصحيح وتلمسه فى كل مكان فلم يجده إلا فى كتاب الطبيعة الذى غفل الناس عنه ، وفى نفسه التى بين جنبيه يقول ما معناه : «كنت راجعا من حفلة تتويج الأمبراطور ، فأدركنى الشتاء ، وأخَّرنى فى بعض الأماكن فوجدت نفسى منفرداً لاصديق لى أتّحدث اليه ، وتمتعت بالهدوء التام ، واعتكفت فى حجرة دافئة ، وخلوت إلى أفكارى أستعرضها وأتبين مافيها من صواب أو خطأ ، وخطر ببالى باديءَ ذى بدء أن العمل الذى يشترك فى القيام به عدد من الناس لا يخلو من نقص بخلاف العمل الذى يقوم به شخص واحد ، وليس أدل على ذلك

من أن العلوم التى تعتبر نتيجة جهود الغابرين لا تزال ظنية الأدلة بعيدة عن الحقيقة » .

يستعرض ديكارت أفكاره جملة جملة ، فيرى أنها مهوشة وباطلة ، وأنه تقبلها أيام كان صغير السن ، لا قدرة له على تحكيم العقل ، ولا على اتخاذ مقياس مضبوط يفرق به بين الغث والسمين وهو مقتنع بأن أول ما يجب عليه أن ينزع من نفسه جميع الآراء والعقائد ، التى قبلها من قبل لتقوم مقامها أفكار جديدة تتمشى مع العقل السليم .

أسلوب البحث

يحدثنا ديكارت أن أفكارنا مهوشة ، لأنا نحاول الحصول على المعلومات جملة مجتمعة ، فيفوتنا كثير من الدقائق ويختلط علينا الأمر ويشتبه الحق بالباطل ، ثم يجهد نفسه فى التفكير فى وضع خطة جديدة توصلنا إلى الأفكار اليقينية ، التى لا يحوم حولها الشك ، ويذكر لهذه الطريقة أصولا أربعة : —

(١) تقسيم المسائل الصعبة التى تتوارد على الخاطر وحلها إلى عناصرها الأولى ، ثم البحث فى كل عنصر على حدة .

(٢) عدم التسليم بحقيقة ما إلا إذا عرفنا صحتها بظهورها ووضوحها وتجليها أمام العقل.

(٣) الترتيب والتدرج فى التفكير : فنبدأ أولا بالأشياء البسيطة السهلة الواضحة ، ثم نسير ، مع التؤدة والحذر، حتى نصل إلى المسائل المركبة الغامضة ، ونعالجها مع الصبر وطول الأناة. ويجب وضع نظام للبحث والانتقال من فكرة إلى أخرى ، حتى إذا لم يكن بينهما ارتباط ظاهر.

(٤) أن يكون الاستقراء تاماً،والبحث شاملا ، حتى لا نغفل جهة من جهات الموضوع .

بعد أن وضع ديكارت هذه القواعد الأربع ، بدأ ينزع من نفسه جميع العقائد والآراء والأفكار، وقال ما ملخصه : « أفرض أن جميع الأشياء التى أراها باطلة وأقتنع بعدم وجود الأشياء التى أمدتنى بها الذاكرة الخادعة ، وأعتبر نفسى فاقداً جميع الحواس ، وأدعى أن الجسم والصورة والامتداد والحركة والمكان من خلق الخيال . فما الذى يبقى من الحق بعد؟ لا شىء . اللهم إلا حقيقة واحدة هى الحكم بأن الأشياء جميعها باطلة لا وجود لها . ولكن كيف يسوغ لى أن أحكم عليها كلها بالبطلان ؟ فقد يكون هناك

نوع آخر منها لا يجد الشك سبيلا إليه . أليس هناك إله ؟ أو قوة أخرى تضع الأفكار فى عقلى ؟ ليس هذا ضروريا ، فقد تكون لى قدرة على خلقها . إذن أنا شىء ما دامت لى هذه القدرة ، ولكن أى شىء أنا ؟ فلقد أنكرت كل شىء حتى الحواس والجسم ، حقاً لقد أنكرت جميع الكائنات من السموات والأرض وما بينهما ، وأنكرت كذلك حواسى وجسمى ، ولكن هل هذا يقتضى أنى غير موجود ؟ كلا فإنى أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود ، وليس فى ذلك من شك » .

أثبت ديكارت على هذا النحو أنه موجود واستمر فى البحث عن حقيقة ذاته ، وتحدث إلينا بأنه شىء يفكر ، ويشك ويفهم ، ويثبت وينفى ، ويريد ولا يريد ، ويتخيل ويدرك المعقولات والمحسوسات على السواء ، وهذه الخصائص لا تدع مجالا للشك فى وجوده حتى لو كانت المدركات وهمية .

وجود الله والعالم

بعد أن يدرك ديكارت أنيته على نحو ما أسلفنا ينتقل إلى إثبات وجود الله ، فيرجع إلى نفسه مفكراً ، فيرى فى عقله جملة من الأفكار ، فيستعرضها ، ثم يحاول ردها إلى أصولها التى انبعثت عنها

فيجد أن بعضها فطرى نشأ معه منذ ولد، وبعضها مستمد من العالم الخارجى، والبعض الآخر من ابتداع الخيال، ويقول «من البين أن أفكارى منها ما هو غريزى، ومنها ما هو راجع إلى اتصالى بالأشياء الخارجية، ومنها ما صنعته بنفسى، فقدرتى على الإدراك غريزية فى طبيعتى، أما كونى أسمع صوتا أو أرى الشمس أو أحس حرارة، فهذه المدركات تنبعث عن أمور خارجة عنى، ومن بين أفكارى صورة معدومة النظير فى العالم الخارجى ابتدعها خيالى وصنعتها بنفسى».

يجد ديكارت فى أثناء البحث واستعراض أفكاره، أن بينها فكرة ممتازة عظيمة الشأن كاملة وتلك هى فكرة إله قادر عليم قائم بنفسه غنى عما سواه لا يعتريه فناء ولا تلحقه استحالة خلق الكائنات جميعاً، وأنشأها من العدم، فيتلمس أصل هذه الفكرة، فيدرك استحالة صدورها عن فطرته؛ إذ ليس من المعقول أن تكون هذه الصفات مع عظمتها وجلالها منبعثة عن الطبيعة البشرية، مع ما تشتمل عليه من نقص أو عن أى سبب آخر دون ذلك المثل الأعلى، لضرورة التكافؤ بين العلة والمعلول. ومن هنا

كان من البديهى التسليم بوجود إله عام القدرة واسع السلطان جامع لكل صفات الكمال ، هو الذى جعل فى الإنسان هذه الفكرة ، وألهمه إياها دليلا على بديع صنعه ، فالله موجود وليس فى وجوده شك .

يقيم ديكارت على وجود الله دليلا آخر ، فيرى أنه مفكر ، فهو موجود ، وأن وجوده ليس من ذات نفسه فلا بد من سبب آخر ، إذ لو كان هو الذى أوجد نفسه لمنحها جميع الكمالات التى ترغب فيها ، ولكنه يشك فهو ناقص ، ولما كان مفكراً فمن الضرورى أن يكون سبب وجوده كائنا مفكراً حائزاً لجميع الكمالات فاذا كان هذا الكائن موجوداً من نفسه فهو الله وإذا استمد وجوده من كائن آخر تسلسلت الكائنات تسلسلا لا نهاية له ، أو انتهت إلى الكائن الأول ، وكلا الأمرين محال ، فلزم أن يكون سبب وجوده هو الله . وليس فى هذه الحقيقة أدنى ريب .

يرى ديكارت بعد هذا ، أن من السهل عليه أن يقيم الدليل على وجود العالم ، فإنه رفض التصديق بوجوده ؛ لجواز أن يكون هناك قوة خبيثة ، تخدعنا وتصور لنا الباطل حقا ، فأما وقد أقام الدليل على وجود الله ، وأثبت له جميع صفات الكمال ، ومن بينها

الصدق فيجب ألا يعترينا الشك فى وجود الكائنات الخارجية ؛ إذ لو كانت وهمية ، لزم عليه أن يكون الله خادعا ؛ فانه هو الذى يصور لنا جميع ما ندرك .

طبيعة الوجود

بحث ديكارت فى طبائع الموجودات ، وأدرك أنها ترجع إلى عنصرين : الجسم ، والنفس ؛ فأما النفس فشىء روحى ، به يكون التفكير والإدراك ، وأما الجسم فيعرف بامتداده ، طولا وعرضاً وعمقاً ، وبقبوله للانقسام قبولا لا ينتهى عند غاية ، وبأن يملأ فراغا ؛ وعلى ذلك لا توجد جواهر فردية ؛ لأنها مهما صغرت لابد من امتدادها ، وكل ممتد قابل للتجزئة . والأجسام لاقدرة لها على الحركة من تلقاء نفسها ، ولكنها منفعلة متأثرة بسبب آخر هو الله ، الذى جعل فى المادة حركة ، فنشأ عن حركتها الكائنات المادية ، ومن اتصال المادة بالنفس نشأ الإنسان .

ظهر مما تقدم أن بين المادة والنفس خلافا جوهريا ؛ لاختلافهما فى الصفات والمظاهر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف جاز اتصالهما ؟ وكيف يتأثر أحدهما ويؤثر فى الآخر مع تباينهما ؟

وماذا عسى أن تكون طبيعة هذا الاتصال ؟ إن ديكارت لا يشرح حقيقة الارتباط بين الروح والمادة، ولا يضع لنا نظرية عامة تبين كيف تتأثر إحداهما بالأخرى، ولكنه جعل كلامه مقصوراً على الإنسان لوضوح اتصال الجسم والنفس فيه، فقال إن الجسم كتلة من المادة، بجميع ما يصدر عنه من الأعمال من حيث هو جسم يجب أن يكون جاريا على ما تقتضيه القوانين الطبيعية للمادة، فهو لا يدرك ولا يشعر ولا يفكر، ولكن يتحرك حركة آلية تنبعث عن الحرارة الكامنة فيه الناشئة من اتصال الأعضاء على جهة معينة: فالإنسان والحيوان إلى هذا الحد سواء، وإنما يمتاز الإنسان بالنفس المدركة أو العقل الذي به يكون التفكير. يقول ما ملخصه «لقد وجدت بعد البحث والنظر أن هناك عاملين متميزين تنبعث عنهما حركة الأجسام: أما أولهما فالنفس الغاذية أو القوة الحيوانية. وتنشأ من تكوين الأعضاء المختلفة وتباين صورها واتصال بعضها ببعض وائتلافها حتى تصدر عنها حرارة الحياة. وأما ثانيهما فالنفس الناطقة أو العقل وليس في الاستطاعة تعريفه بأكثر من أنه جوهر مفكر. وجميع أفعال الحيوان، وطائفة كبيرة من أفعال

الإنسان إنما تصدر عن النفس الحيوانية . ومن الخطأ أن نعتقد أن ما يفعله بعض الحيوانات كالكلب والثعلب ، مما يوهم وجود قوة مفكرة فيها صادر عن عقل وروية ، وإنما هى أفعال منعكسة اقتضتها ضرورة تكوين الجسم على نحو معين .

وللتدليل على صحة رأيه هذا ، يوازن ديكارت بين الإنسان والحيوان ، وبين بعض الآلات الموسيقية وغيرها من جهة التركيب والصناعة ، ويثبت أن جميع أفعال الحيوان ، وغالب أفعال الإنسان رد فعل طبيعى ناشئ من اتصال الجسم بالبواعث المختلفة .

إن للإنسان نفسا ناطقة مقرها فى الرأس ، وهى صاحبة الإدارة والتصريف فى بعض أفعاله ، فهى من الإنسان بمنزلة المهندس الذى يبتدع الآلات ، ويسخرها لقضاء مصالحه ، فيحركها ابتداء ، ويوقفها عند حد معين ، ويغير من حركاتها على حسب مشيئته ، ومن هنا كان للإنسان إرادة يخضع لها جزء من أعماله .

وأساس هذه الإرادة كما قدمنا لك النفس الناطقة التى عملها التفكير المحض ، وإدراك حقائق الأشياء على ما هى عليه ، غير أن اتصالها بالجسم ، وتأثرها بهذا الاتصال مفسد لها عائق لها عن

الكمال، ومن هذا الامتزاج تنبعث الشهوات المختلفة، التى تقلل من سعادتها، وتعميها عن رؤية الحقائق. وتكون النفس فى أحسن حالاتها إذا تغلب الجانب الفكرى على الجانب المادى؛ فان الروح تصفو وتقرب من الله، فتشرق عليها الحقائق.

ظهر من مذهب ديكارت أن الوجود ينحل إلى ثلاثة جواهر أولية: — النفس، والجسم، والله. والله وحده هو الجوهر الحقيقى؛ فانه موجود بنفسه لا يحتاج فى وجوده إلى موجود آخر، أما الجسم والنفس فجواهر نسبية تعرف بأعراضها، فعرض الجسم الامتداد، وعرض النفس التفكير، وترجع فى وجودها إلى الجوهر الحقيقى وهو الله. ومن هنا تعود إلى الظهور مسألة فلسفية واسعة المدى هى حقيقة الاتصال بين الله والعالم.

هذا مجمل فلسفة ديكارت، التى كان لها تأثير عظيم فى العالم الأوروبى؛ فقد ظهر له أشياع عنوا بتحقيق مذهبه، ولا سيما فى هولنده وفرنسا؛ فإن تلاميذه ومن بينهم مَلِبْرانش (١٦٣٨–١٧١٥م) تابعوا البحث فى علاقة العقل بالجسم، وكيف يتأثر كل واحد منهما بالآخر؛ ولما لم يجدوا نظرية تطمئن إليها نفوسهم ردّوا

أفعال الإنسان إلى الله وحده ، أما العقل فلا قدرة له على خلق أى حركة جسمية ، اللهم إلا إذا وافقت إرادة الشخص إرادة الكائن الأعلى ، ومن هنا نشأ مذهب جديد يعرف بمذهب الاتفاقيين .

جـون لوك

من سنة ١٦٣٢ — ١٧٠٤ م

يعتبر جون لوك ، بحق ، زعيم المذهب التجريبي الذى شاع فى انجلترا ، منذ القرن السابع عشر وكان ذا أثر بيّن فى توجيه الحياة الفكرية ، وقيادة العقول حتى يومنا هذا .

ولد جون فى رنجتون من بلاد سمرست ، وعنى أهله بتربيته فأدخلوه مدرسة ثانوية شهيرة فى لندن ، فمكث بها ست سنوات (١٦٤٦ ـ ١٦٥٢) ، ثم غادرها إلى جامعة اكسفرد ، وأكب على دراسة الأدب والبلاغة والفلسفة ، ونال الدرجة فيها ، ثم تاقت نفسه الى توسيع معارفه ، فدرس الطب ، وحصل على درجة عالية فيه ، وعيّن محاضراً فى الجامعة ، بعد تخرجه مباشرة ، وهذا شرف عظيم لا يناله إلا النابغون .

وفى سنة ١٦٦٦ م قابل نبيلا من نبلاء إنجلترا ، وأحد أساطين

السياسة فيها ، المعروفين بمعارضة الحزب الملكى ، فاتصل به ، وحسنت الصلة بينهما ، فاستخدمه فى تربية أحد أبنائه ، وكان ذلك سبباً فى ظهور لوك ، واشتراكه فى الحياة العامة ، واشتغاله بشئون السياسة فى عصر كانت انجلترا تموج فيه بالفتن ، فكان من المعارضين لحزب الملك ، وترتب على ذلك حرمانه من الراتب ، الذى كان يجرى عليه من جامعة أكسفرد ، ثم نفيه إلى هولنده ، ومقامه بها خمس سنين . ولما ارتقى وليام أورنج عرش انجلترا عاد إليها لوك واشتغل ببعض الوظائف العامة ، وكان من أصحاب الزعامة الفكرية فى الفلسفة والسياسية والتربية ، ومن بين مؤلفاته ثلاث رسائل « فى التسامح » أيد فيها حق كل إنسان فى حرية العقيدة ، محتجا بأن من الخرق حمل الناس جميعا على اعتناق عقيدة واحدة ، لا تتوفر الأدلة على صحتها . ومقالان « فى الحكومة » ذهب فى أولاهما إلى إنكار أن الملك يستمد حق الحكم من عند الله ، وأبان فى ثانيتهما الحياة الطبيعية الأولى . وكيف نشأ المجموع المدنى ، ورأى من المصلحة العامة أن يتمتع كل مدنى بقسط من الحرية ، وأن تكون الغاية من الحكم مصلحة المحكومين . وله كذلك أفكار فى

التربية ينتقد فيها النظام المتبع فى زمنه، ويضع منهاجاً جديداً للتربية الجسمية والعقلية والخلقية، ويبين وجه الصواب فى طريق التعليم، ومقال فى العقل الإنسانى وهو الذى سنجمل لك ما يشتمل عليه بعد.

ويمتاز لوك بأنه لم يكن من المتسرعين الذين يبادرون إلى نشر أفكارهم قبل أن تختمر فى عقولهم، وليس أدل على ذلك من أنه لم يخرج كتبه للناس حتى قارب الستين.

فلسفته

تناول لوك فى مقاله البحث فى حقيقة العقل، وفى الملكات والقوى، ومبلغ ما لها من قدرة على استخلاص الأفكار من عالم المشاهدة، وفى الطرق التى تسلكها للوصول إلى المدركات الكلية، وقد أبان الغرض من رسالته بقوله: «سأحاول التفكير فى الملكات التى يستخدمها الإنسان فى تعرف الأشياء المحسة، وأكبر ظنى أن وقتى لن يضيع سدى إذا وفقت هذه المرة إلى معرفة المناهج التى يتبعها العقل والقوانين التى يسير عليها فى استنباط الأفكار، وإلى العلم بسبب اختلاف الناس وتناقضهم فى عقائدهم وعاداتهم وإلى إدراك المقياس الذى نهتدى به إلى صدق اليقين.

وإذا كان بحثى فى طبيعة العقل سيرشدنى إلى فهم ملكاته وتعرف ما تستطيع التفكير فيه وما لا تستطيعه فقد يكون ذلك مفيداً فى حمل الذين يجهدون عقولهم فى علم مالا سبيل إلى علمه على أن يقفوا عند حد العقل البشرى وعلى أن يقروا بعجزهم عن إدراك كثير من مظاهر الطبيعة ».

ويعتقد لوك أن هذا القصور لن يضيرنا فى شيء ، ولن يحول بيننا وبين البحث فيما يمكن علمه ، ثم يضرب الأمثلة للتدليل على صحة رأيه فيقول من ذا الذى يقبل قول الخادم الكسلان اذا لم يؤد عمله فى ضوء المصباح معتذرا بأن الشمس لم تكن مشرقة ؟ ان النور الذى وضعه الله فى الإنسان كاف لهدايته، وان كان ضئيلا لا يجلى أمامه جميع الحقائق أو لست ترى الملاح يستعمل حبله القصير الذى لا يصل الى قرارة الماء السحيقة ليتعرف به الأغوار القريبة ويتجنبها بسفينته فينجو بذلك من العطب؟

القوانين الضرورية للفكر

بعد أن يبين لوك الغرض من مقاله ينتقل إلى البحث فيما يسميه الناس غلطا بالقوانين الضرورية للفكر، فينكرها بتاتا ، ويدعى أن

الالتجاء إلى هذا النوع من الأفكار، هو طريق الكسالى الذى عجزوا عن إدراك العوامل التى انبعثت عنها هذه القوانين، وكيفية نشأتها، فلم يجدوا خيراً من أن ينسبوها إلى الغريزة والإلهام، وإلى أنها انطبعت فى النفس منذ القدم فهى زادها الذى أمدها الله به، وساعد هذا الاعتقاد جماعة من الذين يدعون العلم، ومهد لهم الطريق، فإن أتباعهم خضعوا لهم وأخذوا عنهم ما نقلوه من غير أن يطلبوا عليه دليلا أو يحتاجوا فى إثباته إلى حجة.

يدلل لوك على صحة دعواه بأن الله جعل فى كل إنسان حواس ظاهرة، وأخرى باطنة، ليتمكن الناس من إدراك المحسات واستنباط المعانى، ولو أن من العلم ما هو فطرى، لكان من العبث الذى يتنزه الله عنه خلق الحواس، ووضع ذلك النور الإلهى فى الإنسان، ثم يتعرض بعد إيراد الحجج على صحة رأيه إلى تفنيد مزاعم الذين يقولون ببداهة بعض القوانين، ويرينا أنها لو كانت راجعة إلى الإلهام الفطرى لاستوى فى التصديق بها الطفل الرضيع، والرجل البالغ، والمتحضر والمتوحش، ولكن الواقع لا يؤيد ذلك؛ فإن الأطفال والمتوحشين لا يدركون هذه القوانين؛ فمن الخطأ إذن

اعتبارها بديهية مطبوعة فى النفس منذ ولادتها . وكيف تكون مطبوعة فيها مع عدم قدرتها على إدراكها ؟ هذا تناقض لا يقبله عقل سليم .

زد على ذلك أن الطفل يعرف مرضعته ولعبه ومهده تدريجاً، ويتناول الأشياء الحلوة، ويعرض عن الحريفة، ومن المستحيل عليه أن يدرك أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأنّى له ذلك وعقله لم ينضج بعد !

لهذه الأسباب وغيرها يعدل عن الرأى الشائع بين الناس، ويعلن فى صراحة ووضوح عبارة أن العلم إنما يأتى بطريق التجارب .

العقل والتجارب

يحدثنا لوك عن حقيقة العقل ، ويقص علينا كيف تحل الأفكار فيه ، ومن أين ترد عليه ، فيذهب إلى اعتباره كالصفحة البيضاء ، فهو خال من كل نقش وصورة ، وقابل للانفعال بالبواعث المختلفة ، فإذا مرت به تجارب الحياة تركت فيه آثاراً لا تمحى . وتجارب الحياة تستمد من جهتين : أولاهما ملاحظتنا للأشياء المحسة ، وثانيتهما تأملنا فيما يجرى فى قرارة النفس ، ومن هاتين الجهتين تجد الأفكار طريقها إلى العقل .

يعرض لوك بعد هذا إلى الأفكار فى دائرة العقل فيستقصيها، ويجد أنها لا تخرج عن قسمين: قسم يرجع إلى المؤثرات الخارجية، وقسم يرجع إلى التأمل فى حالات النفس، وليست هناك فكرة واحدة تخرج عن هذين الأصلين.

والأفكار إما بسيطة وإما مركبة، والبسيطة أقسام تبعاً لطريق ورودها، فمنها: —

(١) الأفكار التى ترد إلى العقل عن طريق حاسة واحدة كالألوان والأصوات والطعوم والروائح والحرارة والبرودة واليبوسة واللين.

(٢) الأفكار التى يشترك فى إيرادها إلى العقل حاستان فأكثر كادراك الفراغ والامتداد والصورة والحركة والسكون؛ فان البصر واللمس يشتركان فى إيصال هذه المدركات إلى النفس.

(٣) الأفكار التى ترد إلينا عن طريق التأمل الباطنى فى الحركات العقلية: كفهم معنى الإدراك والإرادة.

(٤) الأفكار التى تجىء عن طريق الحواس الظاهرة والباطنة معاً، ويدخل فيها الشعور بالسرور أو الألم، وادراك معنى القوة والوجود والوحدة وغيرها.

وهذه الأنواع تتضمن كل ما نعلم ، ولا يشذ عنها شيء ، وإن كان يخيل إلى القارىء أنها قليلة ضيقة المجال ، لا تستوعب جميع ما تشتمل عليه الحياة الفكرية من عناصر .

أما الأفكار المركبة فحاصلة من تصرف العقل فى الأفكار البسيطة ، ويكون ذلك على ثلاثة أنحاء : —

(١) ضم عدد من الأفكار البسيطة بعضها إلى بعض ، لتكوين فكرة واحدة مركبة .

(٢) استحضار فكرتين معا ، ووضع إحداهما بجانب الأخرى مع بقائهما متميزتين ، وعقد موازنة بينهما لإدراك وجوه الشبه والخلاف فيهما .

(٣) فصل الأفكار عما يصاحبها فى الوجود ، واعتبارها متميزة عن أعراضها حتى يتكون المعنى الذهنى العام .

ومهما كانت جهة التركيب ، فأن الأفكار لا تخرج دلالتها عن أوضاع ثلاثة : —

(١) دلالتها على الأعراض ، وذلك إذا دلت على أمور لا وجود لها فى ذاتها ، وإنما تلحق الجواهر ، وتكون صفات تابعة لها فى الوجود .

(٢) دلالتها على الجواهر التى لها وجود فى ذاتها ، وذلك كما إذا أضفنا إلى كلمة مادة بعض صفات أخرى كالثقل والصلابة وقبول الطرق والتمدد والانصهار واللون الخاص، فقد اجتمع لدينا من هذه الأفكار فكرة مركبة مدلولها الرصاص.

(٣) دلالتها على العلاقة بين الأشياء، وارتباط بعضها ببعض؛ كادراك معنى السببية والأبعاد والحركة والسكون والوحدة والتعدد.

ومن هنا يتبين لك أن جميع الأفكار التى تجد طريقها الى العقل مستمد من أصلين لا ثالث لهما : أولهما اتصال الانسان بعالم الطبيعة ، وثانيهما تأمله لما يجرى فى قرارة نفسه.

العلم ومعياره

يرى لوك أن العلم إدراك ما بين الأفكار من ائتلاف واتفاق، أو تنافر واختلاف ، فإذا انعدم هذا الإدراك لم يوجد العالم الحقيقى، ويكون كل ماهنالك نوعا من الظن أو التخمين أو التخيل .

وقد يكون العلم يقينياً أو احتمالياً : واليقيني منه ما يشرق على النفس، فيحل فيها من غير شك ولا تردد ولا انتظار دليل، كعلمنا بأن الأبيض ليس أسود ، وبأن الدائرة ليست مثلثا ، وكحكمنا بأن

الثلاثة أكثر من الإثنين ؛ فان العقل يدرك هذه الأشياء وأمثالها لأول وهلة عند حصول النظرة الأولى . ومن اليقيني مالا يدركه العقل إلا بعد تأمل وروية ، وتلمس دليل ؛ كعلمنا بأن زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين ؛ فان العقل لا يحكم بهذا التساوى إلا إذا قام البرهان على صحته . أما العلم الذى لا يقطع الإنسان بصحته بادئ بدء، فطريقه الرواية، والسماع وترتبط درجة هذا النوع من العلم وقربه من اليقين بعدد الرواة وعدالتهم وبصرهم ويقظتهم حتى يفرقوا بين الغث والسمين ، والانسجام فيما ينقلون إلينا ، واستعمال الحكمة فى ترجيح رواية على أخرى تناقضها . أما معيار العلم الذى نميز به بين الحق والباطل ، فهو الاتفاق بين ما نعلم والأشياء المحسة التى تبعث الأفكار فى النفس ، فإذا أردت معرفة صحيح العلم من فاسده ، وجب عليك أن تحتكم إلى الواقع المحس . ولكن هذا المعيار لا نستطيع الرجوع إليه فى كل ما نعلم ؛ فإن من بين الأفكار مالا نظير له فى الخارج ، وذلك كالأفكار المركبة التى لا تتعلق بذوات الأشياء ، وكالمعانى المجردة ، والصور الخيالية ؛ إذ لا يمكن تطبيقها على شىء خارجى .

ويرى لوك أن العلم بمثل هذه الأشياء لايسمى علماً حقيقياً إلا على نوع من التساهل ، ويجعل العلم الحقيقى محصوراً فى العلم بذوات الأشياء ، وهذا النوع من العلم لايخرج عن ثلاثة أقسام : أولها علمنا بوجودنا الذى ندركه من تلقاء ذاتنا ، ولا نطلب عليه دليلا ، وثانيها علمنا بوجود الله ، ويختلف هذا عن الأول باحتياجنا فى تصوره إلى دليل ، والأدلة على وجود الله موفورة ، ومنها توقف وجودنا على وجوده ؛ فإن الأشياء لابد لها من موجد ، وثالثها علمنا بالكائنات المادية ، بواسطة الحواس ، التى تتعاون فى إيصال المعلومات إلينا ؛ فان الذى يرى النار بعينيه ، ثم يزعم أنها من خلق الوهم والخيال ، ليس عليه إلا أن يلمسها بيده ، حتى يقتنع بوجودها .

ديفد هيوم *Hume*

١٧١١ — ١٧٧٦ م

من فلاسفة الإنجليز ومؤرخيهم وأدبائهم ولد فى سنة ١٧١١ من أسرة نبيلة متوسطة الغنى، توفى والده وهو صغير، وتركه تحت رعاية أمه ، فأحسنت القيام عليه وعنيت بتربيته ، فأدخلته جامعة

إدنبره ، فدرس اللغتين ، اللاتينية ، والإغريقية ، وأظهر ميلا شديدا إلى دراسة العلوم العقلية ، وأكب على قراءة سيسرو وسنكا من فلاسفة الرومان ، ولوك وبيركلى وبطلر ، من كتّاب إنجلترا والمشتغلين بالفلسفة فيها .

حدثت له نفسه بادئ الأمر أن يدرس القانون ، ولكنه عدل عنه ؛ لأنه لم يجد فيه ما يشفى غلته ، ويوسع مجال الفكر أمامه ، واعتلت صحته ، فترك الكتب وشأنها ، واشتغل بالتجارة عدة أشهر ، ثم انصرف عنها ، وذهب إلى فرنسا ، فزار باريس وأقام فى ريمس زمناً ثم ألقى عصا التسيار فى لافلاش — وهى مدينة شهيرة بمدرسة اليسوعيين ، التى تخرج فيها ديكارت — فطاب له المقام هناك وعاودته صحته ، وتمكن من مداومة القراءة والاطلاع على الكتب ، وتهيأت له أسباب التأليف ، فكتب عدة فصول ، فى رسالته المشهورة « فى الطبيعة الإنسانية » التى تضمنت معظم آرائه الفلسفية .

وبعد أن أقام ثلاث سنين فى فرنسا ، رجع إلى لندن واستعد لطبع هذه الفصول ، وكان يرجو الخير من ورائها ، ولكن أمله لم يتحقق ؛ فإنها لم تلق اهتماما من جمهور العلماء ، ولم يعن بها أحد

من أهل النظر ، وفكر هيوم فى سبب هذا الكساد ، فزعم أنه الأسلوب الذى لم ينضج ، وتسرعه فى نشر آرائه ، من غير تمحيص ، فقد كان لايزال صغير السن ، فذهب الى مسقط رأسه وعكف على القراءة والدرس ، فتناول كتب النظريات السياسية والاقتصاد والمذاهب الفلسفية ، حتى توفرت له أسباب التأليف وكملت له عدة التفكير ، ونشر فى سنة ١٧٤١ م عددا من رسائله التى حبرها فى عزلته هذه ، فلقيت رواجا عظيما ، وانتشرت بين الناس انتشاراً سريعاً ، فأعاد طبعها فى السنة التالية ، وشجعه ما لقى من نجاح على إعادة النظر فى مؤلفاته الأولى ، وكتابتها بأسلوب جديد ، يضمن لها الرواج والشيوع .

وطمحت نفسه إلى بعض الوظائف ، وتقلبت به الأحوال ، فكان معلما لبعض أبناء النبلاء ، ثم كاتم سر ، ولم ينقطع فى كل أحواله عن الكتابة والتأليف فى الموضوعات المختلفة ، وقد وصفه لورد مكولى بقوله ما ملخصه « كان هيوم محامياً بارعا ، لا يدعى أكثر مما يستطيع التدليل على صحته ، ويهتم بالظروف التى تؤيد دعواه ، ويمر بما قد ينقضها مرورا سريعا ، يشجع شهوده

ويستحسن كلامهم ويدفع عنهم كل ما يشعر بتكذيبهم ، ويوفق بين شهاداتهم إذا بدا فيها تناقض ، ويستخلص منها أدلته ، ويجليها للسامع ، ويختبر مايقول الخصم بدقة ليبين مافيه من شائبة الخطأ »

أما أخلاقه فقد كتب عن نفسه « كنت معتدل المزاج ، قوى الإرادة ذا سلطان على نفسى صريحاً مرحاً ميالا للألفة ، مخلصا فى الحب قليل العداء ، وسطا فى كل شىء ، لم تدفعنى محبتى للشهرة الأدبية ، وما جربت من خيبة ويأس ، إلى الغضب والخروج عن حد الاعتدال . لم يأ كل أحد لحمى ، ولم يحقد علىّ إنسان ، على الرغم من أن رجال العلم والأدب عرضة للحسد والنقد دائما . »

فلسفته

يذهب هيوم مذهب الذين سبقوه من فلاسفة المذهب التجريبي ، فيرى أن مانعلم يرجع إلى أمرين لا ثالث لهما : أما أولهما فالآثار التى تحدثها البواعث المختلفة ، حين مشاهدتها وتعلق الحواس بها ، وقد عرف ما يقصده بكلمة الآثار ، فقال أنها تشمل جميع الإدراكات الحسية ، التى تحصل لنا حينما نسمع ، أو نبصر

أو نشعر أو نحب أو نكره ، أو نشتهى ، أو نريد ؛ ومن هذا التعريف يتبين أنها واسعة النطاق ، تشمل جميع الحالات العقلية التى انبعثت مباشرة عن اتصال الحواس بالأشياء المختلفة، وأما ثانيهما فالصور الذهنية ، التى تتركها المحسات ، بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها : فهى صور التجارب الماضية ، تعود إلينا ، عند ما نستدعيها ، ونتأملها . والفرق بين هذين النوعين من الإدراك هو فى مبلغ القوة ، ودرجة الوضوح ؛ فان البواعث ذاتها ، قوية الأثر ، تحدث انفعالا شديداً فى النفس ؛ بخلاف الصور ، فقد فتر نشاطها ، واعتراها الوهن .

والصور الذهنية ، فى رأى هيوم . قسمان : بسيطة ، ومركبة، فالبسيطة ما كان لها نظائر من المدركات الحسية ، وذلك كما إذا تأملنا فى الصورة الذهنية، التى ترمز لها كلمة «أحمر» فى جنح الظلام، فانها لا تختلف عن الأثر النفسي ، الذى نجده فى وضح النهار ، عند ما نرى شيئاً أحمر اللهم إلا بضعف الصورة ، وقوة الإدراك الحسى . والمركبة لا نظير لها فى الخارج، فهى من خلق الخيال ، الذى يضم الصور البسيطة بعضها إلى بعض ، ويركب منها

صوراً جديدة على أنحاء متعددة ؛ إذ يمكننا أن نتصور مدينة أرضها من فضة وذهب ، وحيطان بيوتها من الأحجار الكريمة ، ولكنا مهما أوغلنا فى التخيل ، فلن نتجاوز فى التركيب والابتداع تلك الصور الأولى التى ترجع فى أصلها إلى الإدراك الحسى ؛ ولهذا قالوا أن الخيال لا يخلق من عدم ؛ فالحياة العقلية ، مهما كانت راقية لن تخرج مشتملاتها عن هذين النوعين .

جرى علماء الفلسفة قديما على تقسيم الموجود الى جوهر وعرض : ووضعوا لكل واحد منهما تعريفا زعموا أنه يميزه ويقرب حقيقته إلى العقل، ثم قسموا الجوهر إلى مادى وروحى، والعرض إلى صفات أولى وصفات ثانية، ولكن علماء المذهب التجريبى لم يروا مبرراً لهذا التقسيم ، وأنكر بيركلى الفيلسوف الإرلندى (١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) الجوهر المادى ، وقال ليس لنا سبيل إلى معرفته ، أما الجوهر الروحى — النفس أو العقل — فيجوز أن نعرفه، وقد ارتأى هيوم أن الموجودات على الإطلاق لا تخرج عن صفات مجتمعة، فلا معنى لتقسيمها إلى جواهر وأعراض « لأنها إما أن تدرك بالعين، فهي لون ، وإما أن تدرك بالأذن فهى صوت ، وإما

أن تدرك باللسان فهى طعم ، وقس على ذلك بقية الحواس » يقول « إنى أود أن أسأل هؤلاء الفلاسفة الذين بنوا كثيراً من نظرياتهم على التفرقة بين الجوهر والعرض، وزعموا أنهم أدركوا كلا منهما بجلاء، من أين استمدوا فكرة الجوهر ؟ وهل وصلوا إليها عن طريق الحواس، أم جاءتهم عن طريق المشاعر التى تتوارد عليهم ؟ إن الجوهر لا يزيد على مجموعة من صور الآثار البسيطة ضم الخيال بعضها إلى بعض، وركب منها ما يسميه هؤلاء جوهراً »

قد أنكر هيوم فكرة الجوهر على الإطلاق لا فرق فى ذلك بين المادى والروحي، فالنفس ليست جوهراً روحانيًا به تدرك الأشياء، وإنما هى مجموع من التجارب والحالات الانفعالية التى تمر بالإنسان فى حياته ، فإذا انتهت هذه الحالات انتهى معها الوجود الشخصى، يقول ما ملخصه « انى حينما أرجع إلى نفسى — أو ما يسميه الناس نفسى — لا أجد شيئاً ذاتياً يمكن إدراكه على حدة ولكنى أعثر على صور متعاقبة من الإدراك كإدراك الحرارة والبرودة والسرور والألم والألوان والأصوات، ولو أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات انقطعت، ولم يكن هناك تفكير ولا شعور ولا

إحساس بحب أو كراهية ، لكنت عدمًا بعد ذلك ، فليس العقل سوى أنواع الإدراك والخواطر المتتابعة تمر بالإنسان، ثم تعاوده مرة بعد أخرى ، ثم تختفى وتختلط بعضها ببعض على أنحاء شتى وطرق متعددة ، ولكن ما العلة فى انضمام هذه الخواطر وتتابعها فى الحصول، وأخذ بعضها بزمام بعض إذا لم يكن هناك جوهر فعّال هو العقل يؤلف بينها وينظم صفوفها ؟ وماذا عسى أن يكون السبب فى هذا التتابع والارتباط ؟

هنا يفيض هيوم فى بيان حقيقة ارتباط الأفكار ، ويرجع علته إلى قوانين تداعى المعانى : وهى قانون القرب فى الزمان ، أو القرب فى المكان، أو التشابه ، فإنك اذا رأيت كلبا وصاحبه عدة مرات ، وجدت بينهما فى التفكير صلة أساسها العادة بحيث إذا رأيت بعد ذلك أحدهما أو خطر بالبال، حضر الآخر معه، وكذلك إذا شاهدنا البرق يتبعه الرعد لا يتخلف عنه، وتكرر ذلك أدركنا ارتباطا بينهما وتتابعاً زمنياً، حتى إذا حصل البرق تبعه عقلاً الرعد، ومن هذا القبيل أنك إذا رأيت وجه إنسان بينه وبين صديق لك غائب عنك شبه، أخطر وجه هذا الصديق ببالك ، ومن هنا نستطيع

أن ندرك العلة فى ارتباط الأفكار ، وأخذ بعضها بزمام بعض ، وتكوين مجموعة متماسكة الأوصال هى كل ما اشتمل عليه الحياة العقلية .

أما الاتصال بين الأفكار فعلى قسمين : اتفاقى وفيه تتابع الظواهر المختلفة تتابعاً لا تلازم فيه ، وذلك كما إذا حضر الملك ثم أشرقت الشمس ،فإن هذا من قبيل الاتفاق فى الحصول إذ لا يعتبر السابق علة للاحق . واتصال علىّ : وفيه تكون الظاهرة الأولى سبباً فى وجود الثانية ، وعلة لها ، وفى هذا النوع من الاتصال تدور العلة مع المعلول وجوداً وعدماً ، ولا يمكن الحكم بأن الاتصال علىّ إلا إذا شاهدنا تلازما فى الحصول بين الظاهرتين عدة مرات ، ومثال ذلك النار والحرارة ، والتبخر والأمطار ، وارتباط مناخ الإقليم ببعده أو قربه من خط الاستواء إلى غير ذلك .

ومن التلازم فى الحصول ، ندرك معنى العلية ،فأساس الإدراك عادة عقلية نشأت من تتابع الظاهرتين عدة مرات ،وليس مرجع العلّية صفة معينة فى الظاهرة السابقة أو اللاحقة أو كليهما معا

هذه ناحية من نواحى فلسفة هيوم الخطيرة النتائج أجملناها لك وأعرضنا عن دراسة بقية النواحى لصعوبتها

إمانويل كانت

(١٧٢٤ — ١٨٠٤ م)

أما وقد أجملنا لك مذاهب الفلسفة فى انجلترا، وعرفنا ما يغلب على أهلها من نزعات، فقد حق علينا أن ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين الحياة الفكرية، لنرى أبطاله، ونتعرف غاياتهم، والى أى ناحية فى المضمار يميلون، وليس أولى بالذكر وأجدر بالدراسة من «كَانْت» الألمانى؛ فقد كان من جبابرة العقول الذين طبعوا المدنية بطابع لا يمحى أثره.

ولد إمانويل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر إبريل سنة ١٧٢٤م فى مدينة كونجسبرج وكان أبوه فقيراً يصنع السُرُج واللُّجم ويقول بعض المؤرخين إنه اسكتلندى الأصل، هاجر إلى بروسيا، وطاب له العيش فى جهاتها، وكان شديد التمسك بدينه معنياً بتنشئة ولده على المبادئ الدينية الطيبة.

ولما بلغ الغلام العاشرة من عمره أدخله أبوه المدرسة، وغرضه العام إعداده لدراسة اللاهوت، بعد أن يتجاوز هذه المرحلة، فأكب على تعلم اللغة اللاتينية وبرع فيها، وأظهر مقدرة فى كتابتها

وعنى بدراسة آدابها ، وقراءة كتب المؤلفين من الطبقة الأولى ، أما اللغة الإغريقية فلم يكن لها عليه سلطان قوى .

وفى سنة ١٧٤٠ م دخل جامعة كونجسبرج ، واهتم بدراسة الرياضيات والطبيعة والفلسفة عامة ، وتلقى محاضرات فى اللاهوت ، وصمم أخيراً على ترك اللاهوت ، وانقطع لدراسة المنطق والمعقولات ، وحدث أن مات والده سنة ١٧٤٦م واضطر أن يبحث عن عمل يرتزق منه فاشتغل بالتعليم ما يقرب من تسع سنوات ، ثم أتيحت له فرصة العودة الى الجامعة لاتمام دراسته ، فرجع إليها ونال درجة الدكتوراه سنة ١٧٥٥ م ، ثم تفرغ للكتابة والتأليف فى الموضوعات الطبيعية والفلسفية ، وساعده على ذلك تعيينه أميناً مساعداً ، لدار الكتب بالجامعة ، وقد عرضت عليه فى أثناء ذلك وظيفة الأستاذية فى إحدى الجامعات ، فرفضها . وبقى كذلك حتى خلا منصب أستاذ المنطق والفلسفة فى جامعته ، فعين فيه سنة ١٧٧٠م ، فألقى المحاضرات ، وكتب له التوفيق فى عمله ، فسارع الطلبة الى استماع محاضراته ، وشاع ذكره ، وتداول أساتذة الفلسفة فى الجامعات المختلفة كتبه ، وجعلوها موضوع دراستهم ، ومع هذا لم يغير

هذا النجاح العظيم من خلقه ، فلم يدب إلى نفسه الكبر ، ولم يشمخ بأنفه ، بل بقى على تواضعه ، همه البحث ، وطلب العلم ، والأخذ بالحق أنى وجده .

كان كَانْتُ نحيل الجسم ، قصير القامة ، ضعيف البنية مشوه الخلق ، ولكن غلبت عليه البشاشة ، ورقة القلب ، وقد وصف هين حياته بقوله ما معناه مجملا « من الصعب أن نصف حياة إمانويل كَانْت ؛ إذ لم يكن له حياة ولا تاريخ ، بالمعنى الذى تؤديه هذه الكلمات ، فقد عاش عيشة مجردة آلية ، فى شارع بعيد عن ضجة المدينة وزحامها، ولو أنا وازنا بين يومه ، ودورة تلك الساعة العظيمة ، فى الكنيسة الأسقفية ، لما امتازت أعماله فى نظامها ، ودقتها ، وآليتها ، عن دورة الساعة ؛ فقد اعتاد أن يستيقظ من نومه مبكراً ، ثم يشرب القهوة، ثم يكتب ، ثم يحاضر، ثم يأكل ، ثم يمشى فى الخلاء ، مهما كان الجو. ولكل واحد من هذه الأعمال وقت محدود، لا يتقدم عنه ، ولا يتأخر ، حتى اعتاد جيرانه أن يعرفوا أن الساعة بلغت الرابعة والنصف ، حينما يرونه خارجاً من منزله، بعد الظهر، لابساً معطفه الرمادى ، ووراءه خادمه الأمين ، يحمل

مظلة كبيرة ، تحت إبطه . ولو أن أهل كنجسبرج علموا بما يدور بخلده من الأفكار، لأخذهم الفزع ، وتولتهم رعدة كالتى تنتاب المجرمين ، حكم عليهم بالإعدام ، ودنت ساعتهم »

وقد بقى كانت مشتغلا بالتدريس والتأليف ، حتى أدركته الشيخوخة ، ولحقه ما يلحق الطاعنين فى السن ، من فتور الجسم ، وذبول الحواس ، وفقدان الذاكرة ، وعند ذاك لم يكن له بد من اعتزال العمل ، وما هى إلا بضع سنين حتى أدركه ريب المنون ، ١٨٠٤م ففارق الحياة ، من غير أن يترك عقبا ؛ لأنه آثر أن يعيش أعزب .

فلسفة كَانْت

قرأ كَانْتُ كثيراً من مؤلفات من سبقه ، ومن عاصره من الفلاسفة ، وأخذ عليهم قصورهم فى البحث ، وعدم استقلالهم فى التفكير ، وعاب على هيوم رأيه فى العقل ، ورَجْعَه العلم إلى مصدرين : الآثار التى تبعثها المحسات ، عند تعلق الحواس بها ، والصور التى تبقى فى الذاكرة ، بعد غيبة المحسات عن المشاهدة ؛ ولذلك رأى قبل أن يصدر حكما حاسما ، أن يرجع إلى مشتملات

الحياة العقلية ، فيتناولها بالتحليل ، ويتبين أنواعها ، ويرد كل نوع إلى مصدره، الذي انبعث عنه ، ومن هنا وصف فلسفته بأنها انتقادية، وليس أدل على هذا من تلك الأسماء ، التي تخيرها لمؤلفاته : —

نقد العقل المجرد ، (١٧٨٤ م) ،

نقد العقل العملي . (١٧٨٨) م ،

نقد الحكم ، (١٧٩٠ م) ،

يتفق كانت مع هيوم في أن العلم يرجع إلى المحسات ، ولكنه يخالفه في أن العلم ينبعث عن المحسات وحدها ، فلا بد من وجود قوة عقلية فعالة ، تتأثر بالمدركات الأولى ، ولا تقنع بالوقوف عند هذا الحد، تتناول التجارب المختلفة، وترد بعضها إلى بعض ، وتنظمها وتجعل منها وحدة متماسكة الأوصال . ولولا هذا المبدأ الفعال ، لما كان هناك سبيل لإدراك مظاهر العالم الخارجي ، ومعرفة ارتباط بعضها ببعض . يقول مامعناه « لاريب في أن علمنا جميعه يبتدئ مع التجارب ، ولا في أن الوسائل التي توقظ القوة العاقلة وتبعث فيها النشاط والحركة ، هي الأشياء الخارجية ، عند ماتتصل بأعضاء الحس، وتحدث فيها انفعالات خاصة ، ولكن هذه وحدها لا تصلح

أساساً للعلم ؛ لأن عملها لا يتجاوز إحداث صور ذهنية ؛ فلا بد من وجود قوة مفكرة ، تتناول هذه الصور بالموازنة والتحليل ، حتى تتعرف خصائص كل واحدة منها، وتجمع بين المتشابه ، وتفرق بين ما لا تشابه فيه من هذه المدركات الأولى ، وتجعل من ضروب الإحساس علماً بالأشياء المختلفة : فالعلم لا يسبق التجارب في الزمن ؛ ولكن يبتدئ معها . »

يذهب كانت إلى أبعد من هذا في التحليل ، فيرى أن العقل لا يقف عند حد ما تبرره التجارب من العلم ، بل يخطو خطوات فسيحة في الاستنباط ، ويضع القوانين، ويحكم بضرورتها وعمومها، على الرغم من أن التجارب محدودة في الزمان والمكان ، ولم تشمل كل شيء في الوجود ، ثم يستدل على دعواه هذه بنظريات الهندسة، وقوانين الرياضية ، والعلوم الطبيعية على الإطلاق ، من نحو قولهم «مجموع زوايا أي مثلث يساوي قائمتين » وقولهم « لكل حادثة علة تسبقها ، وتستوجب حصولها » مع أننا لم نجرب إلا عدداً من المثلثات، مصحوباً بقيود الزمن، والمكان، والوضع، وإلا عدداً من الظواهر، التي سبقتها عللها .

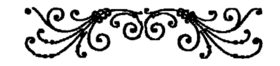
يضاف إلى ما قدمناه أن الموضوعات التى شغلت العقل البشرى، منذ القدم — ومنها الاله، وخلود النفس وحرية الإرادة — لايمكن أن يرجع إدراكها إلى حاسة من الحواس، ومن الذى يرضى لعقله الوقوف عند حد المحسات، فلا يجول فى عالم الأرواح ولا يتخطى قيود الزمان والمكان! يقول كانت مامعناه « هناك نوع من العلم يتخطى العقل فى إدراكه ميدان التجارب على الإطلاق، ويتجاوز فى أحكامه حدودها، وذلك بالاعتماد على المدركات الكلية، والمعانى المجردة، التى لا نظير لها فى دائرة الحس. وفى هذه الدائرة من العلم، حيث تعجز التجارب عن إرشادنا إلى طريق الحق، ولا تهدينا إليه إذا ضللناه، يفسح العقل لنا فى المجال، ويقدرنا على متابعة التفكير الخالص، والوصول إلى نتائج قيمة، تفوق فى مكانتها جميع مايعثر عليه الفهم فى مظاهر العالم المحس. حقا إننا نتنازل عن كل مانملك طوعًا، ونقابل كل خطر يتهددنا، ولا نرضى بأن نترك مباحث عظيمة المنزلة، يرشدنا اليها العقل الخالص، ومن منا يستولى عليه الشك، ويدعوه الإهمال، إلى ترك التأمل فى الله، وخلود النفس، وحرية الاختيار، مع أنها المسائل الجوهرية،

التى يعنى علم المعقولات — بالبحث فيها، ويحاول حلها»

هذا مجمل رأيه فى أصل المعرفة : فهو يتبوأ مكانه بين العقليين والتجريبيين ، فيدرك منزلة المحسات كأصل من أصول العلم ، ويقدر ماللعقل الخالص من قدرة على استنباط المعانى الذهنية، والاهتداء الى القوانين الضرورية العامة التى تسمو على قيود الزمان والمكان والتجارب.

ينتقل كانت إلى البحث فى حقيقة المعرفة ، وعلاقة العلم بالمعلوم، ويعرض للرأى القديم ، الذى تمسك به الفلاسفة زمنا ما ، فيعلن خطأهم فى اعتبارهم العلاقة بين الفكرة والأمر المحس الذى يبعثها ، كالعلاقة بين الشىء وصورته ، فهى مثاله ، الذى ينطبق عليه ويعلن أن العلاقة بين الأمور المحسة والأفكار ، علاقة تكوين وإيجاد ؛ فان الأمر المادى يكتسب هويته ، متى تعلق العلم به ، فلكى يكون وجوده حقيقياً، لابد أن يجد طريقه إلى العقل بادىء بدء ، حتى يشمله الشعور ، ويندمج فى عناصر الفكر . ولكن هل يدرك الإنسان العالم الخارجى على ماهو عليه فى الواقع ؟ وهل فى مقدور العقل أن يتغلغل فى باطن الأشياء ، ويعلم حقائقها ؟

يرى كانت أن واسطة الإدراك هى الحواس ، وهى خادعة، محدودة القدرة ، فليست تجلى لنا الأشياء على حقيقتها ، ومبلغ ما نعرف عن العالم الخارجى ، ظواهر الأشياء فقط ، مادمنا لانستطيع أن نخترق الحجب ، و نتعدى حدود الخصائص الحسية ، ونجتلى الحقائق ، ويعرف هذا المذهب باسم مذهب الظواهر أو مذهب المثال



المراجع العربية

المقدمة لابن خلدون

رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده

قادة الفكر للدكتور طه حسين

مذكرات للدكتور على العنانى

الملل والنحل للشهرستانى

الفصل لابن حزم

رسائل إخوان الصفاء

ديانة قدماء المصريين ترجمة الأستاذ سليم حسن

مبادىء الفلسفة ترجمة الأستاذ أحمد أمين

أقسام العلوم الحكمية ابن سينا

كتاب النجاة «

المدينة الفاضلة الفارابى

تهافت الفلاسفة الغزالى

تهافت التهافت لابن رشد

التمدن الاسلامى جورجى زيدان

دائرة المعارف فريد وجدى

التوراة

التلمود

بلاغة العرب فى الأندلس الدكتور ضيف

محاضرات الفلسفة العامة : الكونت دى جلارزا

فهرست ابن النديم
أخبار الحكماء للقفطى
فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين
تاريخ فلاسفة الاسلام للأستاذ محمد لطفى جمعه
فصل المقال لابن رشد
الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد تصدير الاستاذ أحمد بك
لطفى السيد لأخلاق ارسطو
طوالع الأنوار للبيضاوى وشرحه الأصبهانى

المراجع الانجليزية

Ancient Egypt : Rawlinson
Ancient Ideals : Taylor.
An Introduction to the Study of Philosophy : Paulsen.
Conflict Between Science and Religion : Draper.
Encyclopaedia Britannica.
The Field of Philosophy : Laighton
History of Philosophy : Rogers.
History of Philosophy : Erdmann
Intellectual Development of Europe : Draper.
Outlincs of Greek Philo. : Zeller.
Problems of Philosophy : Cunningham.
The Republic : Plato
The Trial & Death of Socrates : Church.
The. Philosophy in Islam ; De Boer.
A Critical History of Greek Philosophy : Stace

الفهرست

بيان صواب الخطا المطبعى

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٧	١٠	الدبنية	الدينية
٣	١٨	رعينا	راعينا
١١	١٩	تتأخى	تتآخى
٥	٢١	أنكلم	أتكلم
٦	٢٨	الأنسان	إنسان
١١	٣٠	تقرب	تغرب
٧	٤٠	يمسكوا	تمسكوا
٦	٤٥	انشاء	انشاد
٩	٥٧	فلم يتكر	لم ينكر
١١	٥٩	ومحبته	ومحبة
٤	٦٤	يضمون	ينضمون
٤	٧٣	عليهم	عليم
٨	٧٨	الدينية	والدينية
١٥	٧٩	موثل	موئل
٦	٨١	ورغب فى لذاته العلم	ورغب فى العلم لذاته
١	٩٤	اكسنافنس	زينوفانيس
٣	٩٤	اكسنافنس	زينو فانيس
٦	١٠٢	تسدم	تصطدم

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٧	١٠٨	الحق باطل	الحق باطلا
٨	١١٧	عنه الله	عند الله
٨	١٤٢	الناطفة	الناطقة
١	١٤٧	ممتاذة	ممتازة
١	١٥٠	عندهم	عنده
١٥	١٥٠	وانباعه	واتباعه
١٢	١٥١	و باحتقار	واحتقار
٨	١٥٦	مدارك	مرادك
١٦	١٥٦	فاتحة	فاتجه
٣	١٥٧	واتحاد	وايجاد
٦	١٥٧	اصلاح	أصلا
١	١٥٨	ادارة	ارادة
٨	١٥٨	أسا	أسى
١٦	١٥٨	نيل	نبل
١١	١٦١	٢٦٥ — ٢٧٠ م	٣٦٥ — ٢٧٥ ق . م
١١	١٦٤	والمسيحة	والمسيحية
١٠	١٧٠	وتستمع	وتستمتع
١٤	١٧١	مستوى	المستوى
٩	١٨٣	تستطيع	تستطع

الصواب	الخطأ	الصفحة	السطر
كثير	كثيرا	١٨٥	٦
كفواً	كفؤا	١٩٢	٥
الحكمة	للمحكمة	١٩٦	٤
بختيشوع	بختيسوع	١٩٧	٣
مجرد	بمجرد	١٩٨	٣
الفنون	بالفنون	١٩٨	١٣
دانو	دنو	٢٠٠	١
ابن	اب	٢٠٧	١٦
الوجود	الوجوب	٢٠٩	٩
البستي	النسبي	٢١٧	٩
الزنجاني	الزنجابي	٢١٧	١٠
زيد بن رفاعة	زيد ابن رفاعه	٢١٧	١٠
احداها	احداهما	٢٢١	١٣
كمن	وكمن (في بعض النسخ)	٢٢٣	٦
وسخرتهم	وسحرتهم	٢٤٦	١٠
واحدا	واحد	٢٥٧	٢
معين . »	معين .	٢٨٣	٤
الإرادة	الإدارة	٢٨٣	٩


Bibliotheca Alexandrina
05623355